324

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

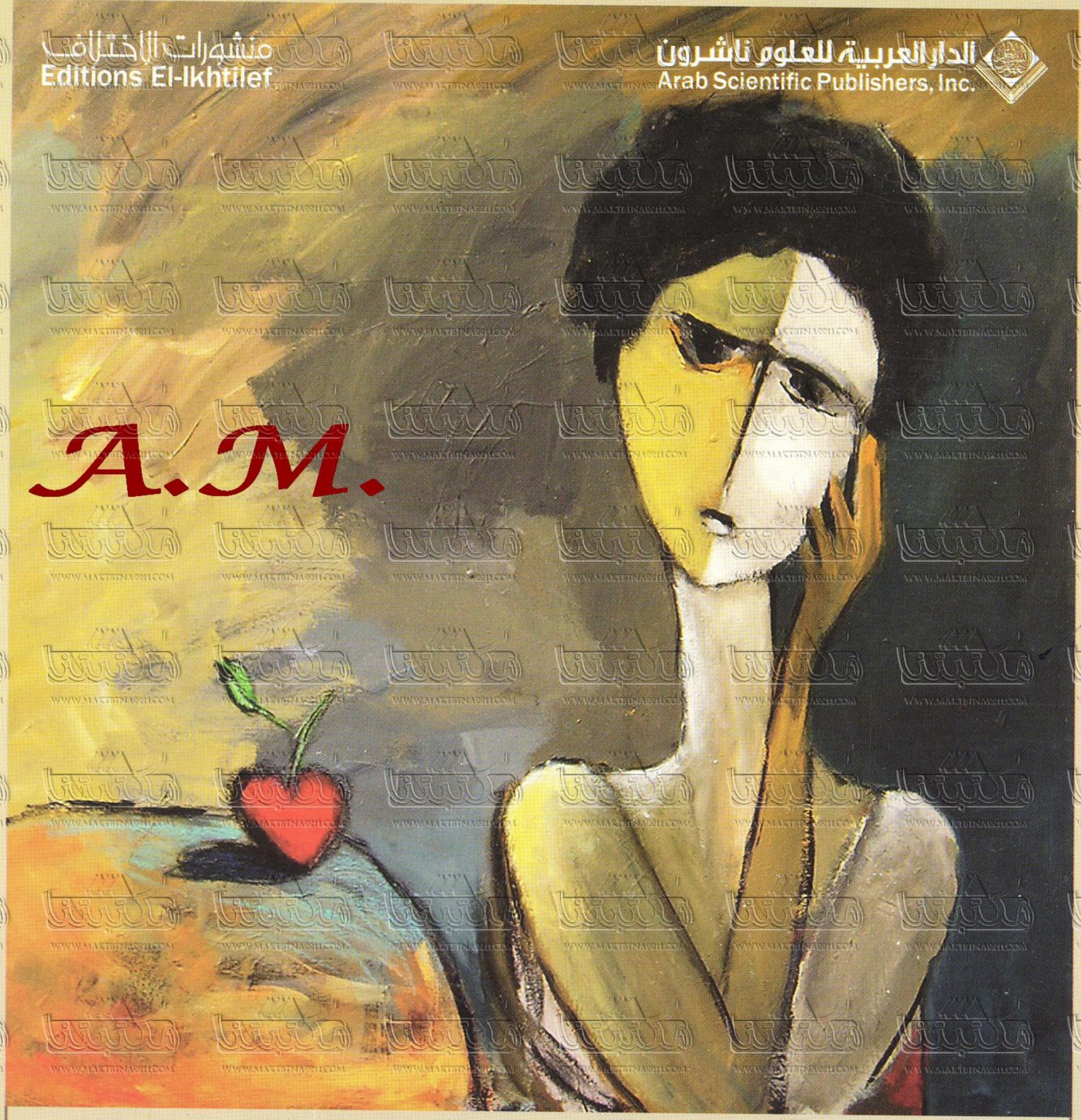

هيفاء بيطار

نسر بجناح وحيد

http://www.maktbtna2211.com/

رواية

Tuse.
29/1/2013
Riyadh

نسر بجناح وحيد

رواية

هيفاء بيطار

• روائية من سورية

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية تغريد البقشي
www.bagshiart.net - artbagshi@yahoo.com
تصميم الغلاف: سامح خلف

– اغتصبكِ؟

– أجل.

ها هو الانكسار مجسّد أمامه في صورتها، كفّت أصابعها عن الحركة، سقطت راحتاها في حضنها بوضعية الاستسلام، بدت متحللة من ثقل ذلك الكابوس بعد أن باحت به، لم تشأ أن ترفع عينيها لترى رد فعله، خافت أن تقرأ في العينين اللتين لم تعشق سواهما، شفقة أو احتقاراً أو خيبة، بدت مهتمة بمتابعة نقوش تنورتها من اللونين الخمري والأسود، سألها بصوت حاول أن يكون حيادياً:

– وماذا فعلتِ؟.

قالت ببرود:

– لا شيء.

• صدر للمؤلفة أيضاً:

ISBN 978-9953-87-929-1
9 789953 879291

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (213+)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com - www.nwf.com
جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم

كتابنا القادم

الفأرة الطباخة

نسر بجناح وحيد

رواية

هيفاء بيطار

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يوم المعجزة، أو يوم ألف ليرة

أفاق في الخامسة فجراً على كابوس، فتح عينيه مجفلاً بينما قلبه يطرق بقوة مضخّة، وجسمه مهدود، كأنه قضى كل الليل يصارع قوى وهمية، لم يميّز بدقة أثاث الغرفة لأن عتمة تشرين الثاني كانت تغمرها. إحتاج لدقائق كي يسيطر على رعبه ويرجو قلبه أن يخفف من ضرباته الهستيرية، استوى في فراشه وهو يؤكد لنفسه أن كل ماأرعبه ليس سوى منام. مشّط شعره الفاحم شديد النعومة بأصابع يديه، بحركات متلاحقة، لكن أيّ منام هذا؟ إنه كابوس حقاً. تآلفت عيناه مع الظلمة واستطاع أن يميز الأثاث الأبدي، الخزانة الهائلة قبالته المكتبة القديمة عن يساره، والمرآة والكومودينو عن يمينه. استعاد حلمه وهو يحس بالدهشة ويتساءل: أين يكمن الرعب فيه؟ لقد حلم بنفسه وهو في الثالثة عشرة من عمره يجلس على مقاعد الدراسة البنية المهترئة، كم كانت تلك الصورة واضحة، الصف ذاته في الطابق الثاني، بنافذتيه العريضتين المطلتين على حديقة مهجورة، وهو لايحلو له الجلوس إلا قرب النافذة، رغم أنه أصيب مرتين بنزلة صدرية لتسرب الهواء البارد إليه من مفاصل النوافذ المهترئة، استعاد وجوه زملاء دراسته، حتى صورة أستاذ العلوم كانت من الوضوح لدرجة تذكر بزته الوحيدة التي كان يلبسها طوال العام الدراسي، وحذاءيه المضاعفين في الأيام الماطرة، كان منظره يثير السخرية وهو ينتعل حذاء من النايلون الرخيص فوق حذائه الجلدي، واستطاع في منامه أن يحس بالسخرية التي كان الطلاب يحسونها تجاه الأستاذ وحيد البذلة. غريبة هي الذاكرة، إن خياله يوقظ ذكريات تعود لأكثر من ربع قرن، لا تزال طازجة ومحفورة عميقاً في تلافيف دماغه..

لكنه عاد يتساءل: أين يكمن الرعب في هذا المنام؟ آه يكمن في الحلم، في الحلم ضمن الحلم، كان جالساً في مقعده الدراسي في الصف الثامن وأستاذ العلوم يشرح الدرس، فيما هو سارح من خلال زجاج النافذة إلى البعيد، يحلم أن يصير طبيباً، حلم وحيد راوده سنوات طويلة، الحديقة المهجورة تذكرها تماماً، بنخلتها القصيرة اليابسة وأكوام الأوراق والقمامة التي كانت تلقى فيها من المنازل المجاورة، تساءل وهو يقوم من فراشه متجهاً بآلية إلى المطبخ ليعد قهوته: أين يكمن الرعب في هذا المنام؟ أجاب نفسه: في الحلم ضمن الحلم، في حلم الطب، الذي تحقق للأسف. ترك قهوته تغلي واتجه غاضباً صوب البراد الذي يصم أذنيه بهدير محركه، إنه يكره الأشياء أحياناً كالأشخاص، أدار القرص الأسود داخل البراد، فأطفأ محركه، توقف الهدير المزعج، منذ سنوات يغلي غضباً من صوت محّرك البراد الذي أصابته الشيخوخة، ولايتمكن من شراء براد جديد لأنه لايملك المال. اندلقت القهوة، فلعن صباحه الذي ابتدأ بكابوس واندلاق القهوة، خرج إلى الصالون ليرشف قهوته محاولاً استعادة شيء من صفائه، طارداً العكر الشديد الذي خلفه الكابوس في روحه، لكن سحر المنام ظل يلّفه، قاعة الدراسة يكاد يشم رائحتها، المقعد الخشبي الضخم بالثقب الدائري في جانبه حيث كان الطلاب يحشرون علب الحبر، الكلام العاطفي الرخيص والمبتذل والنكات التي كانت تكتب بالأقلام أو تحفر بسكين صغير. حتى الخريطة المهترئة للعالم العربي المغطاة بالغبار بتمزقها الجانبي الذي ألصق مراراً تذكرها. يالهول مخزون الذاكرة. أكثر ماآلمه حالة الحلم التي تجسدت أمامه، لكأنه رجع ربع قرن إلى الوراء الحلم بالسماعة وجهاز الضغط والروب الأبيض، والعيادة الغاصة بالمرضى، والسيارة الأنيقة التي يقودها مسرعاً لإسعاف المرضى، والبيت الأرستقراطي الذي يسكنه مع أسرته، والرحلات إلى الخارج... استعاد في حلمه كل طاقته على الحلم حين كان في الثالثة عشرة، أكدّ لنفسه وهو يرشف قهوته أن الرعب يكمن تحديداً في الحلم بدخول كلية الطب، وخاطب صورته في الحلم: أيها الأحمق، أما كنت تعرف كيف سيؤول إليه وضع الطب!!

نظر في ساعته، لاتزال الخامسة والنصف، لكم يكره الاستيقاظ باكراً ماذا سيفعل؟ تناول مجلّة، قلّب صفحاتها، استوقفه عنوان (السفاح بين الأقارب) قرأ بدون تركيز عن حادثة اغتصاب تعرضت لها طفلة في التاسعة من عمرها من قبل والدها، رمى المجلة جانباً وعاصفة غضب تنفجر في صدره، حدث نفسه: والله هؤلاء الآباء يستحقون الإعدام، كرر تلك الكلمة مراراً مفرغاً كل مرة شحنة من حنقه، كانت صورة الفتاة تنضح بالألم والضياع رغم العصابة السوداء التي غطت عينيها رشف القطرة الأخيرة من قهوته وتساءل: هل يعاود النوم أم يستحم؟ كاد النوم يغويه أكثر مقدماً له صورته يتناول الحبة المنومة ويستسلم لدفء الفراش لولا أنه تذكر موعده الصباحي مع فريال، المرأة الشبقة التي تعيش للجنس كما يسميها. تذكر كيف يمازحها قائلاً: الحياة تعني الجنس بالنسبة لك، فترد ضاحكة: وماذا في ذلك، كل الناس الحياة بالنسبة إليهم تعني الجنس، لكنهم يكذبون، ويتبجحون بالقيم والأخلاق، فيضحك عالياً مردداً قولها بسخرية: القيم والأخلاق.

اتجه إلى الحمام وضغط الزر الكهربائي لتسخين المياه، تثاءب وتمطّى، الوقت لايزال مبكراً جداً، اللعنة على الاستيقاظ المبكر، غمرته موجة مباغتة من الحزن وهو يتلّبس شخصية الفتى في حلمه، شخصيته هو منذ ربع قرن، تمدّد على فراشه مريحاً رأسه على ساعده المطوية باتجاه عضده، شعر بحنان جارف تجاه ذلك الفتى الذي يملك طاقة رائعة على الحلم، تذّكر كيف كان يدرس بإخلاص نسكي، وكيف كان يتشاجر مع والديه حين يطلبان إليه أن يرتاح وأن يزّفه عن نفسه بحضور المسلسل اليومي، كان يحتج غاضباً: عجباً كيف تطلبون مني أن أقطع دراستي لأحضر المسلسل؟!

يخاطب أمه: ألا تخشين علي، يجب أن تشجعيني دوماً على الدراسة.

ـ لكنك لاتحتاج لتشجيع.

ـ بل أحتاج كل لحظة لمن يشجعني، هل نسيت أنني أسعى كل جهدي لأغدو طبيباً جراحاً.

ـ يستحيل أن أنسى، أنه حلمنا أيضاً، أن تغدو طبيباً، لكن رفّه عن نفسك قليلاً يابني. يتنهد بارتياح لكأنه يستحضر صور الزمن الآتي، حين سيغرق في الرفاهية بعد أن يصير طبيباً يفتح عيادة، يقول وهو يتجاوز أمه بنظراته: سيأتي زمن الراحة والرفاهية ياأمي، من طلب العلى سهر الليالي.

نفض عنه الغطاء واتجه إلى الحمام، سرت في جسده قشعريرة برد، اللعنة على هذا الدوش، قرصه قديم صدئ وقد تكلّست أغلب ثقوبه، الماء يسيل منه بخطوط رفيعة، تذكرّ كيف صعق حين سأل عن سعر صنبوري المياه وعمود الدوش قالوا له بعد المساومات: عشرون ألفا، أي راتبه عن أربعة أشهر. راتبه هو الوحدة القياسية في حياته، كل شيء يقيسه استناداً إلى راتبه المصاب بالشلل كما يحلو له أن نسميه، لم ينس كيف غضب وشتم الغلاء والزمن والراتب والطب... هل هناك أشياء فرّت من لعناته؟ أبداً حتى هو نفسه لم ينج من مطر اللعنات التي يقذفها لسانه، لعن اجتهاده والساعة التي دخل فيها كلية الطب، والساعة التي قرر فيها أن يختص جراحة، أية حياة هذه تتحول إلى لعنات؟! حضّر فنجان قهوته الثاني، بعد أن أعطاه الاستحمام شيئاً من النشاط فكّر أن من المفضّل أن يخفف القهوة إذا أراد فعلاً الانقطاع عن تناول المنوّم كل مساء، لكنه للحال سخر من فكرته وقال بتهكم: ولماذا أنقطع عن صديقي المفضّل، كيف عساني أنام دون تلك الحبة الاسعافية التي توقف تدفق وعيي وأفكاري، تنهدّ، لكم هو متعب صحوه، إنه يحسد الناس الذين يسرحون ساعات في اللاشيء، أما هو فلايكف تفكيره عن العمل لحظة واحدة، يصول ويجول في كل شيء كرر جملته: آه، ما أصعب صحوي فكيف سأمتنع عن المنوّم.

لايذكر بدقة كيف تعلّق بالمنومات؟ كم كان نومه سهلاً أثناء الدراسة ما أن يوسد رأسه على المخدة حتى يغرق في نوم عميق، لكنه ما إن بدأ حياته العملية حتى أصبح يعارك الأرق كل ليلة، أنهكه العراك الطويل لساعات الليل، لجأ إلى المنّوم يستنجده من البحلقة في الأثاث، وأفكار شيطانية خبيثة تتنطط في دماغه، تصوّر له المستقبل بلاأمل، بلانافذة خلاص من الذل اليومي متعدد الوجوه، عدم قدرته على التأقلم واستيعاب الظروف المستجدة والمبطّنة بالقلق

المتعاظم، حبة صغيرة من المنوّم توقف كل هذا التدفق، تجعله ينتقل إلى ضفة الأمان اللاواعية، تغرقه في نوم عميق بلاأحلام. هذا مايحتاجه، كي يتمكن من استئناف يوم جديد، خيبة جديدة، تطلّ أمر الإدمان على المنومات، حتى صار يستيقظ بعد منتصف الليل، فيتجه بآلية إلى خزانته يفتح بابها، يمد يده إلى العلبة الصغيرة يخرج قرصاً يبتلعه مع قليل من الماء، وغالباً بدون ماء، يعود إلى فراشه مندساً في مخاوفه منتظراً حالة الغياب.

ذات مرة قرّر بعزم أن ينقطع عن إدمانه، تحدى نفسه ورمى الحبوب في القمامة، خفف شرب القهوة رغم ولعه بها، رشف فنجانين فقط، واحداً صباحاً، والثاني الساعة الرابعة بعد الظهر، ولمّا حلّ المساء داهمه الخوف بأنه لن ينام، وبعد منتصف الليل أحس بوهنٍ شديد، وأخذت عضلاته تؤلمه وقلبه يتسّرع، ندم كونه رمى المنومات في القمامة، لكن عزمه على إيقاف ذلك الإدمان كان قوياً، صبّ لنفسه قليلاً من الويسكي وأخذ يرشفه على مهل سرى خدر لذيذ في أوصاله، وحين تمدد في فراشه أخذت ضربات قلبه تتسارع أكثر وأكثر، أغمض عينيه متوسلاً لكل قوى الخير في الوجود أن تسعفه لينام، أغفى ساعتين، لكنه أفاق منزعجاً وهو يحس بضيق وضجر شديدين شرب قهوة الصباح محاولاً بث شعور الانتصار في نفسه بأنه تغلب على الحبة المنومة، ورغم أن يومه مرّ تعساً وهو يغالب تعباً يهد مفاصله، إلا أنه حاول أن يوهم نفسه بأنه راضٍ ومرتاح، وألزم نفسه بالاقتصاد من شرب القهوة، لكنه في قرارة نفسه كان يعرف كم هو مخدوع، ويكذب على نفسه.

حين حلّت الليلة الثانية أخذت أعراض نقص النوم تشتد عليه، ضيق وضجر، ساءل نفسه: مامعنى أن تبطل تناول قرص يريحيك، ويدخلك بحالة من السلام المطمئن؟ لماذا عليك أن تظل صاحياً متعاركاً مع الأفكار الشيطانية؟ صب لنفسه القليل من الويسكي لكنه لم يشعر بالارتخاء المرجو الذي يقوده للنوم، دسّ نفسه في فراشه والساعة تتجاوز منتصف الليل، كاد يبكي من التوتر، لم يسعفه النوم، أخذت ضربات قلبه تتعاظم وأنفاسه تضطرب كأنه

يؤذن ببكاء لايتحقق، ندم كونه رمى الحبوب في القمامة، من أين سيحصل عليها الآن؟!

قام من فراشه رامياً الغطاء بعصبية، واتجه بآلية إلى صندوق الأدوية الأبيض الصغير المعلّق في جوار الممشى، أشعل النور وأخذ ينكش في الأدوية، كلها دعايات من شركات الأدوية، أحس بغبطة شديدة وهو يكتشف إبرة فاليوم، كسرها ليشربها رغم انتباهه أن مدة صلاحيتها منتهية منذ تسعة أشهر، يااللطعم المر المثير للغثيان، شرب بعدها الماء، وجلس في كرسي وحدته شاعراً بالسريان السريع للدواء في أعصابه يخدرها ويشلها، ياه ماأحلى الخدر، بالكاد جرّ نفسه إلى فراشه وغرق في لاوعي لذيذ، لذيذ. تنبه لصوت أمه توقظه صباحاً وهي تسأله برفق: كريم ألن تذهب إلى المشفى، الساعة الآن العاشرة إلا ربعاً؟ كان يتمنى لو يظل في فراشه، لكنه تحامل وقام يلبس ثيابه على عجل، أمكنه أن يشرب في ذلك اليوم ماشاء من القهوة، صمم أنه لن يبطل المنومات ابداً، فهي وسيلته الوحيدة في تحملّ حياة تصارعه في دقائقها وثوانيها مهشمة أبسط أحلامه.

حين دخل الصيدلية ليشتري الحبوب المنومة ذاتها، أحس بسعادة كبيرة، لقد لقنه اليومان العصيبان درساً مهماً بأن الحياة لايمكن أن تحتمل دون وسائل مساعدة.

نظر في ساعته، إنها الثامنة، تنهد متأففاً: ليس هناك ماهو أشد إزعاجاً من الاستيقاظ الباكر، حاول تبديد نكده المتأصل في روحه منذ سنوات، بأن يستحضر ذكرياته الطازجة مع فريال، تمددت كل صورهما معاً أمام ناظريه، أشعل سيجارة ونفث دخانها ملاحقاً بنظرة تلاشي الدخان في الفراغ، هكذا علاقته مع فريال مجرد دخان يتلاشى. تذكر يوم قصدته في عيادته منذ عام، في مثل هذا الوقت من السنة، كانت السماء محجبة بالغيوم الرمادية التي أرخت وطأتها على روحه، كان جالساً في عيادة تحنيطه الأبدية منذ ساعتين يحارب أنتظاره اللجوج للمريض، غزته رائحة عطر انثوية كثيفة، وأطلّت سيدة

أميل للامتلاء، تملك جاذبية طاغية، حاول طرد سحنة الملل عن وجهه، وتحريك قليل من الدماء الساخنة في وجنتيه، دعاها للجلوس مرحباً بها بلباقته المعهودة مع السيدات خاصة، وابتدأ استجوابه التقليدي عن الاسم والعمر والمهنة والشكوى والحالة العائلية، أخبرته أنها في الثلاثين متزوجة من رجل يكبرها بعشرين عاماً، منذ سبع سنوات، ولم ترزق منه بأولاد، وبأن العيب من زوجها، توقفت عند تلك المحطة الكلامية مركزة أنظارها في عينيه لتتبين مدى تعاطفه معها، تحديداً لتقيس نمو بذرة شهوته لها، سألها عن شكواها فقالت بأنها تعاني آلاماً مبهمة في بطنها، وبأنها قصدت العديد من الأطباء باختصاصات مختلفة فلم يعرفوا سبباً لأوجاعها.

دعاها إلى سرير الفحص، طلب إليها أن تتمدد عليه كاشفة عن بطنها وأشار إلى الشرشف الأبيض لتتغطى به، تركها لتستعد لوضعية الفحص، مديراً ظهره، متشاغلاً بتعقيم يديه بالكحول...

همست بصوتٍ معجون بنداء الأنوثة: أنا جاهزة. صفعه بياضها المثير، وحين أخذت أصابعه تضغطان في مناطق معينه في بطنها الطري وهو يعي كيف تتعمد أن تسمعه صوت لهاثها المفتعل، قالت له فجأة: دكتور زوجي لايجيد استعمال يديه!

ارتعشت يداه كأن كهرباء مفاجئة سرت بهما، نظر إليها، طالعته صفحة وجهها تنضح بالرغبة، تحديداً عيناها المكحلتان باتقان بديع، وذلك البريق العميق المشّع في بؤبؤي عينيها. ابتسم ابتسامة تعني أنه فهم إلى ماترمي، ابتعد وهو يقول لها بأنها تستطيع أن تسوي ملابسها وتلحقه إلى مكتبه....

هل تعمدّت أن تريه جوف حقيبتها الممتلئ بالأوراق المالية من فئة الخمس مئة ليرة؟ وحين امتدت يدها لتدفع له، خفق قلبه فرحاً وهو ينتظر الورقة التي انتظرها طويلاً لأيام، فيما جيوبه خاوية إلا من ليرات قليلة، تظاهر أنه لايملك المال من فئة المئة ليرة ليعيد لها البقية بعد أن وضعت أمامه خمسمئة ليرة تلتمع أنيقة متباهية بقيمتها أو شخصيتها ـ لافرق ـ استأذنها ليصرف الخمسمئة،

لكنها رفضت بشدة قائلة: اعتبر البقية ما سأدفعه عند المراجعة، أصرّ على رفضه الكاذب وأصرت وهي تقسم له أنها ترفض تسلّم أية بقية.

قدّم لها سيجارة تناولتها شاكرة، لفحته مجدداً رائحة عطرها الكثيفة، وهو يقترب منها ليشعل نار الرغبة فيها، سألها عن علاقتها بزوجها عارفاً أنها تنتظر تحديداً هذا السؤال الذي سيكون مفتاح علاقتهما، قالت بعد أن تنهدت بافتعال: إنه شبه عنين، عقيم، وحين سألها: لماذا لاتنفصلين عنه؟ استنكرت بقوة وهي تقول بأنه يعيلها هي واسرتها ولايبخل عليهم بشيء، وبأنها في الواقع تقدّر أفضاله الكثيرة على أخوتها، وحين تفحّصها بعينيه السوداوين العميقتين، متعمداً أن يشعل ذلك الحنين المختزن والكامن في روحها لرجل يعرف أنها تتوق إليه ولم تعد تملك صبراً للارتماء بين ذراعيه وسألها: وشبابك؟ أيضيع هدراً؟! قالت وقد كست وجهها سحنة حزن مبالغ فيه: الحياة لاتعطيك كل شيء يادكتور يجب أن تضحي بأشياء لتحصل على أشياء أخرى.. وافقها على كلامها كان سيوافقها على أي كلام ستتفوه به.... قال لها بأنه لايفضل أن يعطيها أي دواء قبل أن تجري بعض الفحوص الشعاعية والمخبرية، لكنها علّقت بأنها أجرت مراراً هذه الفحوص، والنتائج دوماً سلبية. ترّجع صدى صوتها في أذنيه: زوجي لايجيد استعمال يديه، ابتسم قائلاً دون ذرة تحفظ: في الحقيقة، نضارتك الطاغية لايمكن أن تخفي وراءها مرضاً.. بادلته الابتسام بسخاء متعمد، كانت شرارة الاشتعال جاهزة للانطلاق، تبادلا نظرة تواطؤ، حدّد لها موعداً للمراجعة، كتب لها وصفة دواء مسكن، نصحها أن تتناول حبة منه إذا اشتدت عليها آلامها الوهمية، غادرته وهي تؤكد له أنها لن تنسى أبداً موعد المراجعة.

تعّمدت أن تقصد عيادته في الموعد المحدد، متأخرة، اعتقد أنها لن تأتي وأوشك على إغلاق العيادة، إلى أن أنذره عطرها الهجومي بقدومها، دخلت لاهثة تعتذر عن تأخرها، شملها بنظرة متمرسة على افتعال الشهوة، أغلق باب العيادة، وخلال دقائق كانا متمددين على سرير الفحص الطبي، غارقين في متعة الاكتشاف الأولي، كانت تملك بشرة ساحرة بنعومتها، وقواماً ممتلئاً بتناسق،

وكانت تهبه شفتيها، كما لو أنها تكافؤه، أحس بشهوتها متركزة في ذلك الاكتناز الشهي في شفتيها، كانت تريد تخزين أقصى قدر ممكن من المتعة في ذاكرة جسدها، وكان شبقها يثيره إنما لايدخله أبداً في إطار التواصل العميق المختبئ خلف لعبة الأعضاء المثيرة، ماكانت ترغبه فيه بقوة، الشباب المتمثل فيه النضارة والحيوية والقدرة، ماكانت تنفك تزرع ظهره وفخذيه بأصابعها بخطوط حادة كأنها تحرثه، وتريده في الوقت ذاته أن يشتهيها حتى الإغماء، وكان يمثل بدوره أنه مستثار حتى حدوده القصوى، وبأن احتمال فتنتها وسحرها يفوقان طاقة احتماله. راقبها في لحظات نشوتها العظمى وتساءل: أيعقل أن تكون حقاً محلقة في عالم النشوة إلى هذا الحد؟. أم تراها تمثل؟ لاحظ من المرة الأولى التي تعرت أمامه بنفاذ صبر، كم تركز جهودها في امتاع نفسها، لاينكر افتتانه بجمالها وجرأتها، وبأنها قادرة أن تقوده بلحظات إلى حيث تريد هي.. وبأنها لاتمثل لعبة الشرف والأخلاق المفروضة سلفاً على المرأة في الشرق، لكنها عاتبته في الليلة ذاتها على الهاتف بأنه لم يجردها من ثيابها كاملة، وبأنها ظلت أسيرة حذائها وجواربها الحريرية الطويلة، وظل قميصها عالقاً بكتفيها، أدهشته حقاً جرأتها، وإيمانها الوحيد بحقها في الاستمتاع، باشباع شهوات جسدها النرجسي البديع، لاينكر أن موجة من التقزز والنفور كبلّت روحه وهي توصيه في قمة اندماجهما ألاّ يترك آثاراً على جسدها، راودته عندها فكرة متسلطة بأن يتركها ويحرر جسده من أسر أطرافها، وتخيل زوجها المخدوع الذي يعتقد بإخلاصها له لمجرد حيطتها بألايترك عشاقها آثاراً على جسدها. لكنه اكتفى بالابتسام مجاملاً، فيما عاصفة من الاحتقار تنمو في روحه، وهو منهمك في تبادل قبلات أكثر غوصاً فيها.

فيما بعد أصبح يزورها في بيتها خاصة حين يكون زوجها مسافراً، كل مرة كانت تنتظره بشبق جامح، اعتقد في لبداية بأنه الرجل الأكثر إثارة بالنسبة لها، لكنه عرف أن لديها عشاقاً آخرين، لأن اتصالات هاتفية مفاجئة كانت تباغتها وتضطرها للانسحاب من غرفة شهواتها لتتكلم من الخارج، ماكان يحس بأدنى شعور بالغيرة من عشاقها أو من زوجها، لم يشعر أبداً بأن روحه

تعانق روحها، كانت إمرأة تفهم لغة الجسد فقط ولطالما تساءل: ألا يخطر لزوجها بأنها تخونه؟! أتراه يثق بها حقاً!

تذكر أن موعده معها الساعة الحادية عشرة، سيقصد مشفى الرخام تمام العاشرة ليخربش توقيعه، ثم سيرشف القهوة مع الأطباء والممرضات في استراحة العمليات وسينسل هارباً في الحادية عشرة إلا ربعاً، ستكون بانتظاره عارية كعادتها تحت قميص نوم شفاف، سيقضي في سريرها الزوجي المعّطر ذي الشراشف الملونة والمطرزة ساعة من التأجج الحاد للرغبة، ثم سيرشفان القهوة، سيعود قبل انتهاء الدوام إلى المشفى ليخربش توقيعه ظهراً، يالللمهزلة!! لم تبد حياته على هذا القدر الهائل من العار كما بدت له هذا الصباح، وتساءل بدهشة عظيمة وكأنه ليس معنياً بحياته: أيعقل أن يفرّ جراح من المشفى ليذهب لمضاجعة إمرأة، ثم يعود إلى عمله!؟

بدا له هذا الأمر خطيراً و مشيناً لدرجة لاتقبل أي تبرير، لكن ذاكرته سرعان مانبهته بأنه واحد من قطيع كبير يفرون كل يوم من المشفى بعد التوقيع الصباحي، ويعودون إليها عند اقتراب موعد التوقيع ظهراً. هل يقصدون عياداتهم، أم مشاغلهم الأخرى، أم يلاقون عشيقاتهم! كله يتساوى، تعددت الأسباب والموت واحد، رغم قناعته العقلية في تبرير فرار الأطباء من دوامهم الرسمي، إلا أن الصور التي شحذه بها خياله وهو يذكره بلقطات متتابعة من وصاله المحموم مع فريال في الوقت الذي يجب أن يتواجد فيه في غرفة العمليات أو العيادة الجراحية، بدا له أمراً لايحتمل... لكن، ماذنبه إن لم يكن هناك عمل؟! إلى متى سيظل يتساءل هذا السؤال؟ أيعقل أن يمضي العمر كله وهو أسير سؤال؟! أو حالة؟ لكن ألم تنصرم سنوات شبابه وهو ينوس بين عيادة التحنيط الأبدية ومشفى الرخام؟! أيستطيع أن يفرّ من هذه الحقيقة؟ ألا يلحقه الواقع كظله؟! كيف يستطيع الإنسان أن يفرّ من ظله؟. تململ في جلسته، لم يستطيع كبح جماح غضبه من هذه الأفكار المتلاحقة، اللعنة على الاستيقاظ باكراً، اللعنة على الكابوس الذي أيقظه من نومه فجراً، لايزال منامه طازجاً وصوره تتراقص أمام ناظريه، ياه، كم ينسى الإنسان ماضيه، أيعقل أنه كان

ذات يوم ذلك الطالب المجتهد الذي يحلم بدخول كلية الطب؟ لم يكن حلمه وحده، بل حلم أبيه وأمه، والده الذي أرهق نفسه سنوات في الدروس الخصوصية ليستطيع تأمين المراجع الطبية والمصاريف الضرورية لابنه، وليتمكن من اللهاث وراء الغلاء المتعاظم، كم كان يداري تعبه، وهو يرجع في ساعة متأخرة من الليل محملاً بالأكياس، راسماً ابتسامة فوق سحنة إرهاقه العميق، متظاهراً أنه يتابع برامج التلفاز بعد أن يطمئن على دراسة ابنه، فيما عينيه غارقتان في نوم اشبه بالسبات، توفي المعلم المسكين بعد شهرين من تخرج ابنه أو حلمه من كلية الطب، كأنه أراد إرادياً اعتزال العمل الإضافي والتعب، كل المدينة سارت في جنازة أستاذ الرياضيات المثالي الذي أدى رسالته تجاه اسرته وتلاميذه على أكمل وجه..

غوري أيتها الذكريات، ابتعدي عني ياشياطين الأفكار، لماذا تعكرين صباحي هكذا، قام عن كرسيه كالهارب من نفسه ارتدى ملابسه، وخرج قاصداً عيادته، ماكاد يسير خطوات حتى ابتدأ المطر بالانهمار، أسرع خطاه وشعور يتعاظم في نفسه بأن هذا اليوم ليس يومه، ابتدأ سيئاً، وسينتهي سيئاً، هكذا يحدثه قلبه.

* * *

تقع عيادة الدكتور كريم في شارع رئيسي وسط المدينة في الطابق الثاني من بناء تجاري ضخم، يضم كل طابق ستة مكاتب، رغم المساحة المتواضعة لعيادته التي لاتتجاوز الأربعين متراً مربعاً فإنها تلفت النظر بأناقتها المتقشفة، كانت مؤلفة من غرفة انتظار، وغرفة للفحص ومكتب للطبيب معاً، وقد فصل بينهما قاطع خشبي.

كانت علاقاته مع جيرانه أكثر ودية، في جوهر طبعه ماكان يفهم العلاقات الفاترة. كان إما يحب أو يكره، ومنذ تعارفه الأول على أي كان، كان يختار بحدسه الفطري المميز إما أن يدلق عواطفه واهتمامه مغرقاً بها الشخص، أو يحجب نفسه تماماً عنه مكتفياً بالعلاقة التي تفرضها الظروف، إنما

مانعاً أية نسمة من عواطفه الغنية أن تنساب باتجاه الشخص الذي أقصاه عن عالمه... لم يخب أبداً في سلوكه هذا، فمنذ دخوله المبنى الضخم ليداوم في عيادته وتعارفه على معظم أصحاب المكاتب، عرف أنه سيتصادق مع جاره المهندس الكهربائي، كذلك مزين الشعر للسيدات والمحامي الخمسيني الذي كان يشيع في روحه الطمأنينة التي افتقدها منذ وفاة والده، وعرف أنه سيكتفي بالسلام المفروض بينه وبين المخلص الجمركي.

كان محبوباً بصدق من قبل جيرانه، يتفقون جميعاً على سحر حديثه وغناه وعلى ذلك الانطباع الرائع بالراحة والثقة الذي يتدفق منه ويغمر من حوله كانت مرونته ودماثته في الانفتاح على الناس، وانتزاع ثقتهم بسهولة كما ينتزع المغناطيس المسامير المطمورة بالتراب، تثير العجب... خلال فترة وجيزة كان الصديق الحميم لجيرانه، عدا المخلص الجمركي الذي أقصاه عامداً عن صداقته وخلال عشر سنوات، من يوم افتتاح الدكتور كريم عيادته، تحول أصحاب المكاتب في الطابق الثاني إلى عائلة واحدة... لهم طقوسهم في اللقاء اليومي صباحاً، وبعد الظهر لشرب القهوة أو الشاي، ولتناول بعض الحلويات أحياناً، كل جيرانه كانوا يتمنون في سرهم لو تغصّ عيادة جارهم الطبيب بالمرضى، لكنهم مع مرور الأيام والسنوات اعتادوا أن تظل تلك العيادة فارغه إلا من قلة نادرة من المرضى، إنه القدر المتجهم الوجه الذي لم يرض أن يبتسم للدكتور كريم، كان جيرانه على درجة من المحبة والوفاء له لدرجة كانوا يلتقطون المريض الذي يقصده، ويحجزونه عندهم ويضيفونه الشاي ويسارعون للاتصال بجارهم العزيز، ليخبروه بصوت يتقافز الفرح فيه، بأن ثمة غنيمة تنتظره... مزين الشعر كان يسمي المريض بالكنز، ومع الزمن حدث نوع من الألفة المتواطئة بين الدكتور كريم وبين جيرانه، قبلوا بوضعه، في سرهم كانوا يرثون حظه السيء، وفي سره كان يحسدهم وتنهشه الغيرة، لكن محبته العميقة لهم كانت تتغلب.

حين وصل الدكتور كريم مبنى عيادته حوالي التاسعة، كان البواب يرغي ويزبد، ويرش الشتائم يميناً وشمالاً، وهو يهمّ بمدّ البسطة التي يبيع فيها السكاكر والقهوة، والمناديل الورقية، والشوكولا بأنواعها، كانت أسرته المكونة

من سبع بنات وخمس ذكور، إضافة لزوجته، تتناوب في بيع الحاجات البسيطة. حّياه الدكتور كريم وسأله بلهجته الودودة: خير ياأبو نعيم مابك هذا الصباح تفور بالغضب أجاب صارخاً: أولاد الكلب سرقوا دراجتي، تصوّر يادكتور تركتها هنا في المدخل، لدقائق ريثما احضر البسطة من القبو، عدت، فلم أجدها، الحق علي لم أربطها بالسلسلة الحديدية كعادتي لكن ـ ضرب يديه ببعضهما قهراً ـ طارت. ابن الكلب، ابن الحرام كان يراقبني... أأنا أُسرق يادكتور؟! أأنا أُسرق ماحيلتي ياربي...

كان رجل الشقاء يلهث من الانفعال، وهو لقب أطلقه عليه الدكتور كريم فعدا مسؤوليته عن أسرته المؤلفة من دزينة من الأولاد وجد نفسه منذ ثلاث سنوات مسؤولاً عن أسرة أخيه بعد انتحار هذا الأخير، كان أخوه يعمل شرطياً، ولديه خمسة أطفال أكبرهم صبي في العاشرة من عمره، أرسله والده ذات صباح ليشتري ربطة خبز، الصبي واعٍ ويعرف متى يتوجب عليه عبور الشارع لكن سيارة فارهة مجنحة، زجاجها كالمرايا، انبثقت فجأة أمام الصغير بسرعتها الجنونية مطيرة إياه مع ربطة الخبز، وحين هوى على الأرض مضرجاً بدمائه التي سالت فوق الخبز، كانت السيارة قد اختفت تماماً. لكن العديد من المارة شهدوا الحادث، وعرفوا أوصاف السيارة، والبعض حفظ رقمها، وهمسوا بأذن الوالد المفجوع بتفاصيل الحادث، وكيف أن ابنه ماكان ينزل قدمه عن الرصيف ليهم بعبور الشارع حتى انبثق المارد أو آلة الموت لتطيره عالياً في الهواء، لم يستطع أحد تمييز السائق ومن معه لأن زجاج السيارة ماكان يشف للداخل، وتقدّم الوالد بجرحه إلى عديد من الجهات الرسمية وغير الرسمية، لكنه لم يحصد سوى ملل الذين أصغوا إليه، أو تظاهروا أنهم يصغون إليه بعيونهم الزجاجية، بعد ثلاثة أشهر من الحادثة رمى قبعة الشرطي عن رأسه، وصوّب مسدسه ملكيته الوحيد إلى صدغه وارتاح من الذل، تاركاً زوجته وأطفاله في رعاية الفقر...

كانت زوجته شقيقة زوجة أبو نديم، لذا لم تشعر بأي تذمر أن تصير هي وزوجها مسؤولة عن عائلة أختها المنكوبة، وأصبح البواب الأمي المسكين

مسؤولاً عن عشرين نفساً... كان لاينفك عن الحركة من الصباح حتى المساء، تأمين حاجات المكاتب، دفع فواتير الماء والكهرباء، ارسال البريد، يعمل كالمكوك والشتائم لاتفارق لسانه، وحده الدكتور كريم كان المفضّل لديه من بين كل أصحاب المكاتب وموظفيها. كان يصف له أوجاعه، فيستمع له الطبيب بكل اهتمام ويفحصه، ومراراً اصطحبه معه إلى مشفى الرخام، حيث أخضعه لفحوص عديدة وتبين أن (أبو نديم) مصاب بقرحة معدية، وبمرض مزمن في أذنه الوسطى اليمنى تجاهله لسنوات، لأن السعي وراء الرغيف اليومي أنساه أوجاع أذنه، حتى تسبب المرض في الصمم التام للأذن المريضة. لكّن رجل الشقاء كان يجد من حين لآخر فسحة للنكتة وفي اللحظات النادرة التي يصفو فيها مزاجه كان يغني بصوتٍ شجن العتابا والميجنا.. مرة واحدة شاهده الدكتور كريم يبكي كطفل، حين ضبطه موظف التموين يبيع دخاناً مهرباً، وغرّمه بألفي ليرة، لكنه قال بأن الذي قهره حقاً ليس ألفا الليرة ولامصادرة كل الدخان المهرّب الذي بحوزته، بل لأن موظف التموين سطا على أفخر أنواع ألواح الشوكولا التي يعرضها على بسطته، وخطف سبعة أكياس من القهوة، وخمس علب مناديل ورقية.. كان منظر البواب الخمسيني ببذلته الأبدية المهترئة يجلس قرب بسطته الخاوية يبكي كإمرأة مفجوعة، مؤثراً لدرجة شعر كل من رآه بأنه مسؤول ومتورط إلى حدٍ بعيد في مأساة هذا الرجل.

هذا الصباح كانت تعزيته بفقدان الدراجة صعبة، خاصة وهو في قمة اهتياجه وحين نصحه الدكتور كريم بأن يبلغ عن السرقة، صرخ قائلاً: أقطع ذراعي إن عادت الدراجة. قال الدكتور كريم: طول بالك يارجل، ستشتري غيرها... ضحك بسخرية: ماذا؟! أشتري غيرها! مستحيل، أنا بالكاد أطعم عشرين فماً خبزاً كل يوم، هل تعرف يادكتور مامعنى عشرين فماً مفتوحاً، أنت مسؤول عن إطعامهم.. رحمة الله على أخي، ترك عائلته ومضى، أخذ يرتب الشوكولا فوق البسطة، وبدا أنه يحدث نفسه: والله معه حق إذا انتحر، والله إنه أكثر شجاعة مني، رحمه الله، رحمه الله.. التفت فجأة إلى الدكتور كريم الذي كان يطلب المصعد وسأله: دكتور ألاتعتقد أن الانتحار أفضل من عيشة

الذل؟! لم يجب الدكتور كريم، لكن صدى سؤال (أبو نديم) ظلَّ يترجع في ذهنه خالقاً دوائر من الهم تخنقه بدوره، دخل عيادته عارفاً سلفاً أنه سيقضي ساعة كاملة في انتظار مريض لن يأتي طالعه الأثاث الأبدي ذاته الذابل من الوحدة الغارق في غبار النسيان، جلس في كرسي تحنيطه الأبدي، آه كم هو متعب، حاول أن يُعزي تعبه لاستيقاظه فجراً، لكنه كان عارفاً أن تعبه عميق ومتجذر في روحه منذ سنوات، منذ بدأت الحياة العملية توجه له الصدمات بلارحمة ولافرصة للراحة، نظر إلى سرير الفحص الغارق في السبات، منذ أسابيع لم يستلق عليه مريض، وانتشرت ساعات يومه أمامه على الشرشف الأبيض، سيقصد المشفى تمام العاشرة، سيخربش توقيعه، سيرشف القهوة في استراحة العمليات، يمكنه أن يتخيل تفاصيل الحديث الذي سيدور بين الممرضات والأطباء، ثم سينسل خارج المشفى قاصداً فريال، سيكون واحداً من بين عشرات الأطباء المنسلين أيضاً، ثم سيعود مع المنسلين تمام الواحدة ظهراً إلىالمشفى ليخربش توقيعه، سيرجع بعدها إلى البيت ليتناول غداءه مع أمه، وسيرتمي بعد الغداء بكامل ملابسه في سريره ليغرق في سبات لمدة ساعة دون أن يغفو حقيقة، ثم سيرجع إلى عيادته بعد الظهر زارعاً الطريق ذاته بخطاه اليائسة إلى العيادة، عارفاً سلفاً أن احتمال أن يقصده مريض شبه نادر، بل كان يمازح نفسه ساخراً: من عجائب الدنيا السبعة أن يقصدني مريض!

وسيغلق العيادة مساءً بسحنة الهم ذاتها، وقد يتوجه إلى مقهى الرصيف لينضم إلى الشلة التي يجمعها إحباطات العصر والهموم المادية، وأخيراً سيأوي إلى منزله، لينتهي يومه بحبة المنوم الذي يعطّل صحوه المرهق ويدخله في حالة الغياب.

* * *

تمام العاشرة، انطلق الدكتور كريم إلى مشفى الرخام الذي يبعد عن عيادته ربع ساعة سيراً على الأقدام، اخترق رذاذ شتائم البواب الذي لم ينته من موجة غضبه بعد سرقة الدراجة، تردد هل يعاود محاولة تهدئته، أم يتركه؟ لكنه قرر تركه وشأنه لشعوره أنه منافق، فأعماقه تغلي بالغضب مثل البواب فكيف

عساه يهدئه؟! سار في الطريق الأبدي منقبض النفس كالعادة، ثلاث عشرة سنة وهو يعمل جراحاً في مشفى الرخام والشعور ذاته ينتابه كل صباح يحس نفسه ذاهباً لشهادة زور، يجر نفسه جراً في الطريق وهو يشعر كأن أحداً يدفعه بقوة في كتفيه، في أحيان كثيرة كان انقباضه يبلغ حداً يجعله يستدير راجعاً قاصداً أقرب بقالية إلى المشفى ليتصل طالباً إجازة... يكون ضيقه عندها أعظيماً لدرجة يعجز عن دخول الباب الحديدي وخربشة توقيعه، علامة وجوده الوحيدة على قيد الحياة في هذه المشفى ـ كما كان يحلو له أن يصف حالته ـ وكان يسمي لحظة التوقيع بيوم الحشر، حيث تنبسط دفاتر التوقيع فاتحة دفتيها تنتظر قدوم طرش الغنم (كما يسمي زملاءه الأطباء، شاملاً نفسه معهم)، لأن منظرهم متسارعين وملهوفين، لمجرد خربشة توقيعهم ثم فرارهم إلى عياداتهم أو إلى مشاغلهم الخاصة كان يجعله يصاب بقرف من مجرد وجوده في هذا المشفى. لم يكن يحس بأية إهانة لزملائه حين يسميهم في سره «طرش الغنم» وهي الكلمة العامية للقطيع لاح له المشفى أخيراً ملبسا بالرخام، بأبواب الحديد العديدة المقفولة، إنه أشبه بالسجن كان أضيق باب حديد يفتح كل صباح لمدة ربع ساعة ليستقبل وفود الأطباء، ثم يقفل أما الفرار فكان يتم من باب قصي في آخر المشفى، مقابل غرف الغسيل، وغرفة تشريح الجثث أو غرفة عزرائيل كما يسمونها.

كانت أوراق النعي تتزاحم في تلاصقها عند الباب الخارجي للمشفى، تلصق فوق الرخام وعلى الأعمدة الرخامية العريضة التي تحمل سقف المدخل، كانت تلك الأوراق تترك إلى أن يهزمها المطر أو يتسلى الأولاد بتمزيقها، ذات يوم أراد الدكتور كريم أن يحصي عددها، التي يخبر كل واحدة منها عن موتٍ ما، لشخص ما، بلغ عدد أوراق الموت ستين ورقة، قال لزملائه ساخراً: كل يوم يستقبلنا ستون ميتاً عند الباب الخارجي للمشفى! ضحكوا، علّق أحد زملائه: نحن أموات أكثر منهم! كان بائع الفول المسلوق قد اتخذ له ركناً ثابتاً عند الباب الخارجي الأساسي للمشفى، جاوره بائع الكعك، حتى تحوّل هذان البائعان لشخصيتين رئيسيتين ملحقتين بمشفى الرخام.

خربش توقيعه، لاشيء ينتظره بعد، ليس لديه أي عمل، الفائض من الأطباء يكاد يخنق أنفاسه، يشعر أن الهواء لايكفي ليملأ رئات كل العاملين في مشفى الرخام، انضم إلى جلسة الممرضات في سأمهن اللامحدود، جمعتهم القهوة في استراحة العمليات تُصب للمرة الرابعة في الفناجين، قالت إحدى الممرضات بأنه الفنجان السادس الذي ترشفه والساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف صباحاً، تساءلت ممرضة أخرى بأن هناك إشاعة بزيادة الراتب، انبرت أخرى تؤكد بأن الراتب سيزداد حتماً وبأنها سمعت بهذا الخبر من مصادر موثوقة. علّق طبيب جراح ساخراً بأن الراتب لن يزداد، وبأن كل مايقال مجرد شائعات.

حسمت النقاش ممرضة قالت بأنها لاتتمنى زيادة الراتب لأن الأسعار ستتضاعف بمجرد زيادته، علّق الدكتور كريم قائلاً: في كل الأحوال بالكاد يكفي الراتب سواء زاد أم لا العلف اليومي.

ضحكوا من عبارة العلف اليومي، غير بعيد كان كريم يتابع بعينيه نقاشاً حاداً بين طبيب ومريض، لم يكن يسمع مايدور، لكنه أطلق لخياله العنان ليتخيل، ليسلي نفسه في سأم بطالته اللامحدود.

أحس أن الحوار الفعلي ـ وغير المسموع ـ إنما الذي تحكيه العيون صراحة وتفصح عنه القسمات هو التالي:

يبدأ المريض بالشكوى قائلاً:

ـ والله يادكتور، الصداع يفجرّ رأسي منذ أيام.

الطبيب بوجهه المتجهم يقول بصوتٍ غير مسموع بل يظل حبيس صدره: طظ فيك وفي رأسك، مالذي يجبرني على سماع شكواك؟ أمن أهمية الراتب الذي أقبضه يتوجب علي الاهتمام بأوجاعك؟!

المريض متأوهاً: صداع عنيف، أحس رأسي يكاد ينفجر، وعيناي تؤلماني بشدة خاصة حين أضغطهما.

يقاطعه الطبيب بجفاء: هل تشكو من ارتفاع في التوتر الشرياني، اقصد هل لديك ضغط مرتفع؟ المريض: والله لاأعرف.

يقول الطبيب في سره: عمرك ماتعرف، واحد بهيم مثلك يتناسل ويرمي أطفاله في الشارع أو في مزبلة الفقر، لماذا عليه أن يعرف؟

يكتب الطبيب على قصاصة ورق ـ لعدم توفر الوصفات الطبية ـ الفحوصات اللازمة للمريض، ويثني الورقة بعد أن يدس بين وجهيها قصاصة كتبَ عليها عنوان عيادته الخاصة، يشمل المريض بنظرة محملة بلطفٍ مفتعل ويقول له:

ـ أجر هذه الفحوص ـ يخفض صوته متابعاً ـ وراجعني في عيادتي، لقد كتبت لك عنواني.

يتظاهر المريض بالسذاجة، ويرفع صوته متسائلاً: أية عيادة؟

يوّد الطبيب لو يكم فم المريض بكفه، لو يخرسه، لكنه يقول بصوتٍ منخفض وهو يكز على أسنانه، وقد جمدت نظرته فوق وجه المريض:

ـ عيادتي الخاصة، لقد كتبت لك العنوان. يصمت المريض، يتظاهر أنه لم يفهم بعد، يتبادل المريض والطبيب نظرة تهديد الطبيب يتوعد المريض بنظرته التي تعني: والله لن أهتم بك ولن أعالجك بصدق إن لم تراجعني في عيادتي الخاصة، والمريض يرد على نظرة الطبيب بنظرة أقسى متحدياً: والله لن أراجعك في عيادتك الخاصة، فأنت موظف عند الحكومة، ومجبر أن تفحصني.

يرد الطبيب متهكماً بنظرته: والله لن أحل لك مشكلة الصداع، ولو انفجر رأسك، راجعني في عيادتي، وسترى أنني ألطف من النسيم وأحلى من العسل.

يرد المريض بنظرة فيها تحدٍ أكبر: والله لن أراجعك مهما ألححت ومهما دسست لي أوراقاً ضمن أوراق، لماذا تريد أن تكلفني مالاً وأنا فقير؟

الطبيب هازئاً بنظرة ساخرة: فقير!! ألست مضطراً لشراء الدواء من

الصيدلية، وأن تجري الفحوص الدموية والشعاعية وتدفع! فقط أنا من تطلب منه أن يكون مجانياً، وأنا الذي سيحل مشاكلك ويشفيك من أوجاعك. المريض عابساً: أنت موظف عند الدولة، وتتقاضى راتباً، من واجبك أن تفحصني وتعالجني.

الطبيب محتداً ونظرة نارية تنطلق من عينيه: والله لن أعالجك، لاتوجد قوة في الأرض تضطرني لممارسة عملي إن لم أكن راغباً، ثم ماهذا الراتب الذي تتحدث عنه إنه لايساوي شيئاً.

تزوغ نظرات المريض، ثم يثبت نظره في عيني الطبيب قائلا : أسفي على طبيب مادي مثلك، عيب، عيب الطب مهنة إنسانية.

يقاطعه الطبيب بنظرة قاسية: مهنة إنسانية!! لكأنك اكتشفت القمر ألا يجب أن يكون وضع الطبيب إنسانياً أولاً! ينظر إليه المريض ساخراً، عاتباً: حسناً، سأقصد غيرك، هناك الكثيرون غيرك في هذا المشفى المجاني، أطباء مثل بذور البقلة، سيكون بعضهم أكثر رحمة وإنسانية منك.

يضحك الطبيب: جرّب، لابأس أن تجرب، والله لن ينظروا في وجهك إن لم تراجعهم في عياداتهم الخاصة. حوار العيون هذا القصير الأخرس، يستغرق دقائق.

يتنهد الطبيب قائلاً لنفسه: والله إن لم تراجعني في عيادتي الخاصة سأدوخك، ولن أحل مشكلة صداعك.

يتوقف الدكتور كريم عن التخيل لأن الطبيب دخل استراحة العمليات، وانصرف المريض. يبتسم بشرود وهو يعي كيف أن ظروفاً معينة تجبر المريض والطبيب أن تصير العلاقة بينهما كعلاقة القط والفأر.

فاجأه صوت النداء: يرجى من الدكتور كريم الرد على أقرب هاتف. انتفض مجفلاً لأنه يترقب السوء دوماً. لكن صوت فؤاد ـ مزين الشعر ـ جاره في العيادة، طمأنه أن ثمة مريض ينتظر عند باب عيادته، وقد احتجزه ريثما يحضر. قال له: حسناً سآتي حالاً.

فرّ من المشفى، أوقف سيارة أجرة كي لايتأخر عن صيده، في جيبه مئة وخمسون ليرة لاغير، يجب أن تكفيه الأسبوع الأخير من الشهر إن لم تسعفه العيادة بمرضى. خفق قلبه وهو يطلب المصعد، ترى من يكون هذا المريض الذي ينتظره، لكن ما أن وقع نظره عليه حتى تذكره، كان قد أجرى له عملية فتق منذ ثلاثة أشهر. أحسّ أنه يتنطط من السعادة وهو يفتح باب عيادته ويدعو المريض بودٍ مبالغ به للدخول، الرجل الخمسيني جلب له كيساً كبيراً من الزيتون الأخضر وضعه أرضاً وهو يدعو له بطول العمر والصحة، اعتذر عن تأخره في المراجعة بسبب انشغاله بموسم الزيتون فحصه الدكتور كريم وابدى رضاه عن وضعه الصحي بعد العمل الجراحي، مدّ الرجل يده إلى جيبه وقدّم للدكتور ألف ليرة قائلاً: أرجوك يادكتور اقبلها مني، اعتبرها ثمن فنجان قهوة، تظاهر أنه سيرفض لأنه كان عارفاً سلفاً أن الأخير سيلّح. قبل ورقتي الخمسمئة وهو يتظاهر أنه مُحرج فيما قلبه يغرد طرباً، وفمه يلجم ابتسامة كادت ترتسم صريحة على وجهه، كررّ لنفسه منتشياً وهو يودع المريض: اعتبرها ثمن فنجان قهوة، ياسلام خمسمئة تنطح خمسمئة ليرة، تعانقها، تضاجعها. علاقة متجانسة متكافئة ومن نفس السوية الاجتماعية، انطلقت آه عميقة من أعماق صدره فيها راحة بقدر ماتحمل وجعاً، انطلقت من أعماق روحه المتعبة، أحس كمن قطع عشرات الكيلومترات مشياً وأضناه العطش، ثم وجد فجأة ماءً متدفقاً، فشرب حتى ارتوى، وتمدد قائلاً: آهٍ يازمن التعب، يازمن الذل الذي صبغت كل شيء، ماعدت أعرف كيف أحلم أو أتأمل، حتى وأنا أحلم أكون بحالة ذل، مايخيفني أنني انكسرت حقاً، ماعدت أعتقد أن ما أعانيه ـ نعانيه ـ فترة مؤقته ستنتهي ذات يوم مهما طالت، لم يعد بإمكاني القول بأن شدة ستزول، بل آمنت أن السنوات المتبقية من عمري ستكون صوراً مختلفة ومتنوعة للذل... صوت غارق في الحنان سأله: أتفرح إلى هذا الحد ياكريم بألف الليرة؟! أجاب خجلاً مطأطئ الرأس: أجل، أفرح كثيراً، وتخيلّ أنه سيشتري العالم كله بهذه الألف، كاد سينطلق رأساً إلى ساحة الأسماك وإلى صالة بيع الدجاج المقطّع لولا اقتراب موعده مع فريال ضغط ورقتي النقود بيده، سمع أنين النشوة

الصادر من احتكاكهما، سيكون أكثر حيوية الآن مع فريال. الحياة حلوة حقاً هذا ماأقرّه لنفسه وهو يسرع الخطا تجاه بيت المرأة الشهية.

كانت تنتظره بلهفة كعادتها، عاتبته على تأخره، ردّ على عتابها بقبلة، غمرته رائحة عطرها المثير، طلبت إليه أن يغمض عينيه قائلة: مفاجأة. ضحك قائلاً: هذا يوم المفاجآت... سألت: هيا اعترف من فاجأتك غيري. قال: لأحد سألت: إذا لماذا قلت بأنه يوم المفاجآت.

قال: لأن مريضاً منسياً تذكرني. أليست هذه مفاجأة!

طوقت عنقه ونظرت بغنج في عينيه قالت: آه منك، أتمنى لو أصدقك. هيا أغمض عينيك الآن. اذعن لها، وحين أمرته أن يفتحهما كانت ورقة بمساحة راحة الكف في حضنه قال: ماهذا، شهادة استثمار من قيمة الألف ليرة.

قالت بأنها تذكرته حين أهداها زوجها شهادات استثمار، واشترت له شهادة علّه يربح عن طريقها بيتاً أو سيارة. شكرها وهو يرجوها ألا تغمره بعد بهداياها، لأنه لايقدر أن يعاملها بالمثل. وضعت راحتها على فمه وهي تقول بدلال: كفى، أنت تغمرني بحبك، وهذا أهم من كل الهدايا. أحسّ أن احتضانه لجسدها غدا أكثر حيوية وبهجة، عزا دفق حبوره إلى ألف الليرة التي قدّمها له المريض، لم يكن شعوره كاذباً لأنها قالت له بعد أن غمرت وجهه بالقبلات: أنت رائع اليوم، ضحك وهو يتخيل نفسه يعترف لها بالسبب، ويتخيل الدهشة التي سيرسمها وجهها حين تعرف أن لعبة الحب الناجحة سببها ألف الليرة وفيما كان ينتظرها في الصالون فيما هي تعدّ القهوة، فكّر أن العاهرات قادرات على إعطاء أنفسهن بعد قبض المال، امتعض بقوة من هذه الفكرة وهو يعي الروابط الخفية والعميقة بين وضعهن ووضعه، أتراه يقدر أن يعطي ذاته إذا قبض مالاً؟! خاف أن يلحق بفكرته حتى النهاية كي لايتوصل لاستنتاجات مرعبة في أعماقه، ولم يستطع أن يهرب من سؤال كان يتبعه في طريقه إلى مشفى الرخام ليخربش توقيعه ظهراً: ألا يقبل أن يكون عشيق إمرأة

ثرية، يعيرها جسده، وتغدق عليه المال؟! بمعنى ألا يرضي أن يكون عاهراً!! أحس أن مشيته تتباطئ ومفاصله تسترخي، والعنفوان الزائف لمشاعره يخبو.

أبدت مشاعره علامة إذعان صريحة ولامجال لتكذيبها بأنه يقبل هذه المعادلة.

يبيع شبابه وحيوته لامرأة مقابل المال... استنجد بفكرة أسعفته، كأنها نسمة تهب عليه: حين تتزوج فتاة رجلاً يكبرها كثيراً لأنه ثري، أليس هذا عهراً!

وصل المشفى الواحدة إلاعشر دقائق، كانت السكرتيرة تفتح دفاتر التوقيع تأمل الأطباء يتدافعون ليخربشوا توقيعهم، بدوا له أشبه بسربٍ من الذباب فوق صحن من الحلوى... ماكان يستطيع العودة إلى البيت، لأن هوىً شديداً للشراء كان يسيطر على روحه، اشتاقت أنامله لعملية المقايضة، شراء السلع ودفع ثمنها، ياسلام، أليس الشراء من متع الحياة؟ وأقرّ لنفسه بأنه أشد المتع على الإطلاق، إما أن تكون سيد المال وتذّله بالصرف، أو يصير هو سيدك ويأمرك أن تخزنه. وقع في حيرة، هل يبدد ثروته ـ ورقتي خمسمئة الليرة ـ في شراء اللحوم والفاكهة أم يتجه إلى البالا؟ وبعد صراع حقيقي رجحت كفة البالا، فالشتاء على الأبواب، وهو محتاج لبضعة كنزات صوفية تليق بلقبه كطبيب. أسرع خطاه باتجاه سوق البالا الاستعراضي شمّ الرائحة التي يحفظها عن ظهر قلب من بعيد، دغدغت روحه، ياسلام، أليست البالا نعمة؟ ألاتسمح له أن يلبس ثياباً أنيقة ومن أجود أنواع الأقمشة؟! ألايعتقد أغلب زملائه في المشفى وخارجها أن ثيابه ترسلها له أخته من أمريكا؟ استوقفته واجهة تعج بالكنزات الصوفية والقمصان بكاروهات ذات ألوان بديعة.

حيا صاحب البالا بالمرح الذي لايزال يشيعه في روحه وجود ورقتي النقود العظيمتين في جيبه، فكّر أن أمه ستكون الآن بانتظاره على الغداء، خضّته دفقة قوية من مشاعر الحب تجاهها، صمم أنه سيشتري لها كنزة أو تنورة، صحيح أنها تتظاهر بالغضب وعدم الرضى، وترجوه ألايشتري لها شيئاً، بحجة أن لديها الكثير من الثياب لكنه حين يجدها بعد دقائق منكبة فوق ماكينتها

لتصلح الثياب وتجعلها أكثر مناسبة لها، يحس كم هي سعيدة وراضية في أعماقها.

فتنته القمصان التي كان معظمها ماركة نيومان، سأل البائع: كم سعر القميص؟ رد الشاب وهو يتثاءب: ٨٠٠ ليرة. شهق الدكتور: ماذا!؟

قال البائع بسأم وهو يرشف الشاي من كأس في يده: إنها جديدة كما ترى.

ردّ محتجاً: لكنها بالا، إنها أكثر غلاء من أغلب القمصان المحلية.

نظر إليه البائع بتهكم: هذا قماش أجنبي، وليس وطنياً، هذه قمصان من أجود الأنواع، تفحصها ياأخي، ثم.. ثم اذهب واشتري قمصاناً وطنية.

قال جملته الأخيرة بنزق وكأنه يتعمد أن يهينه.

أراد الدكتور أن يخلق جسور مودة مع البائع، اصطنع المرح في صوته قائلاً:

ـ ياأخي، راعينا قليلاً في السعر، ألاترى أننا في آخر الشهر، والراتب تبخّر..

ضحك البائع ساخراً وقال: ماذا قلت! الراتب من قال لك أن البالا للموظف؟ أجبر نفسه أن يتابع حواره بنفس المرح المفتعل.

ـ: لمن إذاً؟.

ـ قال: الموظف لايتصادق إلا مع الفران، البالا لمن يملك مالاً..

ـ حسناً، حسناً، سأشتري ثلاثة قمصان، ألاتراعيني في السعر؟

ـ أراعيك، كلمة أخيرة القميص بـ ٦٠٠ ليرة. رد الدكتور بكل طاقته على إثارة العطف لدى الآخر نحوه: ياأخي الشتاء في بدايته، وأنا سأصير زبونك، ستكسبني، وسأجر رفاقي لدكانك، يكفي خمسمئة سعر القميص.

قاطعه البائع: والله لاأربح شيئاً في هذه الحالة.

ـ بل ستربح، هيا، هيا تساهل معي أرجوك.

انفلتت كلمة أرجوك من شفتيه، فأحسها تحرقه وتسخر منه في آن، أخذ

يبحث بنشاط حيوي عن أكثر القمصان مناسبة له، اختار ثلاثة قمصان بديعة لاتزال أوراق المعمل ملصقة عليها، تنبه أنه لايملك سوى ثمن قميصين، أتته النجدة إذ تذكر شهادة الاستثمار، وجد نفسه يعطي البائع محتويات جيوبه ويرجوه أن ينتظره لحظات ليحضر باقي المبلغ، اتجه مسرعاً إلى المصرف الذي لحسن الحظ لم يكن بعيداً عن سوق البالا، بدّل شهادة الاستثمار بقيمتها مضحياً بوعودها، طافت صورة فريال بذهنه عاتبة أمكنه أن يسمع صوتها: أهكذا تحتفظ بهداياي، أتبدلها بعد ساعة من تقديمها لك؟!

زجر صورتها بحنق: اسكتي... اسكتي، سأشتري ثياباً وطعاماً... هذا ماأحتاجه...

عاد يلهث إلى البائع، أحس أنه أمير وهو يكمل له سعر القمصان... كانت غبطته عظيمة وهو يحمل الكيس الأسود الذي يضم غنيمته الرائعة: ثلاثة قمصان ماركة نيومان، غمره حنان نحو أمه، سيشتري لها هدية، لايزال معه خمسمئة ليرة.. ضحك، ممازحاً نفسه: كل هداياي لها من البالا... استوقفه صف من التنانير الجديدة من الجوخ، أنها تحب اللون

الأسود أو البني، وهو أصبح خبيراً بالأقمشة الجيدة بسبب زياراته المتكررة للبالا...

سأل: بكم التنورة؟!

رد البائع بمكر: كل واحدة لها سعر.

أخذ يتحسس بيديه أقمشة التنانير واحدة واحدة، مفتوناً بجودتها. اختار تنورة سوداء من المخمل لأمه، وأخرى بنية من الجوخ، ساوم البائع بكل مايملك من دماثة فرضي أن يعطيه التنورتين بـ ٦٠٠ ليرة. لم يبق معه سوى ثمانين ليرة، يجب أن تكفيه حتى نهاية الشهر إن لم تهبط معجزة ويقصده مريض في عيادته، لكن حمى الشراء دفعته لشراء كيلو ونصف من الموز، فلم يبق من ثروته سوى عشرين ليرة... ضحك من كل كيانه، ضحكة ملتبسة فيها ألم وسخرية وحرقة، وربما مرشوشة قليلاً بغبار من الفرح.

لكنه بدا راضياً وهو يعود بغنائمه إلى البيت، كانت السعادة ترفرف

حول وجهه وهو يتخيل كيف سيتباهى بقمصانه أمام رفاقه. شكر ربه على نعمة إلهامه للمريض بزيارته هذا الصباح، وأن يقدم له ألف ليرة، ثمن فنجان قهوة! وعلى إلهامه لفريال بأن تهديه شهادة استثمار، أقنعته سعادته أن العناية الإلهية تنتشله دوماً من قاع يأسه، وحين دخل حارة بيته كانت أمه تنتظره على الشرفة الوحيدة الضيقة وقد لفت جذعها بشال من الصوف، أرسل لها قبلة على الهواء، دخل البيت بغنائمه، وأخذ يفرد القمصان واحداً واحداً، معدداً مزايا ماركة النيومان، وحين فاجأها بالتنورتين لم تبد امتعاضها كعادتها، بل شكرته وهي تعلّق: لكنك أصبحت مدمناً على البالا.

أعجبه تعليقها قال لها: لايوجد أروع من إدمان البالا.

حين كانا يتناولان الغداء سألها: هل تعرفين سعر قميص النيومان في باريس؟

قالت: لا.

قال: سعره على الأقل ٦٠٠ فرنك، أي ستة آلاف ليرة سورية.

قالت: وأنت بكم اشتريت القميص.

قال: بخمسمئة ليرة.

سألته بعد تردد مستغلة مرحه قالت: هل هربت من المشفى؟

لولا مزاجه المرتفع لكان غضب غضباً أعمى من سؤالها، لأنه لايطيق تدخلها في حياته.

رد بجفاء: أجل هربت، مثلي مثل غيري؟ ـ لكن، كيف هذا ياابني، أنا لاأفهم كيف يفرّ الأطباء من دوامهم هكذا ألا تخشون أن يطردوكم من عملكم؟ أحس أنها تستغل صفاء مزاجه. قال لها مهدداً: دعيني مرتاحاً الآن، وانسي تماماً موضوع الدوام في مشفى الرخام أرجوك.

* * *

مشفى الرخام

من الخارج رخام ومن الداخل سخام.

ذات يوم كان الدكتور كريم يحضر معرضاً للتصوير الضوئي بالأبيض والأسود، يصوّر المدينة القديمة، فتنته لوحة تمثل بناءً ضخماً أبيض، محاطاً بغابة من الأشجار الباسقة ويعلو سقفه القرميد، ولعظيم دهشته قرأ لافتة صغيرة تحت اللوحة كتب عليها: مشفى الرخام. أحس بصعقة مفاجئة، لم يستطع أن يصدق أن تلك الصورة البديعة كانت تمثل مشفى الرخام الحالي! سأل اللوحة الغارقة في الحدد: لماذا قتلوا الحس الجمالي فيك؟ كيف شوهوك هكذا؟ من اغتال أشجارك ولم يترك نبتة، من خطط لتوسيعك بتلك الطريقة الفوضوية الخالية من مسحة أناقة أو جمال؟

كان مشفى الرخام مثالاً للفوضى والضياع، طوال سنوات لم تتوقف أعمال الهدم والبناء فيه، لكأنها غاية بحد ذاتها! لم يعرف أحد لماذا يستغرق العمال أياماً في فتح باب ضمن حائط، ليعاد إغلاقه بعد أيام بالحجارة وتحويلة إلىحائط مجدداً!! العاملون في المشفى كانوا يضيعون، كل فترة تفاجئهم جدران جديدة، وأبواب جديدة، وأروقة جديدة، وكانت الجدران كلها يتم تلبيس نصفها السفلي بالرخام، ليعاد هدمه بعد فترة تطول أو تقصر، ثم ليعاد ترميمه، القلوب المسكينة، والعيون الخرساء، كانت تغوص ألماً وهي تراقب هذا الهدر اللامنطقي للمال... لاأحد يجرؤ على السؤال صراحة: لماذا يهدر المال بهذه الطريقة؟ ماكان يزيد الأمر لوعة وقهراً، كون هذا المشفى خاوٍ تماماً من كل مايلزم المريض، المريض كان يشتري أدويته، فلم يكن ضمن هذا المبنى

الضخم إبرة مضاد حيوي، أو حبة مسكنة للألم، أو سيروم أو... أو... هناك رخام فقط. الكل كان يعلم أن هناك فئة تبلع ـ وهو التعبير المتداول بين العاملين في المشفى ـ هؤلاء المساكين كانوا يعرفون المسؤولين الرخاميين الذين يبلعون الملايين من وراء هدم جدران وإعادة بنائها، ويقدمون مناقصات ويشكلون لجان شراء، ويعرضون في دفاتر غشهم تكاليف خيالية، ويمتصون خزائن الدولة، يمتصون دم المواطنين المساكين. وكثيراً ماكانوا يشترون أجهزة معطوبة للمشفى على أنها أجهزة سليمة، وتوزع الصفقة فيما بينهم، رائحة السرقات تفوح في أروقة المشفى، لكن البسطاء لايجروؤن على الكلام خشية أن تطير الوظيفة التي تضمن لهم رغيف الخبز.

أما أثاث المشفى فهو اليأس مجسداً، بارد وقديم ومخلّع ورمادي، كانت خزن خشبية عتيقة تشكل جزءاً أساسياً من الأثاث، ترصف تحتها أحذية الممرضات، الكراسي تشعر أن عمرها مئة سنة، أجري إصلاحها مرات لاتحصى، كانت أشبه بأرائك ملبسة بالنايلون، أما الألوان المختارة فهي الأسود والبني والرمادي الداكن، إضافة إلى الكراسي المخلعة التي استعصت على الإصلاح والتي كثيراً مايسقط من يجلس عليها، لكنها باقية في مشفى الرخام بقوة الخلود!

ذات يوم تشجع أحد الأطباء وسأل واحداً من المسؤولين الرخامين:

ـ لماذا لاتشترون أدوية للمشفى، بدل صرف هذه الأموال الهائلة على الرخام؟!

رد المسؤول الرخامي: لأن ميزانية الدواء، غير ميزانية الرخام.

لماذا؟ كيف؟ غير معقول؟ قالتها العيون الخرساء، أكثر من احتجاج النظرة ماذا يملك البسطاء!

ثمة علامة فارقة لشعب المستشفى، علامة واسمة تدفعها وتميزها هي رائحة المراحيض، ماأن تصل إحدى الشعب حتى تصاب بدوار من الرائحة الخانقة، تضطر أن تدفن أنفك في كمك، أو تحبس نفسك أطول مدة ممكنة أبواب المراحيض مشرعة، النسائم الخانقة تهلّ عليك، تستقبلك بحفاوة، القذارة

لايمكن وصفها، علب القمامة في الأروقة تطوف بما فيها كان الدكتور كريم وزملاؤه يتساءلون كل بدوره، كل مع نفسه: كيف سيشفى المرضى وسط هذه القذارة؟!

تمام الثانية عشرة ظهراً كان عمال وعاملات المطبخ بمرايلهم الزرقاء الوسخة يحملون الطعام إلى المرضى في قصعات عتيقة، يحملونها على رؤوسهم أو أكتافهم، رائحة الطبخ تثير الغثيان، معظمه عبارة عن مرق أحمر فيه كتل أشبه باللحم، كانت الكتل تسرق، كذلك الفاكهة فلايصل للمريض المسكين إلا الفُتات.

مايفوق فوضى البناء، العاملين فيه، ممرضات وأطباء يحشرون حشراً، في البداية لم يكن عدد العاملين كبيراً، العمل كان منظماً وأكثر احتراماً، في السنوات الأخيرة، حدث تكاثر سرطاني للممرضات والأطباء، تضاعفت الأعداد خمسة أضعاف أو ستة، وفي بعض الشعب عشرة! تحول يوم العمل إلى يوم كسل، وصار الأطباء يفرون لأنهم يدركون أن لاشيء يعملونه في هذا المشفى... ولأن الراتب الذي يقبضونه كان يحولهم إلى حشرات! ترى كيف يسمحون لهم بالفرار المتكرر شبه اليومي هذا؟!

ربما لأن المسؤولين الرخاميين يعرفون أن هذا الحشر الهائل لاعمل له، ربع العدد من الأطباء يكفي ويزيد لتشغيل المشفى أو لأن السبب الأساسي عدم وجود قاعة أطباء تتسع لهذا الفيض، في الواقع لم يكن هناك شيء فعلي اسمه قاعة أطباء، يلجأ إليها الطبيب الذي لاعمل له، أو الذي أنهى عمله، يجلس على كرسي، يقرأ ريثما ينتهي الدوام، كان هناك وعلى مدار سنوات أشباه غرف، كل غرفة لاتتسع لأكثر من عشر كراسٍ... أول غرفة اختيرت كانت في قسم الاسعاف حيث الضجيج في ذروته دوماً، كانت عبارة عن غرفة صغيرة تضم طاولة وسبورة ـ وبضعة كراسي. وبابها يظل مشرعاً، كل من أراد أن يدخل ليسأل أين فلان؟ أو فلانة؟ يسأل الطبيب المنهمك في القراءة، كانت الغرفة مزينة بعينين أو نافذتين تطلان على ساحة المشفى حيث يعبر كل شيء، المرضى الخارجون، والداخلون، والأطباء الفارون والعائدون الأذنة يجرون

اسطوانات الأكسجين، ويحملون علب التعقيم، عمال المطبخ يحملون الطناجر على رؤوسهم... فيما بعد ألغيت هذه الغرفة كمكتبة للأطباء، لسبب وحيد، هو وصول عدوى الهدم إليها ورغبة المسؤولين الرخامين في الحاقها بقسم الاسعاف، انتقلت قاعة المكتبة إلى مبني بعيد وقصي في نهاية المشفى هو قسم الأمراض السارية!! فوسط غرف أمراض الرعب، من الكزاز إلى التهابات الدماغ والسحايا المعدية، إلى الكوليرا والتهابات الكبد... وغيرها، وسط الأمراض المميتة خصصت غرفة نفايات تضم خزناً معدنية مخلّعة الأدراج والأبواب، وقد امتلأت بمجلدات علمية غطاها الغبار كطبقة من الدقيق، واحتل ربع مساحة الغرفة طاولة كبيرة، رصفت فوقها وتحتها الأجهزة المعطوبة، والمتسلمة حديثاً، التي لم تستعمل بعد، لم ينسوا أن يضعوا في الغرفة مكتباً معدنياً مهترئاً مع كرسي وحيد، إضافة لأريكتين واطئتين تصلحان للنوم بلا أحلام. في الزاوية قرب باب غرفة النفايات (أوغرفة المكتبة) كانت تستريح مغسلة صغيرة إنما بدون صنبور مياه! وكانت نافذتان تتنافسان في البؤس تثقبان جدار المكتبة المطل على الشارع العام، اهترأ خشبهما، وتثقب الشبك المعدني الذي يغلفهما... في هذه القاعة كان على الطبيب أن يقرأ لو أحب! لو استطاع! طبيب واحد لا أكثر، إذ لاوجود إلالكرسي... أما البقية... لايهم، أمامهم الشارع فليفروّا...

البؤس الفعلي كان للممرضات، كان الدكتور كريم يسميهن «النساء بلا حدود» كنت تراهن في آخر الرواق في كل شعبة منحشرات في غرفة صغيرة، أو شبه غرفة، لأن باباً زجاجياً ضيقاً كان يقسم الجزء الأخير من الرواق محولاً إياه لشبه غرفة، كنّ ينحشرن في الغرفة الصغيرة يتسلين بحياكة الصوف سراً، والبعض منهن يطلين وجوههن بالماكياج الرخيص والبعض يسندن جبهتهن إلى الجدار أو المكتب الوحيد ويغرقن في النوم، كان دوامهن الفعلي ـ والذي لاهروب منه ـ ثماني ساعات، يبدأن في الساعة السادسة صباحاً وحتى الثانية ظهراً، واضح أن روحهن تزهق كل يوم من الملل والنعاس والفراغ أغلبهن كن يستيقظن قبل الفجر ليكن في المشفى في السادسة صباحاً، خاصة الساكنات

في القرى، وإذا تأخرت إحداهن بعد السادسة والنصف كانت تطرد من دوامها اليومي وتعود أدراجها بعد أن يحسب لها التأخير إجازة إدارية.

كان العدد الفائض من الممرضات يعرقل العمل ولاينظمه، لأن كل واحدة تنتظر من زميلتها أن تقوم بالعمل المطلوب، النساء البائسات الشاردات بأطفالهن المشردين الذين يحتاجون لألف غرض وغرض، يحتاجون لرغيف الخبز الذي يؤمنه لهم راتب الماما بعد أن يطير نصفه في الموصلات... ذات يوم حدثت مشادة بين أحد الأطباء وممرضة، صرخ منفعلاً: كيف نسيت أن تضعي لصاقة على صدر المريض، ألاتعرفين أنه مريض قلبي و...

قاطعته بنزق: والله نسيت، أمن أهمية الراتب لاتريدني أن أنسى؟

ورغم أن الطبيب أراد أن يشكوها لرئيسة الممرضات، لكن زميلاتها في العمل دافعن عنها، حتى أن رئيسة الشعبة همست بأذنه: والله يادكتور معها حق تلك المسكينة لو يعطوننا رواتب جيدة، لاننسى أبداً.

أغلب النساء بلا حدود كن يصطحبن أطفالهن الصغار معهن إلى المشفى، يوقظون الأبرياء الصغار الناعمين بالدفء والنوم يلبسنهم على عجل، ويتأبطنهم كيفما اتفق، أو يتركنهم يهرولون وراءهن يبكون هذا الكابوس اليومي كل صباح وأماتهم تجرهم وارءهن إلى مشفى الكآبة. حيث يحشرون في غرفة تسمى حضانة الأطفال البائسين كانوا يمرضون خاصة في الشتاء حين تفشل خدودهم الطرية الدافئة ورئاتهم الغضّة الرقيقة في مقاومة سهام البرد القارس كل صباح... من كان يهتم بمشاعر هؤلاء الصغار؟ بالألم النفسي والجسدي الذي يشعرونه كل يوم، بساعات الاختناق وقلة الاهتمام التي يقضونها في الحضانة؟! كانت أقصى رفاهية يحصلون عليها في حضانة مشفى الرخام هو كيس بطاطا مختوم... هل يصح أن يسموا بدورهم «أطفالاً بلا حدود».

كان عليهن قضاء أربع ساعات في الأنتظار ريثما يأتي الأطباء، إعطاء المرضى الدواء الصباحي ممرضة واحدة قادرة أن تنجزه في ربع ساعة على

الأكثر، كن يتناولن فطورهن ويشربن القهوة والشاي ويتناقشن في مواضيع المسلسل اليومي، ويجتررن أحاديثهن الأبدية عن شظف العيش وحرمان الأولاد، وغالباً ماتغفو إحداهن بعمق فوق مقعدها، حضور الأطباء تمام العاشرة كان يعطيهن شيئاً من الحيوية، يتابعن بها الساعات الأربع المتبقية من دوامهن أيضاً...

كان عليهن تمام الساعة الثانية ظهراً أن يخريشن توقيعهن بدورهن، ويتأبطن أطفالهن عائدات إلى بيوتهن البعيدة، ليستأنفن نشاطات من نوع آخر... حتى يهدهن الإرهاق أول المساء فيغرقن في نوم عميق متنبهات بلاوعيهن لضرورة الاستيقاظ قبل الفجر، ليستأنفن رحلة الشقاء بلا معنى... واللامجدية...

في هذا المشفى سفح الدكتور كريم ثلاث عشرة سنة من شبابه يعمل كطبيب جراح، السنوات الأربع الأولى كان راضياً، ويمكن القول سعيداً، كان للعمل احترامه وللدوام هيبته، لم يكن يفكر وقتها بالفرار أبداً... كان العدد معقولاً ومنطقياً، لكل جراح دوره في العمليات، وفي العيادة وفي المناوبات، كل أسبوع كان الدكتور كريم يجري بين عمليتين إلى ثلاث عمليات، بعد أن تضخم العدد بشكل سرطاني، وفقد العمل قدسيته والدوام هيبته، كان لايتمكن أحياناً من إجراء عملية واحدة بسيطة كل شهر!!

ترى من يقرأ المستقبل؟!

من يملك القدرة على التنبؤ؟!

من يعلمنا كيف نتعظ من كل ما يجري حولنا؟!

* * *

قراءة غير مرتبة في
مذكرات الدكتور كريم

منذ طفولته اعتاد كريم أن يكتب مذكراته شبه اليومية، والده نبهّه لأهمية أن يكتب الإنسان مذكراته، لايزال يذكر كلماته: لايجب أن ننسى ياكريم، الأيام يجب أن تكون كسلسلة، كل حلقة من حلقاتها متصلة بالأخرى، حين يحدث قطع، تضيع السلسلة، الإنسان الناجح يجب أن يستفيد من عبر الماضي، أن يستخلص الحكمة من الحوادث التي مرّ بها، ليتسنىّ له ذلك يجب أن يدون كل شيء، كي لاينساه... والده رحمه الله كان يدون في دفتر مذكراته، استاذ الرياضيات

الشهير الذي أفنى نفسه في الدروس الخصوصية ليؤمن لابنه ثمن عيادة، دفع عمره كله ليجمع لكريم ثمن غرفتين في مبنى تجاري، كان حريصاً أن يخفي دفتر مذكراته الذي أثار فضول الأولاد والزوجة بعد وفاته أمكن لكريم تقليب الدفتر، اعتقد أنه سيعثر على أسرار خطيرة لشدة تكتم والده وحرصه على إخفائه، لكنه صعق وهو يقرأ صفحة بعد صفحة، أن والده كان يسجل أسعار الخضار، واللحم والفاكهة والمواصلات، وأسعار الأحذية والملابس، وتدهور القيمة الشرائية للعملة... وفي نهاية كل تقرير كان يكتب سطراً أو سطرين معبراً عن مخاوفه المتعاظمة في ألايتمكن من تأمين حاجات الأسرة، وحاثاً نفسه أن يوسع دائرة دروسه الخصوصية، متقاعساً في صفحات أخرى عن إغراق نفسه بالعمل، بحجة أنه متعب وبأن الشيخوخة لها حق عليه.

أهذه أسرارك ياأبي؟ أهذا هو الدفتر الذي كنت حريصاً ألايقع في يد أحد؟ أتكون هذه أيامك لهاثاً يومياً وأبدياً وراء العلف اليومي؟ مسكين، مسكين... احتفظ كريم بالدفتر، كان يحتضنه كأنه يضم عمر والده كله إلى صدره... وحين كان يكتب مذكراته كل يوم، يتخيل والده يقف غير بعيد عنه، ينظر إليه راضياً مبتسماً...

في عيادة التحنيط الأبدية كان الدكتور كريم مسترخياً في كرسيه منذ ساعتين ينتظر اللاشيء، دخن سيجارتين وشرب فنجان قهوة، تمطى وتثاءب، أطلق نظرة من النافذة تفرج على واجهات المحلات، وعلى الناس في فوضى تسوقهم، عاود الجلوس، نظر في ساعته مراراً... نظر بعدم اكتراث للغبار المتراكم فوق الأثاث الأبدي للعيادة... فوق طاولة المكتبة الواسعة الفوضوية، اصطفت أوراق وصفات طبية، وأقلام، بضع مجلات وكتابان، دفاتر، تمثل مذكرات الدكتور كريم اليومية، هي أساساً دفاتر الضريبة، التي يفترض أن يسجل فيها عمله اليومي ليقدم الدفتر في نهاية العام لمديرية المالية... لتقدر أعماله وبالتالي تحدد الضريبة... لكن حقيقة الأمر، أن أياً من الأطباء ماكان يسجل شيئاً، لأن مديرية المالية ماكانت تقرأ أبداً مالايكتبه الاطباء. المهم هو ختم الدفتر وعدم التأخير عن المدة المحددة لختمه وإلا تتضاعف الضريبة، كان الدكتور كريم يحّول تلك الدفاتر حال ختمها إلى دفاتر مذكرات... خطرت له فكرة طريفة وهو يتناول اعتباطاً أحد هذه الدفاتر ليقلب فيها، ماذا لوقدّمت هذه الدفاتر إلى مديرية المالية!! ياإلهي سيصعقون بالتأكيد ـ هذا ماقاله لنفسه ـ كان الدفتر الذي سحبه عن سنة ١٩٩٤ .. قبل ثلاث سنوات من جلوسه هنا محنطاً، أخذ قلبه يرتجف بعد أن فتح اعتباطاً دفتي الدفتر، توقف ليقرأ: «أحس أنني سأتحول لتمثال في الجص فهذا أنا أصادق الفراغ أمامي، أحس بملل فظيع، لكنّ حدة مشاعري تخف حين أفتكر ضجر زملائي.»

يقلب صفحات عديدة ليقرأ:

«أريد نجدة حقيقية، احس برعب حين أفكر بأجار العيادة، وبالضرائب التي تتضاعف لم يكن ينقصنا سوى ضريبة التنظيفات، والله عال، صار للقمامة

ضريبة، الأدهى من ذلك أنها تفوق ضريبة الدخل، مايجعل دماغي ينفجر كون الشارع قذر مزروع بالقمامة، يا ألهي لم أعد قادراً على الاحتمال...»

يقلب صفحات ليقرأ: «أفكر جدياً أن أبيع العيادة، والعدة الجراحية، يا إلهي ماذا لو ربحت جائزة اليانصيب الكبرى، صرت أخشى حقاً أن أجن.»

يقلب صفحات ليقرأ: «اليوم حضرت باكراً إلى العيادة، من السابعة والنصف صباحاً، جلست على كرسي تحنيطي الأبدي سارحاً في اللاشيء شيء رهيب الجلوس بلا عمل وانتظار اللاشيء سأذهب إلى البالا لأتسلى، أذكر بألم كيف ذهبت أشحذ الصائغين ليقبلوا شراء فردة حلق ذهبي كان لأمي، أخيراً اشتراه صائغ وهو يرمقني باستخفاف، اشتريت بثمنه أفخاذ دجاج وكيلين دراق...

مأساة فعلية وضع الأطباء، لم أعد أطيق الكتابة.»

يقلب الصفحات ليقرأ: «إن وقت التحنيط المستفيض في العيادة يجعلني أخربش بقلمي محاولاً خلق صداقة بيني وبين نفسي، لأنفّس ضيقي الذي كنت أعرف سلفاً أنه لاينفس بالسهل كنت كمن يحاول تنفيس بالون كبير ممتلئ غازاً من ثقب صغير، سرعان ماينسد آه ماأصعب الحياة حين لايكون هناك أمل، حين ينظر الإنسان إلى المستقبل ويحسه غامضاً مريباً، أخشى من يوم لاأتمكن فيه من مصاريف المعيشة اليومية...»

يقلب صفحات ليقرأ: «أستطيع أن أتفرج على نهاية كل شيء، وأنا جالس في كرسي عزلتي، مفلس مادياً ومعنوياً، وتبدو الحياة خواءاً وعيوناً فارغة، آه أكاد أختنق من الحر وثمن مكيف الهواء يعادل راتبي عن سنة!».

يقلب صفحات ليقرأ: «أحس بفخر كوني دخلّت اليوم سبعمئة ليرة، سارعت إلى السوق، اشتريت فاكهة وكيلين من اللحم، وعدت أقفز من السعادة. ـ قطع ـ

يقلب صفحات ليقرأ: «أيامي متشابهة إلى حد فظيع، والله صرت أشتهي الموت، حالتي النفسية متدهورة جداً، فراغ قاتل، أحاول خلق آمال أعرف سلفاً أنها زائفة لاأحس بشخصيتي ولاحضوري، فراغ وبؤس وشباب

يضيع، ويأس وعراك يومي مع الساعات صداعي مستمر منذ أيام، لايزال أمامي ساعة ونصف من التحنيط، سأعود بعدها للبيت، أعرف أن لاأحد سيقصد عيادتي.» يقلب صفحات ليقرأ: «يا للمقلب المحترم هذا الصباح، لم يراجعني مرضى المشفى في عيادتي كما طلبت منهم، بل ألححت عليهم، وجدتهم ينتظروني في المشفى، تجاهلتهم، يا للعار، طبيب يجري عملية لمريض، ثم يتجاهله، والله عيب، بي رغبة أن أهج من العيادة ومن المشفى من البلد بل من الدنيا كلها، والله لم يخطر ببالي يوماً ألا أكون إنسانياً في ممارسة مهنتي لكن ماذا أفعل، مضطر أن أشحذ المرضى لأعيش، دموعي تنهمر، سأتوقف عن الكتابة»...

يقلب صفحات ليقرأ: «لاأعرف لماذا أحس ببلاطة على صدري، أظنه عبء الإفلاس، جلست اليوم ساعتين بعد الظهر في العيادة، كدت أطق لم يقصدني أي مريض، عدت إلى البيت تناولت عشائي بآلية رغم عدم إحساسي بالجوع، ثم انسحبت إلى قوقعتي، قرأت بذهن شارد لخليل مطران، أمي تحضر المسلسل اليومي، تحاول أن تستشف بحاستها السادسة إن كنت قد قبضت ملاليم من العيادة أم لا، أنتظر أن أغرق في النعاس وأنام...»

قلب صفحات عديدة وهو يحس باختناق يتعاظم في روحه توقف عند صفحة غير مؤرخة، ثقبت عينه كلمة دعارة، قرر أن يقرأ الصفحة كلها، وليس نتفاً كما كان يفعل...

«في أحيان كثيرة أثناء جلوسي في عيادة التحنيط، أبحلق في اللاشيء أو في غبار الأثاث المتراكم، والذي لأأرغب بمسحة لشدة يأسي، كانت أفكار طارئة تدغدغني، أحسها تهبط علي فجأة، لاتنمو يوماً بعد يوم، ولاتتبلور مع الزمن كنت أفكر أن أحسن دخل العيادة عن طريق الدعارة، ماذا لو أجّرت العيادة لعشاق يبحثون عن غرفة يمارسان فيها الحب؟ أو لشركاء في المتعة ينقصهم المكان؟ كنت أتخيل أنني سأجني الكثير من المال من مجرد توظيف هذا المكان الذي أملكه للقاء الجنسين ـ ذكر وانثى أعياهما البحث عن مكان ـ وأضناهما تأجيل حاجات غريزية وعاطفية لايساعدهما الجو المحيط في عيشها،

حقيقة كانت هذه الأفكار الغريبة تدغدغني، وتجبر وجهي المتجهم من الأنتظار اللامجدي للمريض من الابتسام، كانت كحلٍ معاوض للقهر المتصلب والمتجذر عميقاً في نفسي، في الحقيقة، كنت كل يوم حين تقوديني قدماي إلى العيادة أحس سلفاً أنني على موعد مع قهرٍ قاس لمدة ثلاث ساعات، وفي الطريق كنت أحس بتجهم ملامح وجهي وتصلبها كنت أفتح الباب وأدخل إلى دفء الغرفتين والمطبخ الصغير، أحس أن الأمكنة بدورها تصاب بالاكتئاب، وأشعر تماماً بوجع هذه العيادة، بألمها وأنينها لكأنها تطلب مني أن أعفيها من لقبها، أن أحيلها إلى مكان آخر، ماعدا كونها عيادة التحنيط الأبدية.

وفي أحيان كثيرة كان جنون اليأس يستعمر خيالي، ويجعله يفرز صوراً غريبة، كأن أعطي لهذه العيادة وظيفة سرية هي تجارة المخدرات، وأتخيل أشخاصاً مبهمين يتاجرون بالمخدرات، ويخبؤون أكياس البودرة المسممة في عيادتي ريثما يصرفونها، كيف أنني سأجني أموالاً طائلة من مجرد كوني وسيطاً. وفي كون عيادتي مستودعاً للمخدرات، كان خيالي يملك رصيداً هائلاً من صور لأفلام عربية وأجنبية حول تجارة المخدرات...

آه، كل شيء مضحك حقاً، ليس أمامي سوى الكتابة، بتعبير أدق الخربشة لم يعد الدكتور كريم قادراً على قراءة المزيد، ينتابه رعب حقيقي، رعب يتنفسه ويأتيه من شقوق المكتبة مقابله، من الأقلام والأوراق، ماعاد الهواء يبلغ عمق رئتيه، تمنى لو يصرخ، لويكسر الأبواب، ويقلب طاولة مكتبه ويرمي عدته الجراحية من النافذة، ينتفض من مكانه، يغلق باب العيادة، يفك أزرار بنطاله، مطلقاً حيوان الرغبة من أسره، يغرق يائساً في ممارسة العادة السرية؟... أسى فظيع يغمره وهو يعيد فتح باب العيادة، دموع لزجة تحوم في عينيه، يتساءل وهو مبلل بالخجل لماذا تصرفت هكذا مع أنني لم أكن أشعر بأدنى رغبة جنسية، لكن إعياء القهر منعه من البحث عن جواب دقيق وعلمي... يطفئ الضوء، ويقفل باب العيادة، وفيما هو يطلب المصعد الأليف الذي اعتاده: ترى كم عدد الأطباء الذين يمارسون العادة السرية في عياداتهم، يبتسم يضحك فعلاً شر البلية مايضحك!

يعود إلى بيته باكراً، يلفه تعب غريب، يحس جسده مهدوداً وروحه متعبة، متعبة كأنه لم ينم منذ أيام، يعكس زجاج النافذة صورة وجهه ضبابية، كأن مخدراً يسري في دمه ويدخله عالم الغيبوبة، تعب البطالة هدّام، يرغب بالنوم كي لايواجه حقيقة يومه. بطالة في المشفى صباحاً وفي العيادة بعد الظهر، الوضع ماعاد مقبولاً أبداً، تذكر مذكراته عن عام ٩٤ التي تصفح بعضها في العيادة، كلها أنين وتوجع من الفقر، سعادته تأخذ حدودها العظمى حين يشتري أشياء يومية للحياة وبؤسه يبلغ ذروته حين تكون جيوبه خاوية تسائله الحياة: ماذا أنت فاعل بحياتك لو لم يقصدك مريض؟! يتمنى خياله لو يسعفه بتسريع مرور الأيام، لكنه عارف أنها لن تمر سريعة، سيعاود التقشف الفظيع، الحرمان من التدخين، ركوب قدميه كواسطة نقل، الغرق في النوم من التاسعة مساءً إلى أن تسقط ذرات قليلة من الماء في حلقه الجاف، وتسعفه الملاليم، لتذكره بطعم الحياة، عاد يستيقظ في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حين ينام باكراً، يحس بمتعة كونه الصاحي الوحيد وكلهم نيام، يتخيل الناس للحظات أمواتاً. تعود الحياة تسائله: ماذا أنت فاعل بحياتك؟ ويرد عليها: ماذا عساني أفعل؟ تحنّ عليه الحياة تتقمص وجه أمه. يسألها: ترى كم سنة سأعيش؟ يحس بعد دقائق برهبة هذا السؤال يأتيه شعور كاليقين أنه سيعيش عامين وسيموت في الأربعين. يصرخ محتجاً: لا، لاأريد، يأتيه صوت ساخر: لكنك غير سعيد، مضت سنوات شبابك المزهرة وأنت تستجدي الحياة أن ترحمك من القهر اليومي والذل، لكن ظروفك تسير من سيء إلى أسوأ، يتذكر بحدة صديق دراسته ماهر، زاره منذ أيام بعد غياب خمسة عشر عاماً في أميركا، بهرته أناقته الانسجام البديع في ألوان ربطة العنق والقميص والجاكيت، والحذاء اللماع تفوح منه رائحة جلد فخم. أحس كم يكن له ماهر من ودٍ قديم، وهو يخبره كم سأل عن عنوان عيادته لأنه يرغب بلقياه لم يستطيع أن يمنع نفسه من سؤال صديقه عن عمله في أمريكا، رغم أنه عارف كم سيوجعه الجواب، رد ماهر ببساطة: أعمل في الجامعة، وإن كان راتبي أقل نسبياً من الأطباء خارج الجامعة، لكن لابأس، مجمل ماأقبضه خلال عام حوالي مئة ألف دولار. يقولها ببساطة

شديدة فيما كريم يغطس ظرف الشاي في الماء الغالي ليذوّب قهرة قبل أن يذوب الشاي. سأله ماهر: لماذا لم تسافر؟ ردّ: آه سؤال لامعنى له الآن... يتأمله بعيون مترعة بالخيبة يحدث نفسه: هكذا يكون الطبيب الثقة تتدفق من حضوره أما أنا فلقد نسيت الطب، لم يبق من معلوماتي سوى مجرد ممارسات تافهة علقت بذهني بفعل التكرار، ماذنبي إن كانت ظروفي على درجة من القحط والسوء ولاأقدر أن أشترك بمجلة علمية ولاأستطيع حضور أي مؤتمر علمي ضمن القطر، فكيف المؤتمرات في الخارج؟! تذكر كيف ألح ماهر بدعوته للعشاء، أراد أن يرفض لأنه يستحيل أن يقدر على رد دعوته، لكن ماهر ألح، لم يذهب رغم إغواء الدعوة، لأنه لن يستطيع احتمال نجاح صديقه، ولايريد أن يراكم صوراً وذكرياتٍ لماهر في تألقه وثرائه، فيما هو قابع على رصيف الحياة ينتظر الصدقات.

تساءل: هل أنا على وشك الانهيار؟ مالذي يحول بيني وبينه؟ أهو الخوف الاجتماعي، أم اعتقاده الراسخ بأن الانهيار هو النهاية الحتمية، هو السقوط الأخير الذي لاقيامة بعده سيصير في نظر الجميع المنهزم والمجنون والفاشل، وسينسق خارج دائرة الحياة كشخص عجز عن التواصل مع متطلبات الحياة، وفشل في التعامل مع الظروف والبشر... المجتمع كما تعلّم لايتعاطف مع المنهارين، إنه يحب الأقوياء، حتى الذين يتحدونه يهابهم، أما أن ينهار فلن يقدّم له أحد يد العون، لكن ليعترف أنه صار يتمنى الانهيار، سيصل إلى حل أخير حتى لو كان الهزيمة، أوليست الهزيمة أفضل من عراك مستمر منهك، والأمل، إنه أشد المشاعر أذى للإنسان، لإنه يستمر يجرجره في الطرقات الوعرة حتى تنفق روحه... وهاهي الحياة تقدم له كل يوم ألف مثال ومثال بأنها ستهزمه، فرّغته من كل أحلامه الصغيرة وجعلت الرعب من المستقبل يعشش في روحه، سيظل إلى أبد الآبدين لاهثاً وراء القوت اليومي: فلماذا لاينهار؟ لماذا لايختار انهياره؟ أولم يقدّم له الأسبوع الأخير علامات منذرة وقوية على انهياره، ألم يقضي أياماً متواصلة في النوم، أو الجلوس شبه غائب عن الوعي في سريره، أوفي كرسي تحنيطه الأبدي في العيادة.

يبتلع القرص المنوم تمام التاسعة، لأنه يرغب بالغياب عن حالة الوعي المرهقة، لكنه كان يستيقظ بعد منتصف الليل، حيث يبلسم السكون المطبق أوجاعه قليلاً، يحضرّ قهوة منتصف الليل، ويسرح لساعة أو ساعتين في اللاشيء، وغالباً مايضطر لمعاوده ابتلاع المنوم حتى يغرق مجدداً في النوم، ويستيقظ على تحذيرات أمه من خطر هذه العقاقير، صوتها الرقيق مندى بالدموع، تذكّره بأن الحياة حلوة، وبأنه لايزال شاباً ولايدري ماذا يخبئ له المستقبل، لكنه يدير ظهره ويمضي، دون أن يشعرها أنه سمع كلامها.

وحدهن الممرضات قادرات من حيث لايدرين على بلسمة أوجاع روحه المزمنة والتي سماها آلام سرطانية، كان يتأمل نظيرة، ممرضة نشيطة وأم لأربعة أطفال كيف تنتظر بفارغ الصبر أن تقبض طبيعة العمل التي لاتتجاوز المئتي ليرة، كل يوم كانت تتصل بالمحاسب لتسأله: متى سنقبض طبيعة العمل؟ ذات يوم سألها ضاحكاً: هل ستغنيك مئتا الليرة يانظيرة؟ ردت للحال: إنها تساوي ثمن كيلو جبن، ونصف كيلو لبنة. ودون حرج أخبرته أنها تستدين من البقال الجبن، واللبن، واللبنة، وبأنها محظوظة بجيرة ذلّك الجار الرحيم الذي يرضى أن يدّينها، ومأأن تقبض راتبها حتى تسدد ديونها، لتعود للاستدانة بعد أيام قليلة مجدداً... وهكذا تستمر حياتها.. انتظار نظيرة العشقي والملحاح لطبيعة العمل كان له مفعول المسكن السحري لآلامه، يتذكرها كيف تقضي الشتاء كله بالكنزة ذاتها خضراء مخططة بالأسود، وعندما اضطرت أن تبيع الغسالة الأتوماتيك التي احتاجت لسبعة وعشرين شهراً كي تسدد أقساطها، لتعالج عين ابنها التي احتاجت لزرع عدسة، حاول تعزيتها، لكنها ضحكت وهي تقول: ما المشكلة يادكتور، طول عمري أغسل على يدي...

كان يتأمل تلك الإنسانة المدهشة، التي تقضي الشتاءات المتوالية بالكنزة ذاتها، وتحلم أياماً بقبض طبيعة العمل لشراء كيلو جبن لأولادها، وقادرة أن تغرق أربعة أطفال في بحر سخي من الحب، إنها تتمنى لو يستهلكونها، لويتمثلونها، لويريحونها من مقاومة الحلم ذاته كل يوم، بأن يتغير الحال، وتمطر السماء آلاف النقاط، تمثل كل نقطة طبيعة عمل... ذات يوم تمنى لو يملك

الجراة ليبوح لنظيرة، أنه لجأ منذ أسابيع إلى أحد الصيادلة يحمل كيساً فيه أدوية متنوعة، كلها نماذج دعائية من شركات الأدوية، وأن ذل الحاجة دفعه ليبعها، تمنى لو يقول لها إنه حاول أن يخفي حرجه من الصيدلي بالتظاهر بالمرح، لكن الصيدلي اعتذر بلباقة قائلاً بأنه لايشتري نماذج دعائية. ودّ لوبيوح لنظيرة أنه يومها كان يملك عشرين ليرة فقط، وكان يحتاج لشراء بيض ودخان وجبن... ترى هل من حلٍ سوى أن يتعزّى المساكين ببعضهم.

حين تضيق به الأيام لدرجة خانقة، ويحس كأن قبضة الزمن تحكم على رقبته لاينفع شيء في تعزيته سوى استحضار سعاد إلى ذهنه، إنها ممرضة خمسينية تعمل في قسم الضماد، وإذا كان يسمي الممرضات «النساء بلا حدود» فإن سعاد تتفوق على اللاحدود نفسه، إنها ظاهرة تستحق الدراسة والتأمل.. كان يزورها دوماً في غرفتها البعيدة، يقدم لها سيجارة تنقثها بتلذذ، ويتأمل طقوسها في تحضير الزهورات، مرددة كل مرة، أنها تحضر تلك الأعشاب بنفسها، تخلط البابونج والزوفا وأوراق الورد اليابسة، والزعتر البري والميرمية، مع بعضها، وبنسب معينة، وتقدم له المشروب الذهبي الداكن ليشربه، يحتس المشروب المقدّس... كان يسميه القربان المقدس... كانت سعاد تدهشه، تجعله يخجل من نفسه، طالما تمنى لو يقترب منها يلمسها، يتأكد أن لها طبيعة بشرية، تمنى لو يقبل يديها الخشنتين من التعب... كان يعبر عن حبه الشديد لها، بأن يشتري لها بين حين وآخر نصف كيلو من القهوة، أو يحضر لها سراً بعض الثياب من البالا تأخذها شاكرة وهي تنظر إليه نظرة الشكر العميق، في الأيام السعيدة التي يقصد عيادته المرضى كان يخصص دوماً جزءاً من دخله لسعاد... تلك الظاهرة التي تفتنه، يوماً ما كانت شابة جميلة أحبت شاباً وتزوجته، أنجبت بنتاً وصبياً، ثم أراد القدر أن يمتحنها، زجّ زوجها في السجن لتهم عديدة وغامضة، غاب هناك خمسة عشر عاماً، كان عليها أن تربي الطفلين براتب الممرضة، ظلت تحضرهما معها إلىحضانة المشفى حتى صارا في عمر المدرسة، واضطرت أن تعمل ممرضة ليلية في إحدى المشافي الخاصة لعشر سنوات، بعد أن تقفل الباب على أولادها وتمطرهم بالقبل وترجو

لهم نوماً سعيداً... نقص النوم غيّر شكل سعاد، كثيراً ماكانت تترنح وهي تمشي ثم تحكم السيطرة على مشيتها كي لاتسقط أرضاً، بعد انتظار طويل طويل، خرج زوجها من السجن، ذبحت سعاد خروفاً ووزعته على الجيران... غابت عن المشفى اسبوعين للتفرغ للعريس لتستقبل الناس الذين حضروا خصيصاً من أجل سعاد، ليقولوا له الحمد لله على سلامتك.

لكن المسكين فضلّ الرحيل إلى سجن آخر، إلى أفق مفتوح لانهائي، أراد أن يستقيل تماماً من دنيا البشر، مات بعد ثلاثة أشهر من خروجه، وقد أجمع الأطباء أنه توفي بسبب التهاب كبد حاد سببه استعمال شفرات الحلاقة بين المساجين...

لبست سعاد الأسود عامين، ثم أخذت تجاعيد وجهها المليئة بالطيبة تشي بسرٍ ماعادت قادرة على إخفائه، وهو إدمان ابنتها على البيرة، كانت ابنتها في الثانية والعشرين من عمرها تعمل عاملة مقسم، وتكره عملها بشكل فظيع، لجأت للبيرة تسكن بها أوجاع عملها وحياتها، ووجدت نفسها تنزلق في الإدمان، كانت تأخذ معها كل يوم أربعة ليترات من البيرة تشربها أثناء العمل، تطور الأمر بالصبية إلى أن أصيبت بتشمع كبد، انقطعت دورتها الشهرية نهائياً... كانت تسير بخطا حثيثة نحو الموت... ولم تنفع جهود الأم والأطباء الذين استدعتهم لعلاج ابنتها من اقناع الأخيرة بالعدول عن عادتها... وتوفيت الفتاة بعد شهر واحد من فكاك سعاد الحداد على زوجها! عادت لتغطس في السود وقد نذرته اللون الوحيد طوال حياتها....

الابن هو الوحيد الذي يفترض أن يكون نافذة الأمل في حياة سعاد... لكن هو الآخر اختاره القدر ليكون نصلاً حاداً يخترق قلب الأم، المآسي التي عاناها الشاب دفعته للتعلق بالحياة بشكل جنوني، اعترفت سعاد ذات مرة لأعز صديقاتها، بأنه يضربها أحياناً ليحصل منها على المال، لأنه يريد أن يجاري رفاقه في المصروف، في اللباس، وفي استنزاف كل لحظة من الزمن ليتمتع بها، عساه يستمتع نيابة عن أبيه وأخته... بكته أياماً يوم تركها وسافر في البحر باحثاً

عن المال، قالت: أصبح الثراء حلم كل الشباب، قلت له بأنني مستعدة أن أعمل أعمالاً إضافية وأعطيه كل ماأملك، لم يرضى، قال لي بأن راتبي كله على بعضه يصرفه في سهرة واحدة لو أراد أن يعيش بحق! صارت سعاد تعمل ممرضة للعجائز الذين تضيق بهم أسرهم، تخدمهم ليلاً وتسهر عليهم مقابل مبلغ معقول من المال تقدمه لابنها، ليشتري بها الحذاء الإيطالي ويسهر في المطاعم الفخمة مع رفاقه دون أن يمسح على شعرها بلمسة حنان، أو تنفتح شفتاه على كلمة شكر... لم تشك سعاد يوماً غدر الزمان، كانت أكثر الممرضات إنسانية في عملها كانت تقبل الأطفال وتداعبهم وتطمئنهم قبل تغير ضماداتهم، وتؤاسي الشيوخ وتعتني عناية فائقة بالمحرومين... من أين تنبع من داخلها كل هذه العواطف الرقيقة؟ أي نبع هذا الذي لاينضب في داخلها، ولم تنسى الابتسام ولاالغناء، كانت تملك صوتاً يثير الشجن، ويدفع كل من يصغي إليها لنسيان العالم الأرضي والطيران إلى فوق... كانت سعاد هي الملاذ الوحيد الحقيقي للدكتور كريم، الذي لم يجد حرجاً يوم سألها: كيف تحمّلت كل تلك الصعوبات الهائلة ياسعاد ولم تنهاري؟! ردت باسمة: الحياة عبور ياابني، كلنا عابرون، كل إنسان يأخذ نصيبه. يسألها: لكن هل يعقل أن يكون نصيب إنسانة رائعة مثلك كل هذا الشقاء؟! تقول بإيمان: لست وحدي الشقية، انظر حولك يابني، العالم مليء بالشقاء، البشر أغلبهم أشقياء، ألاترى صور المجاعات في الصحف والتلفاز، ألاتسمع بالأمراض التي تحصد الناس، كلنا عابرون، عابرون يادكتور كريم... تدهشه حكمة هذه المرأة، قدرتها على التماسك والعطاء رغم كوارث حياتها، ماأتفه معاناته تجاهها، «سعاد لو كنت نحاتاً، لصنعت لك تمثالاً...» هذا ماقاله لها يوماً، ضحكت، أسعده أنه تمكن من انتزاع ضحكة حقيقية نابعة من قلبها... قالت أنا إنسانة عادية جداً يادكتور كريم.. أسرع يعترض: بل أنت قديسة.

* * *

جلسة القهوة في استراحة العمليات أو في العيادات، يصح أن تعتبر تحليلاً نفسياً بلغة الطب النفسي، إنها جلسة بوحٍ حقيقي، يتحلق الأطباء،

الطبيبات والممرضات حول الشراب الأسود اللذيذ، كل يحمل فنجانه ويبوح... أحياناً يكون الحديث خفيفاً، مسلياً تحتل أحاديث الطعام الصدارة فيه، يليها الأحوال الجوية، الشكوى من الحر أو البرد، أزمة المازوت، غلاء تكاليف التدفئة، وغالباً ماكانت بعض الممرضات والآذنات يفردن بضائع رخيصة للبيع، كقمصان نوم، بناطلين، أقمشة، عطورات رخيصة، يساعدهن الربح الطفيف في بيعها لتأمين بعض حاجات الأولاد، ودوماً لأم محمد حصة الأسد في البيع، كانت آذنة شبه أمية، خفيفة الروح، تفرّغ ضيقها بالنكات ومؤمنة أن النحس نصيبها في هذه الحياة، كان زوجها جزاراً ـ منحوساً كما تصفه ـ لأنه لايرضى أن يغش، بالكاد دخل دكانه يكفي مصروفه الشخصي، يوم أجرت عملية المرارة زارها الدكتور كريم في بيتها، تاه التكسي في أزقة لم يتخيل كريم وجودها، أخيراً اهتدى إلى دكان زوجها الجزار، كانت عبارة عن غرفة وحيدة أشبه بسجن انفرادي معتمة وقذرة، علّق فيها ذبيحته الوحيدة. ضحك في سره وقال: أهذه تسمى دكاناً! ومن سيقصده، الناس في هذه الأحياء فقراء لدرجة لايشبعون من الرغيف، فكيف سيقدرون على شراء اللحم؟ بيت أم محمد عبارة عن غرفتين، لانافذة فيهما، مجرد باب خشبي ضيق هو نافذة البيت على العالم، ابنها محمد تتباهى به، يحضرّ للدكتوراة في الهندسة، أوفدته الجامعة إلى روسيا، تعيش على حلم أن يرجع ذات يوم وينتشلهم من الفقر، لكنه تزوج هناك واستقر وانقطعت أخباره، وفرّ من التزامه مع الجامعة فما عاد يقدر أن يزور الوطن... كانت أم محمد تبكي من قسوته وتقول: والله ماعدت أرغب أن يساعدنا، فقط أريد أن أطمئن عليه. تبكي أيضاً ابنتها المطلقة، التي عادت إليها ذات ليلة شبه منهارة، طردها زوجها لأنه عشق أرملة حسناء تزوجها وطلق زوجته، المطلقة المسكينة كانت تبكي أولادها، ولاتنفك لحظة من ابتداع صورٍ تعذبها، تمثل جميعها تعذيب زوجة أبيهم لهم، كانت أم محمد تشارك ابنتها البكاء، لكنها لاتستطيع أن تساعدها في إحضار أولادها، لأن البيت لايتسع لهم، سبب القهر للمطلقة آلاماً شديدة في معدتها، أدخلت المشفى بحالة اسعاف مراراً، لكن التحريات الطبية بينت أنها مصابة

بسل في الكلية... لدى أم محمد ثلاث بنات أيضاً عدا المطلقة، إحداهن مجتهدة تدرس في الجامعة، لكنها دائمة الشكوى بأنها تخجل من ثيابها أمام صديقاتها، تحاول أم محمد أن تشتري لها ثياباً أنيقة من الربح الذي تحصل عليه من بيع البضائع البسيطة للمرضات والأطباء، دوماً تحتاج من يساعدها في حساباتها، أحياناً يغادرها طبعها المرح فتنزوي في ركن قصي في العيادة تشعل سيجارة، تنفث دخانها بطريق يشعرمن يراها أنه دخان احتراق روحها، وتتنهد بعمق، ثم تطلق زفيراً، وتقول جملتها الأثيرة: الدنيا بنت كلب. حكمتها في الحياة بأن الدنيا بنت كلب، في جلسة القهوة كانت سهيلة عصباً أساسياً فيها، ممرضة شابة لديها ولدان، زوجها أستاذ لغة عربية، راتبهما لايكفي للمعيشة يساعدهما أخو زوجها، وهو أمي، لكنه يملك آلة تقطيع الرخام، يربح الكثير، ويساعد أخاه الاستاذ بألفي ليرة كل شهر، سهيلة تحس بالقهر وتقول: أنا وزوجي متعلمان ونعمل، وبيتنا ملكنا، لكن راتبنا لايكفي لمعيشتنا مع الأولاد، أخوه الأمي دخله كبير ويتصدق علينا... شركاؤها في جلسة القهوة يحسون بقهرها، يقولون لها: الحمد الله أنه يساعدكما، من أجل الأولاد على الأقل، أليس أفضل من أن يشعر أطفالك بالحرمان. تطرق سهيلة غارسة عيونها في البلاط، مدارية نظرة الإنكسار... أخذ قلق شديد ينتابها عندما تزوج أخو زوجها، وعبرت عن مخاوفها بانقطاع المعونة الشهرية، وبأن الزوجة لن ترضى بعد تلك المعونة... رفاق الشراب الأسود والعيشة السوداء يؤاسونها بكل طاقتهم الوحيدة على التعاطف: المهم الرجل، إنه صاحب القرار... ترد سهيلة بحزن: بل المهم المرأة.

حلقة القهوة تضم أم سجيع أيضاً، ترملت في الثالثة والثلاثين، لديها ثلاثة أطفال، سهرت على تربيتهم وتعليمهم، ابنتها الكبرى في الجامعة، تلبس ثياباً فاخرة، وتتبرج بماكياج رائع، وتتعطر بأغلى العطور! تتغيب كثيراً عن البيت تقول لأمها بأنها تدرس عند صديقاتها، وبأنها تستعير الثياب منهن! الأم لاتصدق ترتاب في سلوك ابنتها، يسكنها الذعر، لكنها لاتملك الدليل، البنت متفوقة في الجامعة، كل يوم تسحب ابنتها من يدها وتحذرها من طريق الغواية

والحرام، تستفيض في الحديث عن الشرف... الابنة تصغي ساخرة بعينيها الساحرتين المكحلتين، تبتسم لأمها وتقول: أنا أشرف من الشرف ياأمي، لاتخافي، دعيني أعيش، في كل مرة تنتهي المواعظ الاخلاقية للأم، بالجملة الوحيد النهائية اللابنة: دعيني أعيش، كثيراً ماكانت الشابة تحضر الحلوى والفاكهة لاخوتها وأمام مهرجان الفرح الذي يقيمه الأولاد حول الحلويات والفاكهة، كان الشلل يصيب أم سجيع، ذات يوم هاجت الأم، وركبها جنون الغضب، أنها تريد أن تعرف من أين تحضر ابنتها المال، وتشتري هذه الأغراض، ردت الابنة ببساطة بأن لديها صديقة ثرية تساعدها هي في دروسها والأخيرة تقدم لها الهدايا، أصرت الأم على التعرف بالصديقة المزعومة، قالت الابنة ببساطة: أوكي ماما. عادت بعد يومين برفقة إمرأة في الخمسين متبرجة، يتدلى من عنقها كيلو ذهب على شكل سلاسل مختلفة الأشكال ومعصمها يختنق بالأساور، تلبس الجلد والشامواه، وتتعطر بعطر مدوخ،... أهذه هي الصديقة؟! الإخراج الفني الذي قدمته الإبنة، بأن السيدة شيرين ثرية تدرس في الجامعة متأخرة وبأنها أحبت الابنة الشاطرة كثيراً، واعتبرتها مثل ابنتها التي توفيت اثر حادث سيارة!! حوصرت أم سجيع، غلبها زمن العهر، القوّادة خطفت ابنتها، والابنة تريد أن تعيش؟! ماذا تفعل الأم المسكينة، كيف تداري نظرات الارتياب والابتسامات الخفية التي تتبادلها الممرضات حين تضطر ابنتها لزيارتها في المشفى لسبب ما،... لكن أحداً لم يتخيل تلك النظرة الطويلة الطويلة، الغامضة، والملتبسة، الحنونة، الناقمة، المهزومة، المنتصرة الشاكية، المتظلمة، والمتصالحة، والمتخاصمة بين عيني الأم والأبنة... لكن في نهاية النظرة، في نهاية الحياة، ستظل أم سجيع: الأم، والعاهرة الصغيرة المثقفة: الابنة؟! وسيبقى الحب بينهما طفلاً مصاباً بالشلل.

* * *

أمينة

نام الدكتور كريم بعمق عشر ساعات، وحين فتح عينيه كانت أطياف أحلام متوترة عالقة بأهدابه، قام يحضّر شرابه الأسود عارفاً سلفاً أن أمه ستكون في الصالون كعادتها تسمع نشرة الأخبار من محطات مختلفة، تدهشه هذه المرأة، إنها سعيدة حقاً رغم نزقه وخيباته التي تعايشها كل يوم، أحياناً يشعر أن مجرد كون المرأة أماً يجعلها سعيدة، هل السعادة تعني الأمومة؟! كان جسمه دبقاً من العرق، وشعره ملبداً، فكر أن يستحم، لكنه عدل عن الفكرة: لم على الإنسان أن يكون نظيفاً إذا كان يائساً لهذه الدرجة؟!

وصل عيادة التحنيط الأبدية كما يسميها، جلس على كرسي وحدته، وبدت له العيادة أشبه بالمرأة الوحيدة المخلصة له والتي ستحبه إلى الأبد، فكر أنه لن يتمكن من بيعها لأن الرجل يستحيل أن يطلّق إمرأة تخلص له وتعشقه لهذه الدرجة، راقت له فكرة تشبيه العيادة بإمرأة، أراد أن يكتبها في دفتر مذكراته، لكن فتاة سمراء أشبه بالشبح فاجأته بدخولها إلى مكتبه وفي يدها فنجان قهوة يرتعش، بدا له واضحاً كم تبذل جهداً لتسيطر على ارتعاش يديها، حيته بخجل وقدّمت نفسها بأنها الموظفة الجديدة في مكتب جاره المخلص الجمركي، قدمت له القهوة وهي تسأله: هذه بدون سكر، فكيف تشربها؟! شكرها وهو يدعوها للجلوس قائلاً: أشكرك على القهوة.

جلست على طرف المقعد مقوسة الظهر، وقد تشابكت يداها في

حضنها، كانت تلبس كنزة حمراء فضفاضة، وقد ثنت أكمامها، وتنورة سوداء طويلة، ولم تستطع ملابسها تمويه نحافتها المثيرة للشفقة، أمكنه أن يلاحظ ترقوتها، ونتوءات عظام كتفيها، ابتسمت مدارية خجلها، فصفعه تشوه أسنانها، كان فكها العلوي لايحوي سوى أربعة أسنان متفرقة، أحس أن قطاراً يمكن أن يمر من فراغاتها، استوقفته ندبة جرح مائلة في وسط جبهتها، لكن بريقاً واضحاً كان يشع من عينيها السوداوين، أما شعرها الكثيف الفاحم فقد ضفرته في ضفيرة ثخينة تدّلت حتى وركيها، ابتدرته الحديث محاولة التغلب على خجلها قالت بأن والدها يشكو من آلام شديدة في ظهره، فقد اشتغل عتالاً في الميناء لسنوات، وكانت المسكنات تخفف آلامه في البداية، أما الآن فروحه تزهق من الألم كلما هّم بالقيام والجلوس. سكتت، لامست بموسيقى صوتها الساحر شغاف قلبه المتلبد الأحاسيس، قال لها:

ـ حسناً يجب أن أراه، وأصحبه معي إلى المشفى لإجراء كل مايلزمه من فحوص.

رفعت عينين تبتهلان بالشكر، قالت بالصوت العميق الذي فتنه: كيف أشكرك؟

قال محاولاً إزالة تحفظها وخجلها: بفنجان قهوة.

ابتسمت كاشفة مجدداً عن تشوه فظيع في أسنان فكيها. سألها عن أسمها، قالت أمينة، وأخبرته قصة حياتها الموجزة مبتدئة بعمرها، أكملت الرابعة والعشرين منذ شهرين، حاصلة على الشهادة الثانوية، عملت أربع سنوات في مصبغة ثم سنتين بائعة في محل للألبسة المستعملة، وأخيراً تعمل موظفة عند المخلص الجمركي تكنس وتمسح، وتحضر القهوة والشاي للضيوف.

قال لنفسه: روحها حلوة هذه الفتاة، أحس أنها ترشيه بلطفها وبفنجان قهوة ليدخل والدها إلى المشفى، ودّ لو يطلب إليها أن تسترخي في جلستها وبأن تسند ظهرها إلى المقعد خطر له لو يبوح لها بأنه مفلس ويائس، وبأنه من

السخف أن تحس بمهابته لمجرد أن لقبه طبيب، تآزر انكساره مع إنكسارها، «كلانا مهزومان ياأمينة» فلا تشعري بالضآلة تجاهي. قامت تأخذ فنجان القهوة الذي رشفه وتقول له مطرقة: صحة. قال لها: غداً صباحاً يمكن لوالدك أن يقصدني في عيادتي، وأنا سأصحبه إلى المشفى.

عصر اليوم ذاته لمح آمينة تمسح مكتب المخلص الجمركي، كانت تعصر الممسحة وهي محنية فوق سطل المسح، أمكنه تمييز فقراتها الظهرية الناتئة من الكنزة الحمراء بالتأكيد هذه الفتاة ضحية سوء تغذية مديد، تمنى لو تدخل عيادته ليشبع فضوله في معرفة ظروف حياتها، ليجد لنفسه عزاءً جديداً، وهاهي تطل عليه بقامتها الشبحية بعد ساعة من جلوسه في كرسي تحنيطه الأبدي، تقول بصوتها الحنون: أترغب بفنجان قهوة. قال: بفنجانين لو سمحت، ستشربين القهوة معي تضرجت سمرة وجهها بحمرة داكنة، ابتسمت دون أن تكشف عن أسنانها هذه المرة، قالت: حاضر، سأرجع بعد قليل تأمل حذاؤها المشوه عندما استدارت منصرفة، حذاء من النايلون الرخيص وقد مال كعباه.

ساعدتها القهوة على التحرر قليلاً من حرجها، أخبرته أن والدها سيقصده صباح الغد، وبأنه ممتن منه للغاية، وجد نفسه يسألها: هل أنت راضية عن حياتك ياأمينة؟

باغتها السؤال، بدا لها غامضاً ومفاجئاً، قالت وهي تضع فنجان القهوة في صحنه: الحمد لله...

ـ هذا يعني بأنك راضية.

كررت: الحمد لله.

ـ ماذا تقصدين بالحمد لله؟

قالت: طالما أنا أعمل، فهذا جيد.

ـ وكم تقبضين؟

ـ ألف وخمسئة ليرة.

ـ أهو أعلى راتب قبضته؟

ـ أجل، في المصبغة كنت أُفنى من التعب، أعمل من السابعة صباحاً، حتى الرابعة بعد الظهر بـ ٨٠٠ ليرة فقط، في محل البالا، كنت أعمل من الصباح حتى المساء بألف ومئتي ليرة. وكنت لاأهدأ عن الحركة، إعطاء الثياب للزبائن، ثم تعليقها مجدداً هنا العمل مريح، أحضر في التاسعة صباحاً حتى الواحدة، وبعد الظهر من الرابعة حتى السابعة...

ـ وهل يكفيك ألف وخمسمئة ليرة؟.

ابتسمت: أفضل من لاشيء.

هل أرادت أن تغير الحديث، حين عادت تحدثه عن سعادة والدها حين أخبرته أنها أمنت له طريقة لدخول المشفى عن طريق طبيب إنساني و...

قاطعها: أرجوك ياأمينة، كفي عن شكري، من حق والدك الدخول إلى هذا المشفى فهو لكل الناس.

قالت: لقد ذهب إليه مراراً، فلم يستفد شيئاً، قالوا له لانستطيع أن نصوّر لك ظهرك لعدم توفر أفلام الأشعة. كل شيء يحتاج لواسطة يادكتور.

وافقها للحال: معك حق، سألها: كم عدد أخوتك؟.

قالت: سبعة، أربع بنات، وثلاث صبيان.

ـ وأنت ماترتيبك؟

ـ أنا الكبرى.

ـ والبقية هل يعملون؟

ـ اختي روضة التي تصغرني بعام حصلت على عملي في محل البالا،

وأخي سمير ترك المدرسة بعد حصوله على الشهادة الابتدائية ويعمل معاوناً لسائق باص. والبقية في المدرسة.

ـ ومن يعيلكم بعد أن ترك والدك العمل.

ـ أنا وأختي روضة وأخي سمير.

ـ إذاً أنتم تعيشون على دخل حوالي ٣٥٠٠ ليرة في الشهر.

أطرقت، علامة الموافقة.

سأل: أيكفي هذا لشراء خبز.

قالت وقد هجم الحزن على صوتها المخملي: أمي تعمل أحياناً خادمة في بيوت الأثرياء.

ـ وكم مرة في الأسبوع تعمل؟

ـ ثلاث مرات... كل عائلة تعطيها مئتي ليرة.. لكن.

سكتت، سألها: لكن ماذا؟. ترددت في القول، ألحّ عليها بنظرته، قالت: في الواقع أصبحت تشكو هي الأخرى من آلام شديدة في ظهرها. لام نفسه كونه فتّق كل جروحها الهاجعة في روحها. أتى دورها في إحراجه حين سألته: أليس عندك ممرضة؟ قال بلهجة مقتضبة لاتشجع على متابعة الحوار: في الحقيقة أنا أؤثر الوحدة.

اكفهر وجهه، ماعاد هو وهي طبيب وموظفة يتحادثان ويرشفان القهوة، خرجت آلامه وخيباته من عقالها: لتعانق أو تصارع آلامها وخيباتها، شكرها على القهوة بطريقة ختامية مبطنة برغبته بفض الحوار، فهمت للحال رغبته بانصرافها قامت تحمل الفنجانين لتتركه دون كلمة أو حتى نظرة، يبدو أنها شعرت أن سؤالها أزعجه، وجد نفسه غارقاً في تخيل حياة أسرة مؤلفة من تسعة أشخاص بمجرد ثلاثة آلاف ليرة أو أربعة آلاف على أبعد تقدير، تساءل: أتراها أمينة تجوع لذلك هي نحيلة هكذا!؟.

صباح اليوم التالي دخلت عيادته تحمل فنجان القهوة كعادتها لحقها بعد دقائق رجل يعرج من آلام ظهره، قدمته له بأنه والدها، أحسه يشبه فزاعات الطيور، بالجاكيت الباهتة الترابية، التي كانت على الأغلب رمادية أو بنية، ربما خضراء، بدون أزرار والفضفاضة، والكنزة التي اتخذت شكل اعوجاج ظهره، يبدو أنه ينام بها، أما حذاءه فيبدو أنه الوحيد الذي حظي بقسط من العناية لأنه ممسوح وملمّع جيداً، رغم قدمه. بدا لمعانه المبالغ به دليلاً على قدمه، دعاه الدكتور كريم للجلوس، وطلب منه أن يعطيه فكرة موجزة عن آلامه، متى ابتدأت، وطبيعتها ومتى تشتد؟! أدهشه أنه ابتدأ حديثه عن طفولته في غزة، تدخلت أمينة قائلة: نحن فلسطينيون. تركته يسترسل في حديث الشجن، وهو يخبر الطبيب كيف طرد من غزة مع أهله وجيرانه، ورحلّوا في شاحنات مع الحيوانات والأغراض، وكيف عاش لسنوات في مخيمات قريبة من دمشق، ثم كيف عمل ماسح أحذية عدة سنوات، وكان المعيل الوحيد لأسرته لأنه أكبر أخوته، ولأن والده توفي بسكتة قلبية يوم الغزو الاسرائيلي لغزة، بدا الضيق على أمينة تدخلت مجدداً في الحديث مذكرة والدها أن الطبيب طلب منه فكرة موجزة عن آلامه وليس عن حياته. رمقها والدها بقسوة وعتاب وقال: هذه هي آلامي.

شجعه الطبيب على الاسترسال بهذا الشجن الحزين والجميل قائلاً: خذ راحتك، تكلم بكل ماتريد.

قال: تزوجت من ابنة عمي وأنا في العشرين، عملت، عتالاً وماسح أحذية في آن، تمكنت من شراء غرفة، وقمت بنفسي ببناء غرفة ثانية بجوارها، ثم عملت بائع خضار متنقل، وبعدها توظفت في المرفأ، إنما وظيفة غير ثابتة. والآن لاأعمل شيئاً، آلامي لاتسمح لي بالحركة. إنها لاتطاق.

دهش الدكتور كريم حين عرف أن عمر والد أمينة خمسة وأربعون عاماً، تساءل بينه وبين نفسه: ياإلهي كيف اهترأ هذا الرجل؟ كيف تغضن وجهه هكذا وحفرته الأخاديد وتساقطت أغلب أسنانه؟ كم يبدو مستهلكاً.

حين رافق الدكتور كريم إلى المشفى، أصر أن يدفع أجرة التكسي، مخرجاً من بطانة جيوبه خمساً وعشرين ليرة مهترئة ناولها للسائق بحرص، كأنه يعطي ثروته كاملة، منعه الدكتور كريم بقسوة، كان واضحاً أنه لايملك سوى ورقة النقود هذه، واستطاع أن يتخيل أن أمينة أعطته إياها هذا الصباح، وكيف حسبا معاً وبصمت أنه سيدفع عشرين ليرة أجرة التكسي وسيبقى معه خمس ليرات، ليرجع إلى البيت بالباص. أحس الدكتور كريم بسعادته وهو يوفر له ثمن بضعة أرغفة من الخبز للأفواه الجائعة التي تنتظر الرجل المريض.

قضى في المشفى حوالي ساعتين إجريت له كل الفحوص الموجودة، والصور الشعاعية بوساطة الدكتور كريم، تبين أنه مصاب بفتق نواة لبية ويحتاج لعمل جراحي، عاد إلى بيته ممتناً من الطبيب الإنساني، بعد أن أخبره الأخير أنه سيخبره بما يتوجب عمله عن طريق أمينة.

وجد الدكتور كريم نفسه متحمساً لخدمة الرجل البائس، قصد زميله طبيبالجراحة العصبية ليتناقشا في حالة المريض، أحس أن جراح العصبية يوّد لو يتملص من العملية لكن الدكتور كريم ألح عليه حتى انتزع منه موعداً قريباً للعملية، وغمز بأن أهل المريض سيزورونه في عيادته بعد العملية ليشكروه!.

حين أخبرت أمينة والدها عن موعد العمل الجراحي، غمرته سعادة الامتنان اللامحدودة، تغيّر اتجاه غضون وجهه، منذ زمن طويل طويل لم يرسم وجهه ابتسامة، هل سيقدّر له أن يرتاح من آلامه، ودون أن يدفع تكاليف العملية؟! أية رحمة إلهية غمرته؟ هل يمكن أن ينسى فضل الدكتور كريم؟ آه كيف عساه يرد جميله؟ لايستطيع أن يقدّم له شيئاً سوى دعائه له... جال بصره في الغرفتين الحقيرتين، ماذا يملك الشريد الأمي المريض، إنه عاجز حتى عن تأمين الخبز لأولاده فهل يفكر بأن يقدّم هدية للطبيب؟ لو يوجد شيء يمكن أن يهدى في هذا البيت؟ فرشات عتيقة وبساط مهترئ، بضعة صحون وكؤوس... ستارة ممزقة... و.. فاجأته السلحفاة تعبر ببطء من الباب الخارجي،

لمعت عيناه كأنه افتكرها... كيف غابت عن باله وهي تعيش وسطهم منذ ثلاثة أعوام.. ترى أيصح أن يهدي الطبيب سلحفاة؟! ألايحب السلاحف؟! تمنى لو يكون هناك تقليد محترم هو تبادل السلاحف كهدايا بين البشر...

حين أخبرت آمينة الدكتور كريم كيف استشارها والدها بتقديم هدية السلحفاة إليه، ضحك، لكنه شعر أن قلبه يرشح بالدموع، إنه يفهم تماماً تلك المشاعر الإنسانية الرائعة... وجد نفسه يسأل أمينة دون حرج وبود صادق، كأنه يعرفها منذ سنوات: أمينة يجب أن تصلحي أسنانك.

أطرقت خجلة: أسناني! إنها هكذا منذ طفولتي.

ـ ألم تستشيري أبداً طبيب أسنان؟

ـ أبداً

أدهشه جوابها، عجباً كيف تهمل شابة تشوّه أسنانها؟ ألحّ عليها الدكتور كريم لتستشير طبيب أسنان بحالتها، اصطحبها معه إلى مشفى الرخام، وأجرى لها صورة بانورامية لفكيها، وتبين أن أسنان آمنة الظاهرة هي أسنانها اللبنية، وبأن أسنانها الدائمة مطمورة في اللثة وتحتاج لجراحة لإخراجها، كانت هذه الجراحة لاتجري في مشفى الرخام، عدا عن التكاليف الباهظة للعمل الجراحي في المشافي الخاصة، علّقت أمينة: لوبعت نفسي وبعت أخوتي، فلن يكفي تكاليف العملية، آه يادكتور كريم لماذا يجب أن تكون ابتسامتي أجمل، وأنا ألهث ليل نهار وراء رغيف الخبز!!

أحسّ كريم أنه معني بهذه الأسرة التي تواجه الحياة بصبر وود لامحدودين، لكن الامتنان الهائل الذي يشعرونه تجاهه أربكه، واجهتهم مشكلة جديدة هي تأمين الأدوية اللازمة أثناء وبعد العمل الجراحي، كان المشفى نظيفاً تماماً من الدواء طلبت أمينة راتبها سلفاً عن شهرين، تبرّع المخلص الجمركي بألف ليرة لوالدها، بلغ ثمن الدواء ألف وخمسمئة ليرة هو راتب أمينة عن شهر!

صباح يوم العملية وقفت أمينة وأختها ووالدتها متلاصقات في ردهة الانتظار كن يصلين بصمت أن تعود الصحة لذلك الشاب الذي جعله الفقر عجوزاً قبل الأوان. لحسن الحظ كانت العملية ناجحة، أوصاه الطبيب وجوب الراحة التامة أربعين يوماً، وألزمه بالغذاء المفيد كعصير الفاكهة، واللحوم الخالية من الدهن، والأسماك، شهقت الأم وابنتاها وقلن بآلية بعد أن سمعن كلام الطبيب: ماذا الأسماك؟! أطرقن خجلات بعد أن انفلتت هذه الكلمة من شفاهن... نحن لانعرف طعم الأسماك يادكتور... نعيش في مدينة ساحلية ولانعرف طعم ثروات البحر... يجب أن يتعلم أحدنا الصيد، لنأكل سمكاً... أقصى رفاهية عاشتها الأسرة، بعد عملية الأب، اضطرت الأم أن تذبح إحدى دجاجاتها الأربع وتطبخها مع الرز، لكن الأب الذي ضاقت معدته بسبب الجوع المديد لم يتمكن من تناول سوى لقمات صغيرة، أعادت الأم معظم الدجاجة المطبوخة إلى البيت، حصل مايشبه المجزرة، والأيدي تتدافع وتتزاحم لنتف اللحم ومضغه، يااللطعم الملوكي صرخ سمير وهو يدس قطعة من فخذ الدجاجة في فمه. أما أمينة التي بقيت عند والدها طوال يوم العملية فقد تناولت بشهية كبيرة المرق الأحمر الزنخ مع الرز، وبقايا قطع اللحم التي قدّمت غداء لوالدها، وفرحت بالتفاحة الصغيرة المقدمة كفاكهة بعد الغداء خبأتها في حقيبتها، تمنت لو تطول إقامة والدها في المشفى عساها تشبع من الطعام، خلال الأيام السبعة التي قضتها في المشفى مع والدها، اهتدت سريعاً إلى تخزين البيض المسلوق والخبز، والزيتون والفاكهة في كيس، وكانت كل يوم مساءً تحمل الكيس إلى البيت حيث يهجم اخوتها لالتهام محتوياته...

بعد خروج الوالد من المشفى، فاجأت أمينة الدكتور كريم بصرّة وضعتها على مكتبه قائلة بخجل هذه لك... شملها بنظرة عتاب قاسية قال بجفاء: لاأحب اسلوب التعامل هذا ياآمنة... لايوجد رسميات بيننا. تورّد خداها تستعذب تعبير (لايوجد رسميات بيننا)، ردت بخجل: لايصح أن تعتبر مانقدمه لك هدية، سنظل مدينين لك مدى الحياة، لولاك لما أجرى والدي

العملية، ولكن هذه.. تلكأت كانت تبحث عن الكلمة الأكثر مناسبة، قال لها لينقذها من الكلام: هيا حضري القهوة...

فتح الصرة الملفوفة بأوراق الجرائد، كان أكثر من عشرين قرص خبز بالفليفلة الحمراء والسمسم منضدة بعناية بعضها فوق بعض، ذاب قلبه من الرقة والحنان، ماأروع هؤلاء البشر، لكم يحبهم، لكم تمنى وقتها لويكون ثرياً ليساعدهم، لينتشلهم انتشالاً كأنهم غرقى في بحر الفقر... فجأة داهمه حزن قاسٍ إذ تذكر أنه غالباً ما يطلب مالاً من مرضى في مثل حال والد آمنة، وكيف يشعر بتململ هؤلاء المساكين لكنهم يضطرون للاستدانة ربما، ولحرمان أطفالهم من اللقمة ليؤمنوا الأتاوة للطبيب... عذره مقبول، الراتب لايكفي إطلاقاً، راتب الاحتقار كما يسميه لكن، ماذنب هؤلاء المساكين... ماذنبي أنا ماذنبي أنا... تمنى لو يفرّ من عيادته، من جلده، من الدنيا، ماأقسى حزنه الآن إنه حزن اليأس والندم مجتمعين، ترى هل من مفرٍ من هذا السلوك؟ ألم يدفعا دفعاً للجوء إلى هذه الأساليب؟ فاجأة خياله بصورة، صورته يدفن وجهه في شعر آمنة الأسود الطويل، بعد أن يفك بيديه ضفيرتها المغناج...

دخلت آمنة تحمل صينية القهوة، لاحظ أنها طلت أظافرها بطلاء وردي، وكحلت عينيها على غير عادتها، وبأنها صارت تتضرج بالحمرة حين تتلاقى عيونهما، تساءل بغرور الذكر: أيعقل أن تحلم بي فتاة مثلها، فقيرة وضامرة، وذات أسنان مشوهة، سرعان ما استسخف الفكرة إنها تملك قلباً من ذهب، لم يتردد في إطلاق تلك العبارة عليها. وجد نفسه يقارنها بفريال، الشهوانية، التي تفهم الحياة على أنها أخذ واستئثار تحب المال لذلك تبقى مع زوجها،

تريد إمتاع نفسها فتختار عشاقاً شباباً، إنها تستهلك البشر كما تستهلك الطعام، وأدوات التجميل والأحذية، لايمكنها أبداً أن تحضر أقراص العجين بالسمسم والفليفلة، وأن تعجنها بحب وحنان كما فعلت أمينة، طوال معرفته بفريال، لم تصنع له شيئاً بيديها، تقدم له هدايا جاهزة وقيّمة تشتريها من

السوق، كلما بالغت بهداياها يفهم أنها ترغب فيه أكثر رجل فحل قوي وعار في سريرها، يشبع شهواتها التي تعيش لأجلها. الجنس هو النعمة العظمى التي تفتش عنها، في قاموسها لاوجود لكلمات مثل رقة المشاعر والدفء الإنساني، والتواصل بين روحين، قبل التواصل بين جسدين، إنها تفهم بمتع الحواس فقط. أما أمينة فشفافة ورقيقة، معطاء، أصبحت ترتب عيادة الدكتور، تمسح الغبار عن الأثاث، تمسحها، وتكنسها، وترفض أن تأخذ أية نقود... ماكان يضايقه إحساس أمينة بالفروق الشاسعة بينها وبينه، إنها لاتستطيع أن تفهم كيف خذله زمانه، تعتقد أنه الطبيب الاختصاصي المحاط بهالة، لو تعرف الهالة المزيفة والسخيفة هذه، قرر أن يزور أمينة في البيت، أن يباغتهم بالزيارة، كي لايحضروا شيئاً خاصاً، ذات مساء بعد أن أنهت عملها لحقها دون أن تدري، رآها كيف تنحشر في الباص وتنزل محاولة ترتيب ثيابها الفضفاضة المشتورة بسبب الزحام، ثم تسير في طريق ضيقة ترابية حتى تصل إلى باب ضيق تلج فيه... قرع الباب بعد دقائق من دخولها، فتحت اختها الباب صدمه المنظر رغم أن خياله قدّم له عشرات الاحتمالات لصور بؤسهم. فوجئ أن الغرفة غير مدهونة ولامبلطة، ثمة بساط عتيق على الأرض، وديوان وحيد تخلعت أرجله فوضع بدلاً منها علب سمن معدنية فارغة كبديل من الأرجل...

كان الأولاد متحلقين في الغرفة المجاورة حول طبق يأكلون الزيتون ويرشفون الشاي ويدسون لقماً كبيرة من الخبز في افواههم... ارتبكت أمينة بشدة، وأخذت تدور في الغرفة كأنها تبحث عن شيء، أحس بخجلها العظيم وبرغبتها في نسف الغرفة بمافيها أمكنه أن يلمح في الغرفة المجاورة فرشاً بالية مرصوفة فوق بعضها البعض، وخزانة معدنية وحيدة ملتصقة بالجدار، وقد افترشت الأرض بعيداً قليلاً عن طبق الطعام أحذية رخيصة من النايلون، بدت في فوضاها مضحكة ومبكية في آن، حدّث نفسه بأنه لوكان رساماً، وطلب إليه تصوير حياة تلك الأسرة الفقيرة، فسيكتفي برسم الأحذية فقط كماهي عليه تماماً في تلك اللقطة التي شدته.

كان الأب يرقد في فراش عتيق، يغط في النوم، ماكان يستطيع المشي والحركة بناءً على نصائح الطبيب، ندم أشد الندم كونه لم يحضر فاكهة أو حلوى للأولاد... تقدمت منه سلحفاة صغيرة تقضم ورقة خس، أمكنه أن يتخيل أنها اللعبة الوحيدة للأطفال.. إنها اللعبة الوحيدة التي يستطيعون اقتناءها.

استأذنته أمينة لتعد القهوة، جلس وحيداً يرمق الأطفال في الغرفة الثانية، ويرمقونه بدورهم، متبادلين ابتسامات وضحكات مكتومة لم يعرف سببها، بدا له الفقر، كائناً رهيباً لايطاق، عجب من منطق الدنيا، الفقير والغني!! بدا له هذان القطبان مرفوضين بشدة ولامنطقيين... تساءل بسذاجة متى ستزول الفروق بين البشر؟! ومن جديد بدت له معاناته سخيفة مقارنة بهؤلاء المساكين، فوجئ بصوت الأب ينتشله من أفكاره: صوت متعب ومبتهج في آن: من، الدكتور كريم عندنا... قام بشكل آلي عن الأريكة اتجه حيث الصوت، وجده منحشراً في الزاوية فوق فراش عتيق، همّ الرجل بالتململ ليحيه، لكنه أمره بالبقاء مسطحاً، بحث حوله عن كرسي يجلس عليه، فلم يجد، صرخ الأب: احضروا كرسياً للدكتور... هرولت الأم تسلم على الطبيب حافية، وقد جرت وراءها كرسياً، ولم تنفك تردد، لاتؤاخذنا يادكتور، ودّ أن يقول لها: على أي شيء سأوؤاخذك جلس وسط الغرفة على كرسي، أحس أنه مسؤول يطل من علٍ على رجل مريض يفترش الأرض وأطفال مساكين يتحلقون حول رغيف الخبز وكأس الشاي... أحس أنهم يطلبون منه حلاً عادلاً لحياتهم، ولجوعهم، بدا الكرسي يزداد علواً، والرجل وأولاده يهبطون أكثر فأكثر ويصغرون... لماذا تتسع المسافة هكذا بينه وبين هؤلاء المساكين؟!. قدّمت له أمينة القهوة وهي تحاذر أن تلتقي عيونهما، بدت متضايقة وخجلة لدرجة حدس أنها لن تنام طوال الليل وهي تقلب احتمالات انطباعاته من مشاهدته لعري فقرهم.

في طريق العودة احتلت أمينة تفكيره، ماأرقها من إنسانة، تقطف له زهوراً من الحدائق تزين بها عيادته، تقفز الفرحة من عينيها حين يقصده مريض،

تحضر له القهوة، لكأنه يعطيها شرفاً لاتستحقه، تحدثه عن أحلامها بأنها ستعيد تقديم الشهادة الثانوية، لتحقق حلمها الوحيد مذ كانت في العاشرة من عمرها بالتسجيل في كلية الصحافة، وكيف اكتشف ولعها بالقراءة كان يسمح لها أن تستعير كتبه واحداً واحداً لقراءتها، وأدهشته بقدرتها على الفهم العميق لكل ماتقرأ... ماأعذب هذا الدفء الذي تعطيه إياه أمينة، أية امرأة قبلها لم تمنحه ذلك الدفء الرقيق والشفيف، وجد نفسه يتنبه لمسحة جمالها الخجول والمحجوب كطباعها، ماأعذب لمعان عينيها السوداوين، والانسياب الجميل لجسدها النحيل، حتى أسنانها المشوهة صارت تبدو له جذابة... شعرها الذي صار يحلم أن يدفن وجهه فيه.

* * *

يوم مشمس، لطيف وحزين ولايحمل أملاً، ملّ من مشاعر الإحباط ذاتها، ذهنه صفحة بيضاء، لاتعبره فكرة ولارؤية، صمت شامل في غرفة النفايات أو المكتبة طبقة الغبار تزداد سماكة حتى تبدو كطلاء رمادي فوق الطاولة العتيقة، والكراسي المتعربشة فوقها بفوضى، يحلو له تأمل الشبك المعدني الصدئ والمتآكل والمتمزق، إنه يشبه شيئاً مامن حياته أو داخله، اليوم اصطاد مريضاً، كان قد أجرى له خياطة اسعافية منذ أيام حين كان مناوباً، راجعه في المشفى، فطلب إليه هامساً أن يمر به بعد الظهر في عيادته. يعي تماماً كيف أنه مضطر لهذا السلوك، لأنه لايتحمل أن تظل عيادته عذراء، لاتطؤها رجل مريض. تذكر وهو جالس في المكتبة لايشعر أنه حي ولاميت، كيف قصدته لجنة المالية منذ أيام لتقدّر دخله.. كانوا ثلاثة أشخاص. ابتدره أحدهم بالحديث: كم مريض تعاين في اليوم؟ ردّ بقرف: لاأحد. قال الموظف بشفقة: ياإلهي كم صار مزرٍ وضع الأطباء. قال الدكتور كريم بغضب مكتوم: أتمنى لو أغلق العيادة أو أحوّلها لشيء آخر.

قال الموظف: والله أنا متعاطف معك، ومع أمثالك، لكن الأوامر تأتينا من فوق بوجوب زيادة الضرائب. تذكر بعد خروجهم كيف صبّ جام غضبه على

الموسوعة الانكليزية التي ترمقه بحزن من زاويتها في المكتبة قال لها بصوتٍ مرتفع: طظ فيك... هل نحن متعلمون حقاً؟ وفي مشفى الفوضى والقذارة والقبح، حيث ينحشر الأطباء والممرضات والمرضى كيفما اتفق. كيف سينمو العلم؟ تذكر الحديث العابر بين زميلين من زملائه هذا الصباح، استوقفته جملة تفوه بها أحدهم: صار سعر رأس طالبة التمريض ٢٥ ألف ليرة.

سأل الآخر: ماذا تعني؟ رد الطبيب الأول: ياأخي، لاتقبل طالبة في مدرسة التمريض إن لم تدفع لهم ٢٥ ألف ليرة. يستحضر صوراً عديدة لطالبات التمريض إلى بطالة وحدته في مكتبة مشفى الرخام، كيف يتدفق حضورهن في المشفى كتلاً كتلاً، في ثيابهن المخططة بالأبيض والأزرق، والمريلة البيضاء القصيرة التي يلبسنها فوق ملابسهن المخططة، تدخل عشرات الطالبات إلى غرفة العمليات ليحضرن عملية، لايفهمنى شيئاً. ولايتمكن من الرؤية حتى، فقط يفسد تعقيم الغرف المشكوك بتعقيمها أصلاً... تذكر كم مرة علا صراخ الجراح، توجد ذبابة أو صرصار في غرفة العمليات، والنكات التي تتشكل للحال: هذه ذبابة معقمة.. أو سنخدر للحال هذا الصرصار... تذكر حادثة غير بعيدة ومدهشة، لاتزال تحتفظ بألق دهشتها في ذهنه حتى الآن، يوم أخبره طبيب النسائية، كيف أنه وهو يحاول انتشال الجنين من بطن أمه المفتوح، تساقط مطر الغبار القذر فوق الجرح والجنين اعتقد للوهلة الأولى أن قرص الإنارة سيسقط فوقه وفوق المريضة المسكينة، لكنه فوجئ بطالبة تمريض أضناها المملل، فأمسكت فوطة كبيرة، وأخذت تمسح ظهر قرص الإنارة من الغبار المتراكم منذ سنوات، بعد أن عربشت عدة درجات على السلم المعدني الصغير في غرفة العمليات؟!

استحضر حواره مع إحدى طالبات التمريض التي لفتت نظره بذكائها، وبمهارتها وهي تساعده في العملية، عرف من اسئلته المتلاحقة لها بأنها حاصلة على الشهادة الثانوية بمجموع يخولها دخول أي فرع ترغبه، وعندما سألها: لماذا لم تختاري الطب أو الصيدلة؟ قالت: بأنها اختارت مدرسة التمريض بدل كلية

الطب، لأنها إذا تسجلت في كلية الطب ستحتاج لنفقات كثيرة كتب ومراجع، عليها أن تؤمن عيادة، وتختار اختصاصاً معيناً، أي ستنتظر عشر سنوات على الأقل لتبدأ بممارسة المهنة، وستضطر لدفع ضرائب عالية للمالية، وأقساطاً للبنك، إضافة إلى استحالة التوظيف في المشفى... أما مدرسة التمريض فتؤمن لها فوراً السكن والطعام، والوظيفة مضمونة بعد سنوات الدراسة لم يتمالك من سؤالها: لكن ألا تشعرين بالإحباط وأنت تضطرين لدخول مدرسة التمريض بدل فروع الجامعة الكثيرة و... قاطعته بلهجة يائسة: آه كله مثل بعضه، المهم أن نعيش!

تململ في جلسته ماعاد قادراً على البقاء، أيفرّ؟! هنا تسكع، وفي الخارج تسكع لكن التسكع في الخارج أخف وطأة من التسكع داخل المشفى، فاجأه وجهه المرتسم على زجاج الطاولة، ابتسم لصورته فكّر أنه لايزال شاباً، أعطاه هذا الإحساس شعوراً بالانتعاش سألته صورته هازئة: كم سيكون معك من المال حين ستغدو طبيباً كهلاً؟!

ارتجف من السؤال، كان يعرف أن الجواب لاشيء... لن أملك سوى تقاعدي من نقابة الأطباء، ردت الصورة ساخرة: ياللتقاعد السخيف، هل سيكفي ثمن خبزك اليومي؟...

أحس بالفكرة ترزح على كتفيه بثقل فظيع، تساءل بكل الألم المرتشح في أنسجته: أيعقل أن أصل إلى خريف عمري وأنا مفلس تماماً، ولاأملك ذخيرة ضد المرض والشيخوخة تساءل بسذاجة: هل الحياة جميلة حقاً؟ عذبته ذاكرته وهي تستحضر أمامه صور رفاقه الذين سافروا للاختصاص في أميركا، ياللهوة الفظيعة بينه وبينهم، كالهوة بين جهنم والجنة التقى بأحدهم الصيف الماضي، كان محتاراً كيف سيستثمر أمواله، استشاره: يقولون لي اشتر مخازن وبيوتاً، وبعها بعد فترة مارأيك؟ رد بثقة زائفة وهو يخفي خيبته التي ارتشحت في ملامحه: معقول. كان صديقه المتأمرك يتكلم بقوة الدولار والراتب الضخم، وهو يتكلم بنحيب الإفلاس! صار يتهرب منه خاصة حين علم أن معاينة

الطبيب في اميركا لاتقل عن مئتي دولار، أما هنا، في مشفى الرخام فراتب الطبيب عن الشهر يعادل حوالي مئة دولار!!!

فيما بعد دفعته الغيرة من صديقه إلى تمنيات لم يكن يتوقعها، كأن يموت الصديق المحظوظ بسكتة قلبية أو يتعرض لحادث سيارة، كانت تلك الخيالات تخفف غيرته وآلامه الناجمة عن المقارنة بين وضعه ووضع صديقه، وحين سمع أن زوجة صديقه تعرّضت لحادث سيارة أدى إلى موت الجنين في بطنها، وبأن حالتها خطرة، أثلج صدره بسعادة نهمة... لكنه بعد أيام وجد دموعه تنسكب بحرقة على وجنتيه، دموع مباغتة لم يعرف لها سبباً، وحين غاص في داخله بحثاً عن الأسباب أتاه صوت واهٍ وحزين، بأنه حزين ومتألم كيف تشوهت روحه وصارت حاقدة وغيورة، وبأنه أساساً لايتمتع بهذه الصفات أبداً... قال وهو يمسح دموعه: إن الإفلاس المديد شوّه روحه وغرّبها عن ذاتها.

كان يعرف واعياً، أن حياته كانت لتنقلب رأساً على عقب لو سافر إلى أميركا، كل أصدقائه وفقوا هناك، صحيح أنهم اضطروا للعمل في البداية في محطات بنزين، وفي مطاعم ونواد ليلية ليؤمنوا معيشتهم، لكن أبواب المجد انفتحت لهم فيما بعد، رواتب خيالية، امتيازات هائلة، مؤتمرات علمية، والأهم من كل ذلك أنهم كانوا يتابعون العلم، ويقدمون فحوصاً دورية ليحافظوا على معلوماتهم ويطوروها... أما هنا حين يضطر الطبيب للهاث وراء العلف اليومي، فأي مستقبل طبي يطمح إليه الأطباء، والناس!؟. انتفض من مكانه هارباً من فوضى الأفكار والذكريات أين عساه يذهب، قرر أن يقصد مقهى الرصيف قرب المشفى، سيرشف الشاي ويحتال على الوقت، محاولاً اصطياده وتمريره بسرعة حتى تحين ساعة التوقيع ظهراً، ليعود إلى بيته مستمتعاً باللحظة الأكثر حيوية في نهاره، في حياته كلها، لحظة تناوله الغداء مع أمه.

تصادق مع صاحب المقهى، شاب لطيف، تهمه نظافة المحل، ويتمتع بذوق موسيقي عالٍ نما نوع من التواطؤ بينه وبين صاحب المقهى، لكأن الدكتور كريم يسلمه سره خفياً،

ـ إياك أن تفشي سري، بالهروب الدائم من المشفى والجلوس في مقهاك، الشاب فهم السر ووعد الطبيب أنه سيغطي هروبه لو اضطر الأمر وسألوه...

دخل المقهى، طلب شاياً، وجلس يتسلى بمراقبة الناس، كلهم يبدون منهمكين ابتسم بسخرية: بماذا أنتم منهمكون؟! لشد ماتبدو له الحياة عابرة خاصة حين يراقب الناس من زاويته نفسها في مقهى الرصيف... دخل المقهى شاب يبدو حديث النعمة ومستهتراً ومتعجرفاً، أصدرت خطواته قرقعة معدنية عالية، يبدو أنه غرس نصلاً معدنياً في كعب حذائه صرخ بسائقه: احضر الزجاجة من السيارة ياغبي...

كانت سيارة فارهة ذهبية اللون تنتظر على الرصيف. أسرع السائق يحضر زجاجة ويسكي من أفخم الأنواع، ويضعها على الطاولة أمام الشاب المتغطرس تساءل الدكتور كريم: أيشرب الويسكي من الصباح؟!

تقدم صاحب المقهى نحو الشاب وانحنى أمام النفوذ والسلطة التي يمثلها، قال بلهجة الطاعة: صباح الخير، صباح الورد، بماذا تأمر حضرتك؟!

أمره بنزق أن يملأ الطاولة حالاً بكل أنواع المقبلات.

توقف ماسح الأحذية الذي لايتجاوز الثامنة من عمره عند مدخل مقهى الرصيف نادى بصوتٍ واهن: بويا، بويا، أنزل الصندوق الثقيل عن ظهره، صرخ الشاب المتغطرس بالطفل، تعال ياولد... قرفص الصغير عند قدمي الشاب، الذي مدّ رجليه بالتتابع لماسح الأحذية، الذي أخذ يلّمع حذاءه بكل القوى الروحية التي يملكها، مدّ له الشاب خمسمئة ليرة قائلاً: خذ، هذه لك... صعق الطفل، لم يجسر أن يمد يده ليتسلمها، كيف يصدق أنهاله، وأن الشاب لن يسخر منه أو يصفعه لو حاول لمسها صرخ الشاب: هيا خذها. امتدت يد نحيلة صغيرة ملوثة بالأسود، ارتعشت وهي تلمس الورقة المالية، أمسكت الأصابع النحيلة بالورقة السحرية، انحنى الطفل ليقبل اليد الممدودة، لكن الشاب ضحك بصوتٍ صفيق، ثم صفق بيديه قائلاً: أين المازوات ياولد؟

هرول باتجاه صاحب المقهى قال: ستكون جاهزة خلال ثوانٍ لم يستطع ماسح الأحذية تقبيل اليد التي باغتته بمبلغ لم يحلم به أبداً، انحنى وقبل الحذاء الذي لمّعه... ضحك الشاب وقال له: هيا انصرف ياولد...

زأر الشاب بالنادل الوحيد: أحضر لي هاتفك اللاسلكي.

أسرع النادل يحضر الجهاز، ووضعه على الطاولة قرب وعاء الثلج وزجاجة الويسكي أمسك الشاب جهاز الهاتف بنزق ورسم اصبعه على عجل حركة في الهواء... علا صوته: اسمع مئة الألف ستكون جاهزة خلال نصف ساعة، هل فهمت؟ قل له نصف ساعة ودقيقة لن انتظر، لن يلوم إلا نفسه... مهلاً، قل له لن أقبل سوى بالدولار أفهمت ياحيوان. خبط جهاز الهاتف على الطاولة، هوى قلب صاحب المقهى، أسرع يمد يداً مرتجفة لينقذ الجهاز من البطش. رمق الشاب الدكتور كريم بفضول ساخر، انتشرت السموم في الجو، ماعاد الطبيب قادراً على الاحتمال، أين عساه يذهب، أين عساه يذهب، بدأ المطر ينهمر فجأة وبغزارة، على بعد خطوات مشفى الرخام يعجّ بالفوضى، لاشيء ينتظره فيها سوى موت مؤكد لمشاعر لاتزال تحارب الهزيمة، تساءل بقلق: ترى هل من الممكن أن أتحوّل لإنسان ميت المشاعر، وجد نفسه يحدث نفسه كصديقة قديمة: عجباً أيعقل أن تحتمل هذه الأيام دون مهدئات، أيُلام كونه أدمن على حبوب الانقاذ هذه؟! دخلت أمينة عيادة الدكتور كريم تحمل صينية القهوة، اعتادوا على طقوس شرب القهوة مرتين في اليوم، صباحاً قبل أن يذهب الدكتور إلى المشفى، وبعد الظهر، عندما يقصد العيادة، لاحظ الدكتور شحوب أمينة، امتدت يده تضغط جفنها السفلي إلى الأسفل ليفحص ملتحمة عينها مفتشاً عن شحوبها، تلامس جزؤ من باطن يده مع خدها، اضطربت أنفاسها، حين همّ برفع يده، فوجئ بأمينة تمسك راحته بكلتا يديها وتقربها من شفتيها طابعةً عليها أعظم قبلة عشقية عرفتها في حياتها، كان لمعان شديد يشع من بؤبؤ عينيها وحمرة داكنة تتوهج في وجنتيها، كانت شحمتا اذنيها قرمزيتين أحس بطراوة شفتيها، وبالرطوبة الدافئة التي تركتها على ظهر يده، انشده

لجرأتها، لدفئها وللأثر المزلزل الذي أحدثته هذه القبلة في روحه، خضته قشعريرة، وجد نفسه يجذبها بقوة باليد التي لاتزال محتضنة بين يديها، لم يدركا كيف قامت عن الكرسي وتكومت في حضنه، شب حريق مفاجئ في جلديهما، ماالذي يكويهما مذياً الحدود بينهما؟ أبعدها لحظة ليغلق باب العيادة، عاد لاهثاً ليعتصر قوامها الشبحي بين ذراعيه تحسست أصابعه عظامها وفقراتها، ووركيها، ياإلهي ماأشد نحولها، لكن كم هو مثير هذا النحول؟! وحين اعتصر رحيق شفتيها أحس أنه يعانق روحها تماماً، وليست شفاهاً من لحم ودم... أدهشه كم حرّكت فيه هذه الفتاة شهوات روحية ـ كما سماها ـ شعر أنها تطلقه من أسر المادة، وثقل البدن، لتغيب معه في فضاءات من الشفافية الساحرة، شعر بمتعة استسلامها بين يديه، شعر بدوار حين فك ضفيرتها واستنشق بعمق رائحة الصنوبر والأعشاب البرية في شعرها...

أخذت أناملها الرقيقة تتحسس بشرته وترسم ملامح وجهه كأنها تلامس أيقونة... أفهمته بطريقة غامضة ألايتوقف... أن يأخذها إلى جناته التي تحلم بدخولها منذ زمن طويل... همس بأذنها: أمينة، لاأريد أن أسبب لك الألم.. أو الندم. لم تجب سوى بفيض من القبلات التي زادت حرارة وعمقاً... لكنه رغم اندماجه السحري معها، ظل متيقظاً ومحذراً نفسه ألاينقاد حتى النهاية. وكأنها أحست بتحفظه وخشيته عليها، فهمست له: لاتخشى، أنا لست عذراء.

كانت تلك الكلمة، بالطريقة التي لفظتها بها، كافية لجعله ينسف بلحظة كل روادع العقل وتحذيراته، تحسس عريها الدافء، أحس بأصابعه تحترق وهي تكتشف النعومة المذهلة لثدييها وفخذيها، أخذت أنفاسها تزداد عمقاً وموسيقى لكأنها تبحر شيئاً فشيئاً في عالم الغيبوبة، كانت قبلاتها تحمل مخزون أشواقها له... وحين تهاوى فوقها ودموع الحنان تفيض من عينيه، فاجأته تسأله بخجل: ألازلت تحترمني؟!

شعر للحال كأن شيئاً بينهما قد فسد، ابتعد فاسحاً لها فرصة لملمة ذاتها المبعثرة، أخذت تضفر شعرها وهي ترمقه بعينين أشبه بنجمتين، كانت برعماً

أسمر قرمزياً يشع نوراً ودفئاً هكذا ظل يرآها، حتى انتهت من ترتيب سرير الفحص وفتحت باب العيادة بحذر... أشعل سيجارة ونفث دخانها بتلذذ قال لها: لولم تتلفظي بجملتك الأخيرة لكان كل ماحصل بيننا رائعاً أشبه بالأحلام؟

سألت بدلال: وماذا فعلت جملتي الأخيرة؟

قال: هبطت بنا إلى عفن الواقع.

ردت باسمة: عفن الواقع، جملة حلوة.

سألها: هل تعتقدين أن الشاب إذا مارس الجنس مع فتاة، فقد احترامه لها؟

ردت بقناعة: أجل؟ تلكأت، هكذا علمونا.

ـ من علمك هذا؟.

ـ أشارت بيديها راسمة دائرة قاصدة بها كل شيء، المحيط كله، قالت: القصص الأفلام، تحذيرات الأهل، الواقع بقصصه... آه، كل شيء...

سألها بلوم واضح: وأنا أتعتقدين أنني أنتمي لهؤلاء؟

لم تجب، كانت ترمقه بحب. أصر أن يسمع جوابها: أرجوك، قولي صراحة هل تعتقدين أن احترامي لك نقص بعد هذا اللقاء البديع.

أطرقت وهي تجيب: في الواقع لاأعرف.

قال: خسارة ياأمينة...

رفعت إليه عينين نديتين، قالت بصوت مرتعش: في الحقيقة... اختنقت الكلمات في حلقها، أخذت دموعها تنسكب بصمت، خيطين من ماء يلتمع فوق سمرة خديها.

ـ أمينة مابك... تكلمي

من خلال شهقات حادة، قالت: لأنني لست عذراء، كيف ستحترمني؟!

دفنت وجهها بين راحتيها وأخذ بكاء عنيف يخضها، كم كانت تتعذب في تلك اللحظات.

قال لها: عدنا لمسألة الاحترام؟! ماعلاقة احترام الإنسانة بعذريتها؟!

أتاه صوتها: آه، كيف لاعلاقة له، لكأنك لست من هذه الدنيا؟

ـ تقصدين لست من الشريحة المتعفنة التي تفكر بهذه الطريقة.

ـ لم يجب... استمر يقول: أنا أحتقر التحدث بهذه المواضيع، اتفهمين، ثم ماذا يعنيني إن كنت عذراء أم لا؟!

ـ قد تظن أنني صاحبة تجارب و...

ـ وماذا...

ـ سيئة السمعة...

أحس بغضب من ضعفها ودموعها، سحق سيجارته في المنفضة قائلاً: ارجوك كفى... أنت تفسدين كل شيء. أمرها أن تقوم تغسل وجهها وتعود إلى مكتبها... أذعنت لأمره وغابت تاركة إياه مذهولاً، هل يفرّ إلى الذكريات الطازجة الساحرة التي عاشاها منذ لحظات، أم عليه أن يحلّ لغز ندبها لعذريتها؟ لكنه أحس كم أنها مجروحة من كونها ليست عذراء ترى أي سر تخبئه تلك الفتاة البائسة الشبحية؟!!

* * *

تغيبت أمينة في اليوم التالي عن الدوام، افتقدها الدكتور كريم وحنّ لجلسة القهوة، كان متأكداً أنه سبب غيابها وبأنها مبللة بشعورها بالعار ولاتستطيع النظر في عينيه، تردد هل يزورها في البيت، أم أن زيارته قد تثير شكوك الأهل؟ عزم أمره أنها لو تغيبت يوماً آخر فسيختلق عذراً لزيارتها، تمنى

لوكانت علاقته جيدة مع جاره المخلص الجمركي ليسأله عن سبب تغيب أمينة... لكنه لم يستطع يوماً احترام هذا الجار شبه الأمي الذي يلعب بسهولة بالملايين، ويدعي الأمانة ويتبجح بالشرف، والحسنات التي يقوم بها!

لم تأت أمينة في اليوم التالي أيضاً، عصف به الغضب، فكر أنها بالتأكيد تريد أن تقلقه غايتها أن تحزر مكانتها لديه، أثاره غيابها حقاً، لكن فكرة طارئة خطرت بباله أرضته، هي أن يقصد محل الألبسة المستعملة الذي تعمل فيه أختها، وقبل ذهابه إلى مشفى الرخام، مرّ باختها، سألها عن أمينة فقالت بأنها مريضة: سألها: مم تشكو. قالت: لاأعرف أحياناً تشكو من وجع رأسها وأحياناً في بطنها. سألها: لماذا لم تقصدني.

قالت: قلنا لها مراراً، دعي الدكتور كريم يفحصك ويكتب لك دواء، لكنها لم ترض. ـ حسناً قولي لها أن تمر علي بعد الظهر، وإن لم تحضر سأزعل منها.

ـ حاضر يادكتور.

لم تتأخر أمينة عن تلبية رجائه، وجدها بانتظاره ماأن فتح باب المصعد قاصداً عيادته، رشقها بنظرة عتاب قاسية، سرعان ماندم عليها عندما لاحظ مدى الذبول والوهن اللذين يهدان جسدها النحيل... داعب جديلتها وهزها في الفراغ قائلاً:

ـ مابك تبدين كالأشباح...

رفعت إليه عينين جاهدت كي لايقرأ فيهما هزيمتها وانكسارها... باغتتها دموع حارقة أربكتها، حارت كيف تبرر هشاشتها الشديدة...

قال لها بصوتٍ تعمد أن يوحي بالثقة: أمينة أنا أحترمك جداً، وأقدّر مزاياك وسأقف إلى جانبك دوماً، احكي لي أرجوك ماالذي يضايقك.

لم تجب. استأنف كلامه: لاداعي للهروب مني، أنت ذكية وتعرفين كم أنت غالية وكم أحترمك وأعزك...

ضحكت ضحكة عصبية قصيرة، ابتسمت بحزن، فهم للحال أنها تعني لكنك لاتحبني.

قال: تكلمي، هل أزعجتك بشيء، هل ندمت على ماحصل بيننا...

هزت رأسها بالنفي قالت وهي تداعب أطراف جديلتها وكأنها تحدث نفسها: أندم، أنا لم أحلم يوماً بلقاء رجل مثلك أنت حلم... كررت جملتها مرتين، أنت حلم.

مدّ يده ليمسك يدها، شهق: ياه كم يدك باردة... ضحكت: لايهم.

ـ أمينة أرجوك اهتمي بنفسك، يجب أن تتغذي جيداً وأن يزداد وزنك بدت ساهية لاتسمع كلامه... عاد يسألها: ألن تبوحي لي بما يقلقك.

قالت بصوتٍ متشقق: كابوس.

ردد وراءها: كابوس... اتعنين ماحدث بيننا...

ـ أوه لا، حسناً لن أخفي عنك شيئاً سأقول.

رفعت إليه عينين مصممتين، كمن قرر قول الحقيقة حتى لوكان الإعدام بانتظاره. ثبتت نظرها على خشب المكتبة الداكن، ناشرة صور ذلك اليوم فوقها، خرجت الكلمات من حنجرتها مجرّحة مختنقة، قالت: ذات يوم طلب مني صاحب المصبغة أن أساعده في توضيب الطابق الأعلى من المصبغة، كان وقت الظهيرة، لم أنتبه أنه تدبر الأمر وصرف العمال، وبقيت وحيدة معه بعد أن أقفل الباب الخارجي، ترك محرك الغسالات يدور مصدراً ضجة عالية... سكتت، لم يخدش الصمت الجليل بينهما، استأنفت الكلام، فيما أصابعها تكاد تمزق أطراف جديلتها من حركات الشد المتوترة: المهم حشرني في زاوية و...

قال: اغتصبك.

ـ أجل.

هاهو الانكسار مجسداً أمامه في صورتها، كفت أصابعها عن الحركة، سقطت راحتاها في حضنها بوضعية الاستسلام، بدت متحللة من ثقل ذلك الكابوس بعد أن باحت به، لم تشأ أن ترفع عينيها لترى رد فعله، خافت أن تقرأ في العنيين اللتين لم تعشق سواهما، شفقة أو احتقاراً أو خيبة، بدت مهتمة بمتابعة نقوش تنورتها من اللونين الخمري والأسود، سألها بصوت حاول أن يكون حيادياً: وماذا فعلت؟

قالت ببرود: لاشيء.

ـ ألم يخطر لك أن تشكيه لأهلك. ـ قالت هددته، لكنه قال بأنني تجاوزت سن الرشد، ويستطيع أن يدعي بأنني أغويته وأنني كاذبة.

ـ وهل صدقته؟

ـ أجل، قال أيضاً أنه سيدعي أنني سرقت من المصبغة عشرة آلاف ليرة.

ـ يالسفالته.

ـ ةماذا فعلت إذاً؟

ـ تركت العمل عنده.

ـ هل أثرت بك هذه الحادثة كثيراً...

انتفضت واقفة، نظرت إليه بانكسار سألته: هل تصدقني إذا اعترفت لك؟ قال: بالتأكيد اصدقك.

قالت: بقيت أشهراً أفكر بالانتحار... أتعرف لماذا لم أقدم عليه، شفقة على إخوتي، لأنهم يحتاجون لراتبي.

قال لها وهو يحس كم أصبحت روحها لصيقة به... أمينة أنت رائعة، لكن، كفاك تعذيباً لنفسك، حاولي أن تنسي، أنا سأساعدك على النسيان.

شهقت: أنت! أنت أحييت ذكرياتي الأليمة،

ـ أنا، كيف؟! لايمحو الشيء سوى نقيضه، قالت روعتك وإنسانيتك ذكرتني بحقارة الرجل الدنس... الذي مزّق روحي، حرق أجمل غرفة في داخلي، غرفة الطهارة.

ـ أمينة، الطهارة ليست في الجسد، بل الروح.

ـ وأنا روحي تمزقت يادكتور، تمزقت بشكل لايمكن اصلاحها بعد.

ـ بل يمكن، أنا أساعدك.

تدفقت دموعها: لا، أرجوك، ماحدث بيننا لايجب أن يتكرر، هناك علاقات لايصح أن يتكرر فيها الوصال، لاتسألني لماذا؟ أنا نفسي لاأعرف بعد... لكن أين أنا منك، من علمك وثقافتك وشكلك وسويتك الاجتماعية و...

صرخ: كفى، هذا الكلام كله هراء... أنت فتاة ممتازة، دافئة ورقيقة وعذبة وذكية، وانا منشد إليك بكل طاقتي و... ـ قالت لكنك لاتحبني ولايمكن أن تحبني، ويستحيل أن ترتبط بي... أنا أعرف إياك أن تظن أنني متألمة، هذه هي الحقيقة وأنا أحب أن أواجهها... لكن... ارتبكت.. لكن رغم حبي الشديد لك لاأرض.

اختنق صوتها، كم كانت تتعذب، من يجعلنا نبكي بتلك الحرقة، ونبدو مسهدين مرضى وبائسين هكذا سواه، سواه وحده.. الحب..

غادرت العيادة، ماكان يعرف أنها غادرت حياته أيضاً، اختفت، قرر أن يمهلها فترة لترتاح، لتهدأ روحها التي عاد الكابوس يفترسها ويعذبها بصوره لكن غيابها طال، اسبوعاً، ثم اسبوعاً آخر، ماعاد يملك صبراً... قصد المحل الذي تعمل به اختها سأل عنها... ردت بابتسامة سخرية مبطنة:

ـ ألم تعرف لقد سافرت إلى الكويت.

أحس بطعنة مباغتة في قلبه...

ـ ماذا، سافرت إلى الكويت، متى؟ مع من؟! لماذا؟.

ـ ذهبت تعمل خادمة لدى أسرة كانت والدتي تعمل لديهم.

غصّ ـ تمتمت شفتاه خادمة، أمينة تعمل خادمة، لكن أي صوت لم يخرج من حنجرته!!

* * *

فلسفة التسكع

خربش توقيعه علامة وجوده الوحيد في مشفى الرخام، أين عساه يذهب؟ لاشيء ينتظره على الإطلاق في هذا المشفى... بدا له العمل نبياً منبوذاً ماعاد أحد يصدق نبوته.. كان يدس في جيب معطفه رواية «الجميلات النائمات» لكاواباتا، قصد قسم الأمراض السارية الذي دسّت المكتبة فيه، غرفة النفايات كما يحلو له تسميتها، كان الباب مقفلاً، قرعه مرتين، فتحت الموظفة الباب، كانت غارقة في النوم ـ وقد احمر خدها وانطبعت عليه نقوش الأريكة أسرعت تضع نظارتها وتمسد شعرها، تأمّل إطار نظارتها المعدني الصدئ، وقد تقشّر طلاؤه، تراها لاتملك المال لتجديد إطار النظارة؟ كان كتاب القديس فرنسيس لكزانتزاكي فارداً جناحيه عند منتصفه تماماً، عساه يساعد الموظفة المسكينة في تحمّل ست ساعات من التحنيط في هذه الغرفة، جلس على الكرسي الوحيد وأخرج زوادته رواية «الجميلات النائمات» لتساعده على قتل الوقت، طلب ببساطة من الموظفة أن تعاود النوم لو أحبت... مشعراً إياها أن هذا هو الطبيعي كما يراه؟! طاف بذهنه خاطر ظريف ماذا لو خصصوا أسرّة للنوم لمن ليس له عمل؟! تخيل أن أكثر من ثلثي الأطباء سيغطون في النوم، وسيتم إيقاظهم عند نهاية الدوام.. لم يكن ذهنه صافياً للقراءة رغم جاذبية الرواية، يبدو أنه لايريد أن يضيع دقيقة واحدة لتعذيب نفسه، فكر أن أيامه تمر يوماً بعد يوم بلا معنى ولافائدة، يراكم أياماً، انتظاراً لامعنى له لتعاقب الساعات. سأل الموظفة: متى ستنتقلين من هذه الغرفة؟ قالت: والله لأعرف،

حين نقلوا المكتبة إلى قسم الأمراض السارية، قالوا لي لن تبقي هنا أكثر من شهرين، والآن صار لي سنتان ونصف هنا!.

عدّلت من جلستها ووضعت في حضنها كتاب القديس فرانسيس إلى يمينها جهاز راديو صغير، تأملها برقة كيف تزين معصمها بسوار رقيق من الذهب، وتجلس محنية تقرأ... نظر في ساعته، لاتزال الحادية عشرة إلا ربعاً لايزال أمامه ساعتان من التحنيط، قلّب الاحتمالات الممكنة بذهنه لسحق الزمن يمكنه أن يقصد غرفة السكرتيرة ويجلس على أحد المقاعد مراقباً مهرجان الفوضى لكل شخص قضية أو مشكلة، الكلمة الأدق، وجع، تذكر المشادة التي حصلت منذ أيام بين ابن مريضة في المشفى والسكرتيرة، كان الشاب مهتاجاً ويصرخ وهو يهّز ورقة بيده

ـ والله عال، صار سعر كيس الدم ٨٠٠ ليرة، هذا كفر، أمي تحتاج لأربعة أكياس من أين سنحضر المال؟! ترد السكرتيرة ببرود: والله ياأخي، أنا لاعلاقة لي بالموضوع ويقاطعها وقد اشتعل غضبه أكثر ببرودها: كل واحد بقول أنا لاعلاقة لي بالموضوع، بالله عليك من له علاقة، قولي لي من له علاقة؟!

تتنهد السكرتيرة وتنظر للناس حولها مستنجدة: تصورا ياناس كل يوم نفس الأحاديث...

يتدخل الدكتور كريم ليس من باب الفضول، بل لأنه يريد تفجير كل الدراما المحتسبة في المشهد

ـ خير ياأخي ماالمشكلة؟!

يريحه سؤاله كأنه يفقأ له دملاً متوتراً: تصورّ ياأخي، صار الدم بالمال، مايجعل عقلك ينفجر، أنني رأيتهم بأم عيني يتلفون خمسين كيس دم في بنك الدم... لماذا يتلفون أكياس الدم، ويبيعونا إياه في آن؟! أليست هذه مهزلة المهازل... ثم ـ اختنق صوته كأنه يتشظى ـ أمي مصابة بنزف معوي، تتقيأ الدم

كأن صنبوراً مفتوحاً في بطنها،.. يقولون لي أذهب اشتر لها أكياس الدم... وأنا أنا، يضرب صدره بكلتا يديه بلا رحمة، أنا خرا...

يغوص قلب الدكتور كريم في بحر من الألم الأسود، يصطدم بقلب الشاب في عمق اللجة السوداء، تحاول القلوب تعزية بعضها، يتبادلاً نظرة مشلولة (الطبيب المهزوم، والشاب المهزوم) يأخذ الشاب الورقة الممدودة له من السكرتيرة يمزقها وينصرف بخطا واسعه وهو يشتم... يغمض كريم عينه لدقائق، يتخيل جثة الأم النازفة، يدعو لها بالراحة في مثواها الأخير... يغيب في أحلام يقظة لايصحو منها إلا عند الضرورة، تدور كلها حول حلم وحيد، كيف عساه يفرّ من هذا المشفى إلى الأبد؟ كيف سيجد وسيلة للعيش خارجه؟ ليته يتمكن من تحويل العيادة لدكان لبيع الفلافل...

ينطلق صوت مطرب صاعد من الراديو الصغير بجوار موظفة المكتبة، مطرب ينهق ويجني الملايين، يلتصق الصوت الناشذ واللحن السوقي بالوقت، ياإله السموات أين عساني أفرّ.؟. كانت الشمس صاخبة تغريه بالفرار، ترسل إليه دفأها من خلال الشبك المعدني المهترئ والمتمزق للنافذة، يدس الرواية في جيبه ساقته قدماه إلى مكتب مخلص جمركي كان صديقاً لوالده عندما كان فقيراً، فليزوره ليسحق عنده ساعة من الزمن حتى يحين موعد التوقيع ظهراً...

* * *

«كان فقيراً معدماً، ثم عمل أعمالاً حرة، صار بعدها، خلال سنوات قليلة يلعب بالملايين!!!

هذا مايقوله الناس ببساطة، كلمة أعمال حرة تتسع لمئات الملايين وتستوعب في بطنها كل أنواع السرقات. محظوظ من تسمح له ظروفه بممارسة الأعمال الحرة، لكن كيف؟ من سيغطي من؟ وكيف تكون البداية؟ وما هو طريق الثروة؟ سمير كان مجرّد مدرس ابتدائي، لايزال الدكتور كريم يذكر بيته البسيط المكون من غرفتين، يوم زاره منذ سنوات مع والده ليباركا له

بانتقاله من التدريس في القرية إلى المدينة... كم فرح بالزيارة، وكرر مراراً شرفتنا ياابو كريم أنت والدكتور، يومها كان كريم في سنته الرابعة في كلية الطب... كرّت السنوات كل غارق في متاهات الحياة في طموحات صغيرة أو كبيرة، تتيسّر أو تتعسر، إلى أن فوجئ الدكتور ذات يوم وهو راكب قدميه قاصداً مشفى الرخام، برجل يناديه من سيارة رائعة، يوقفها بجواره ويبادره بالتحية: مرحباً دكتور كريم، ألم تتذكرني.؟.

تأمل كريم الوجه، إنه يعرف هذه الملامح جيداً، وقبل أن تنجده ذاكرته صرخ الرجل:

ـ أنا سمير، سمير، رحم الله والدك كم كان شريفاً وعصامياً.

بهت كريم، أنت سمير، أهلاً، أهلاً... الملامح ذاتها، لكن الغنى أضفى عليها سحنة اللامبالاة والضجر، وعدم الابتهاج... سأله سمير: إلى أين أنت ذاهب؟

رد كريم: إلى مشفى الرخام.

ـ أتعمل فيه؟

ـ أجل.

ـ عظيم، أنت جاري إذاً، تعال شرفني بزيارة، أنا مكتبي في الطابق الثاني من العمارة قبل المشفى تماماً...

ـ مكتب، أتركت التدريس؟!

ضج سمير بالضحك، التدريس، تقصد طلقته، أهذا سؤال! كيف عساني أركب هذه السيارة لو بقيت مدرساً... غصّ كريم، تذكر والده في كفاحه المستميت، في سبيل أن يصير ابنه طبيباً، غادر الحياة وجسده مهدود بالشقاء... سأله: ماذا تعمل؟

ـ مخلصاً جمركياً...

حين زاره للمرة الأولى في مكتبه، صعقه الترف المتحدي، الأقلام الفخمة، القداحات الأنيقة المطعمة بالذهب، تحف صغيرة من الكريستال تزين المكتب» أربعة أجهزة هاتف، ورود طازجة منداة في فاز من الكريستال، زواره الذين يبدون من كوكب آخر، رجال يلبسون قمصان من الحرير البديع، وأحذية من الجلد اللماع، بنعلٍ نظيف تماماً، لكأنهم يطيرون بأجنحة خفية، ولاتطأ أقدامهم الأرض، مسابح من الذهب والأحجار الكريمة الملونة، يضعون رجلاً فوق رجل، يتبادلون المجاملات والدعوات على غداء أو عشاء في أفخم المطاعم، يتكلمون عن بضائع تساوي الملايين، ويغمزون بأرباح تفوق الملايين! سيارات وفيلات، ورحلات حول العالم... لايمكن لكريم أن ينسى تلك الجملة التي قالها أحد الرجال وهو يضحك: حين يصل حسابك في الخارج إلى مليون دولار، فلاتهتم لشيء، هذه نصيحتي لكم.

أين أنا من هؤلاء؟ من هؤلاء الرجال؟ كيف جمعوا تلك الثروات؟ مامعنى مليون دولار؟ ماهذه الأعمال الحرة التي يجني الإنسان من ورائها كل هذه الرباح؟ أسئلة كثيرة تكاثرت في ذهن الدكتور كريم، وهوجالس وسط هؤلاء اللصوص، يحس أن شهادته مجرد ورقة، ورقة لاتصرف في أي بنك من بنوك العالم... أي قهر فظيع تلّبسه... انفضّ الرجال... نادى سمير سكرتيرته الساحرة الجمال، سألت بلطف: ماذا أحضر لكم، شاي، قهوة، عصير برتقال...

قال سمير: بماذا ترغب يادكتور؟

رد بآلية: قهوة

قالت بصوت عذب: حاضر...

تبخرّت كل الأسئلة من مخ الطبيب، ماذا عساه يسأل، هل يقول له كيف جمعت هذه الثروة؟! لكن الأخير لم ينتظره أن يسأل، وفرّ عليه صياغة السؤال، اشعل سيجاراً نفث الدخان وابتدأ الحديث: الحمد لله يادكتور فهمت

اللعبة، كي تعيش ببحبوحة يجب أن تطعم التسعة من أصل العشرة، يبقى لك واحد نعمة كريم؟ ضحك، كل واحد له سعر، الآن في الجمارك يوجد أبو الخمسمئة، وأبو الألف، وأبو العشرة آلاف، وأبو مئات الألوف، هكذا...

تابع كريم الدخان الكثيف الأزرق للسيكار وتساءل ماهذه اللغة؟! كم هي غريبة عن عالمه... أغاظته تلك الطمأنينة الراسخة التي يعيشها هؤلاء اللصوص عاد إلى المشفى بعد أن رشف شرابه الأسود وهو يشعر أنه يهبط من كوكب إلى كوكب آخر... بعد هذه الزيارة ظل ألم يعوي داخله لأيام، احتار كيف يهدئه، أقسم ألايعود لزيارة سمير... لكن بطالته اليومية هزمته، تكررت الزيارات، مجددة القهر والألم في روحه كل مرة، ليعترف أن السكرتيرة الفاتنة أسرته بجمالها وجرته بشكل خفي ليكرر زياراته...

ذات يوم رآها منكبة على قراءة شكسبير بالانكليزية، عرف أنها خريجة قسم الأدب الأنكليزي في الجامعة، وبأنها انتظرت ست سنوات دون الحصول على وظيفة! وكل الفرص التي أتيحت لها كانت بالعمل مدّرسة في قرى بعيدة، ودون أن تكون مثبتة في هذه الحال سيتبخر الراتب ثمن مواصلات، كما قالت للطبيب... لأشهر ظل كريم يراها ببنطال الجينز ذاته مع قمصان قطنية بسيطة ملونة، كانت صفحة وجهها النقية الوردية تفتنه، بعينيها اللوزيتين بلون الكستناء، وشعرها الناعم الأسود المسترسل على ظهرها، وثغرها المكتنز قليلاً بلون التوت، والذي يفتر عن صفين بديعين من الأسنان الناصعة... سمّاها في سره آلهة الجمال.. بعد أشهر من عملها عند المخلص الجمركي، حوّلت شعرها إلى اللون الأصفر الفاقع، وغطت المساحيق وجهها الحريري، واختنق عنقها بعقود الذهب، وانحشرت أصابعها في خواتم الذهب والماس، وماعادت تنتظر الباص أبداً، بل صارت تنتقل في سيارة المخلص الجمركي، بصحبته أومع سائقه، تجلس في المقعد الخلفي كأميرة... تضاعف حقده على المخلص الجمركي وصارعه بخياله وسيلته الوحيدة للتنفيس ولممارسة الحياة أيضاً: أنت

شوهتها حوّلها لعشيقة؟ يضحك المخلص الجمركي: بل أنا حققت أحلامها، إنها سعيدة، سعيدة.

ـ سعيدة، كانت بريئة طاهرة، جعلتها بأموالك الحرام عشيقة.

ـ عشيقة، لوتعرف، كم هي محط حسد صديقاتها! ثم إنها راشدة وتعرف مصلحتها، ماذا قدّمت لها الشهادة يادكتور سوى الفقر والذل؟! يكف خياله عن ابتداع الصور، يرحمه من حرق أعصابه اللامجدي.

انقطعت السكرتيرة الفاتنة عن العمل لأشهر بسبب زواجها من موظف مغمور، لكنها عادت للعمل عند عشيقها رب العمل، صار كريم يلمحها مع الزوج والعشيق، يتأمل هذا الثلاثي بسخرية أليمة، يتساءل: أترى اللعبة مكشوفة تماماً بينهم.. أم أن كل واحد منهم يفضل التمثيل والاختباء وراء قناع الشرف!! لكن صورة الفتاة وهي تقرأ شكسبير بوجهها البديع قبل أن تلوثه المساحيق وبنطال الجينز البسيط الذي يرسم انسياب جسدها وطراوته، وشعرها الكستنائي الطويل ظلت تخز قلب كريم بإبر موجعة، كانت رائحة جريمة غامضة تفوح حول هذا الوجه البديع، الذي عهرّه الواقع.

* * *

هذا الصباح، قرر كريم نسف القشرة المتآكلة والهشة للإطار الاجتماعي، لمهنته تحديداً، انتصر على الاعتبارات الواهية التي ظلت تكبله لسنوات، قرر مكاشفة سمير برغبته ببيع العيادة واستثمار ثمنها في أي شيء، سيطلب مشورته، وسيذكره بشكل صريح أو مبطن ـ لافرق ـ بالصداقة القديمة بيته وبين والده، وبفضل والده في نقله من القرية إلى المدينة حين كان مدرساً. تنشط خياله، وصور له أن سمير سيتحمس للفكرة وسيبيع له العيادة بفترة قصيرة، وسيعلمه لعبة التسلق إلى الملايين، ياسلام، أي سحرٍ هو الخيال، الإنسان هو الكائن الحي القادر على الخيال... لكن أليس الواقع وليد الخيال؟ ألم تكن كل المنجزات خيالات!! سمير نفسه ألم يكن فقيراً ومغموراً حلم بالثراء وسعى وراء

حلمه حتى تحقق، ماالذي يمنعه هو من السعي، آه كم تأخرا! كم صبر على مهنة الذل هذه؟ لكن أكان يستطيع التنبؤ أنه سيعيش عصر انحطاط الطب، وتردي الوضع المهني بهذه الطريقة... هنأ نفسه على جرأته في اتخاذ القرار أخيراً، ولام نفسه كيف قرر مراراً أن يقطع علاقته بسمير حدّث نفسه بلهجة الواعظ: أشخاص أمثال سمير يلزمونك ياكريم في هذا الزمن، فابق على صلة معهم، إنهم يخلصونك من مئة ورطة وورطة محتملة كل يوم! تذكر منذ عامين ذكرى بغيضة على قلبه، يومها طلب من أحد المرضى بخشيشاً لقاء إجراء عمل جراحي له، التأم الرجل، فقدّم به شكوى لإدارة المشفى، استدعوه للتحقيق فثار وجن، ولعن وشتم الطب وساعته، الفقر واضطراره لطلب أتاوة من المرضى، هدّه الذعر لأيام من تخيل نتائج التحقيق، اسعفته ذاكرته بسمير، لجأ إليه، حكى له المشكلة، طمأنه سمير، بسيطة بسيطة، رفع سماعة أحد هواتفه الأربعة واتصل بشخص، ضحك معه أكثر مما حدثه، حكى له نكتتين فاضحتين على الهاتف، وأخيراً أوصاه بالطبيب المسكين.

حلّت المشكلة تماماً... طوي التحقيق، والرجل الغامض اتصل بالإدارة التي غضّت نظرها عن الشكوى، أرأيت ياكريم كيف أن أشخاصاً أمثال سمير لازمون في الحياة؟!

هوت أحلامه حين أخبرته السكرتيرة أن سمير مسافر، متى سيعود، سألها وهو يحس لسانه ملتصق بسقف حلقه من الجفاف، قالت: بعد يومين أو ثلاثة، إنه مشغول بتسليم بضاعة هامة... دعته لشرب فنجان قهوة، لكنه اعتذر وغادر المكتب وهو يحس أن كل درجة يهبطها تقربه من قاع اليأس أميالاً... أين سيذهب؟! لن يرجع إلى مستشفى اللعنة، ولن يتحنط كالعادة في مقهى الرصيف، ولاشيء ينتظره في عيادته سوى الغبار المتراكم فوق الأثاث الميت من صقيع الوحدة، مثله، تماماً...

تأمل هذا الشعور الرمادي الذي ينمو شيئاً فشيئاً في صدره من الصباح وحتى المساء حتى يشوش حواسه كلها، سأم وانهزام وانكسار، هذه حالته حين

يذهب كل يوم إلى المشفى، سيمر رغماً عنه في الطريق ذاته، تتساقط أمام قدميه أحلامه، كما تتساقط أوراق الأشجار اليابسة، يدوس أحلامه في طريقه إلى المشفى، يسمع أنينها، يحس صدره مملوءاً بالدخان، دخان رمادي كثيف، كذلك الذي ينفثه سمير من سيكاره، أحياناً يتحول الدخان لضباب كثيف جداً، يطلق زفرات طويلة من فمه فيخرج ضباب الاختناق من صدره على دفعات، يساعده التنهد العميق في التحرر شيئاً فشيئاً من كثافة اختناقه... يتخيل دخوله من الباب الحديدي حيث تطالعه عينا خياله، أو عيناه الحقيقيتان ـ ماعدا هناك من فرق ـ بمهرجان الفوضى والبؤس والكآبة، صار يعي كيف يلتبس الخيال بالواقع، كيف لم يعد من فرق على الإطلاق بين رؤيته كل يوم لمظاهر الأذى والبؤس في المشفى وبين مخزون خياله الذي ينفلت من رأسه كيفما تحرّك خارج المشفى، لكأن ذاكرته مثقوبة، تتساقط منها الصور كلما اهتز رأسه... جسد البطالة رخو، متعب دوماً، يوقظه من شروده أحد زملائه الفار من المشفى، يبادله التحية، يحس أنه وزميله دميتان، أجل مجرّد دمى، ليسا آدميين أبداً... لايشعر أنه حي ولاميت، تستوقفه طفلة صغيرة، قدّر أنها في الخامسة من عمرها، تلبس مريلة مدرسة زهرية اللون، وتزين شعرها القصير بشريطة صفراء، ماأحلى صفاء عينيها، وأنفها الصغير المحمر من البرد، تحمل على ظهرها حقيبة المدرسة، يتوقف ليراقب مشيتها، خطواتها صغيرة سريعة، يشعر أن قلبه يغوص، يتساءل: متى ستعاني هذه الصغيرة من انهيار المقدسات، خاصة العمل؟ متى سترجع إلى البيت وقد خبا اللمعان في عينيها الرائعتين؟ لمن ستشكو همومها عن البطالة وشح الراتب؟! هل ستبكي على السنوات التي ضيعتها في الدراسة وفي الحصول على شهادات؟! هل يعقل أن تبيع نفسها ذات يوم لرجل غني؟! توقفت الصغيرة تراقب بعينيها اللامعتين، إشارة المرور لتهم بقطع الشارع، يشعر أنها تسحب شعلة حب من قلبه.. يتمنى لو يضمها ويتشمم شعرها، ويتحسس خدودها الطرية. يهم بالنظر إلى ساعته ليطمئن على هروب الزمن، لكنه يؤجل تلك الرغبة كي لايحس بمزيد من الخيبة كون الوقت

لم يسرع... لكن قلبه أخذ يخفق ببهجة خفيفة يعزيه أن وقت الغداء اقترب، الطعام هو البهجة الوحيدة في يوميه، هو الرفاهية الحقيقية التي يسمح له بها مشفى الرخام وعيادة التحنيط الأبدية!!!

حفّت بخياله صور أطفال ينكشون في القمامة ليأكلوا، صور مرضى السرطانات، والمشوهين في حوادث السيارات، صور بشر متخلفين عقلياً، ساعده هذا الجمهور الخيالي من الصور في امتصاص نقمته، وأخيراً اصطفى بإرادته صور زملائه في العمل الذين يماثلونه في الكآبة واليأس، آه من له سوى خياله يخفف وطأة الأيام عليه؟!

* * *

صباح اليوم التالي كان مقرراً أن يجري الدكتور كريم عملية دوالي حبل منوي، لشاب يعمل موظفاً في البلدية، أجلّت العملية للمرة الثالثة أيضاً... في المرة الأولى أجلّت بحجة عدم توفر خيوط جراحية، وفي المرة الثانية لرفض طبيب التخدير تخديره، لرفضه تحمل مسؤولية تخدير أربعة مرضى في آن واحد... احتد النقاش بينه وبين الدكتور كريم الذي قال: كنتم تخدرون فيما مضى أربعة مرضى.. قاطعه: كنا، أما بعد أن تورط زميلنا بمشكلة، وأنت تعرفها، وحضر التفتيش ليحقق في وفاة المريض، وزّج المخدر المسكين في السجن.. من أحسّ به وقتها؟ من ساعده؟ قال: آه، هذا موضوع آخر، الآن الشاب ينتظر منذ أسابيع دوره في العمل الجراحي، وقد عطلّ عمله واستعد نفسياً وجسدياً للعملية، واليوم دوري في العمليات، وأنت ترفض أن تخدره... احتد طبيب التخدير وقال بلهجة وعيد: أرفض، أرفض، أرجوك أن تبلغ رفضي للمدير، قل لمدير المشفى أن يوظف العديد من أطباء التخدير... فنحن أقلية قليلة جداً...

- لكني لن أحوّل الموضوع لشكوى، أرجوك، قدّر ظرف الشاب.

- بل أنا أريد أن أحوّله لشكوى... أريد أن يشتكي كل جراح لمدير المشفى بأننا لانخدّر المرضى.

لم يعد كريم قادراً على السيطرة على غضبه بعد اللهجة الاستفزازية لطبيب التخدير قال بحنق ظاهر: أنت مصمم من البداية الأ تخدّر هذا الشاب.

رد الأخير بلامبالاة سعيدة وكأنه وصل لغايته: أفهم كما تشاء.

هذا الصباح أجلّت العملية لعدم توفر قفازات جراحية!!

كان الشاب قد زرق ابرة مهدئة استعداداً للعملية، لم يكن يتجاوز الثلاثين من عمره وجهه مكفهر أبداً، لكأنه خارج من مشكلة عاطفية، تشعر بأنفاس الغضب المكتوم في صدره... طلبت الممرضة من الشاب أن يذهب ليشتري قفازات جراحية... صرخ: أأنا سأشتريها، بدل أن أدخل غرفة العمليات الآن، تطلبني مني أن أجوب الشوارع لأشتري قفازات جراحية... وإبرة السم المهدئة التي زرقتني بها هذا الصباح، ألاتؤثر بهذا الجسد، ـ خبط يديه على صدره ساخطاً ـ لودهستني سيارة سترتاحين حضرتك أليس كذلك، لو سقطت وأنا أعبر الشارع و...

صرخت الممرضة، كفى، كفى، إذا كنت غاضباً من الجراحين لتأجيل عمليتك ثلاث مرات، فلست أنا ساحة لتفريغ غضبك، أفهمت، أنا لدي أسباب تدفعني للغضب أكثر منك بأضعاف مضاعفة...

ـ لكنك طلبت مني شراء قفازات جراحية!! من أين؟! هل سأهرول لشرائها ثم أعود كاكلب إلى غرفة العمليات... تابع كريم فوران الغضب بين المريض والممرضة، تأمل الشاب النحيل بالثياب المغبرّة ذاتها، التي كان سيدخل بها إلى غرفة العمليات، كل المرضى يدخلون بكامل ثيابهم إلى غرفة العمليات... حدث نفسه بسخرية: يالروعة التعقيم!! استقر نظره أخيراً عند الحذاء المهترئ للمريض، قال: ياللبؤس

فجأة انتفض المريض كأنه تنبه لوجود الطبيب فجأة، وقف أمام الدكتور كريم وقال بغضب: أأنا دمية هنا يادكتور، ثلاث مرّات تؤجل عمليتي، أيرضيك

ذلك؟ قال كريم محاولاً امتصاص غضبه: ياأخي، أنت ترى بعينك، أنا مامسؤوليتي، ألم تسمع بنفسك الحوار الذي دار بيني وبين طبيب التخدير المرة الماضية. والآن عدة عمليات توقفت لعدم توفر قفازات جراحية..

قاطعه المريض مشتعلاً بالغضب: وأنا ماذنبي، ماذنبي.

قال كريم: وأنا مامسؤوليتي... هكذا الظروف...

يبدو أنه كان يبحث عن هذه الكلمة، ذلك الشاب البائس، التقطها كغنيمة قائلاً: آه، الظروف، الله يلعن هذه الظروف، اللعنة على الفقر اللعنة على الساعة التي قصدت بها هذا المشفى، واحد مثلي خير له أن يموت بعلته ولا يقصدكم، صحيح كل شيء بالمال... بسيطة لوكنت أملك مالاً لدخلت أي مشفى خاص وأجروا لي العملية...

تدخل كريم: كفى ـ هذا الكلام لايفيد... ثم لست أنا المسؤول...

سأل المريض: من المسؤول إذاً؟

قال كريم: يمكنك أن تشرح المشكلة من أولها إلى آخرها لمدير المشفى.

ـ حسناً، سأقصده حالاً...

بعد دقائق كان النداء يطلب الدكتور كريم لمقابلة مدير المشفى... قبل أن يدخل غرفة المدير، رأى الشاب البائس ينتظر عند الباب، يبدو أنه لم يتمكن من مقابلة المدير، كان يرمق الباب بحنق ثم ينقل أنظاره إلى السكرتيرة الحسناء التي منعته بلباقة من الدخول إلى غرفة المدير، قائلة له بتهذيبها الملفت: يجب أن يسمع القصة من الجراح أولاً...

عرض كريم قصة العملية للمدير، ولفت نظره بأن ظروف العمل ماعادت محتملة، كل يوم مشكلة، العمليات تؤجل مراراً.. فوضى و... لم يكن المدير راغباً بسماع أي تعليق: قال: يادكتور، اصرفه بطريقة ما. ردد كريم مبهوتاً: أصرفه بطريقة ما؟ كيف!

ـ قل له أي عذر، مثلاً، لاتجرى هذه العملية هنا، حوّله إلى العاصمة، أو احتمال نجاح هذه العملية ضعيف، أو أنها خطرة، أي كلام.

سأل كريم باستخفاف: أهذا رأيك حقاً...

ـ طبعاً، أنا لاأريد كل لحظة أن أقابل مشكلة...

ـ لكنه مريض، وليس مشكلة...

يبدو أن المدير لم يفهم السخرية المبطنة في كلام كريم قال: المهم لن أقابله، تصرف أنت...

خرج كريم من غرفة المدير، ألتقت عيناه بعيني الشاب المشتعلتين بالقهر المنتظرتين... تبادلا نظرة طويلة منذرة وملتبسة حاول كريم جهده نقل شحنات الود والتعاطف من خلال نظرته للشاب، قال له: للأسف كانت تلك الكلمة بالطريقة التي لفظها بها الدكتور كريم كافية لأن يستدير الشاب دون أن يتفوه بأية كلمة، ليسير بخطوات واسعة مديراً ظهره لمشفى الرخام.

علقت السكرتيرة: الحمد لله لم ينفجر بالسباب، منذ لحظات كان هنا مريض أيضاً أجلت عمليته، يا إلهي لو رأيت رد فعله يادكتور كريم، كان سيهجم عنوه إلى غرفة المدير، وانهال علينا بشتائم فظيعة، حتى اضطررت أن أطلب الشرطة. يتابع الدكتور كريم بنظره الشاب المبتعد، يبدو له كائناً وهمياً باهتاً ومهترئاً كم نحن مساكين... يخرج بدوره من مشفى الرخام، يقصد مقهى الرصيف المعتاد، اليوم زوادته ليحارب فراغ البطالة كتاب «أعراس» لألبيركامو، يطلب فنجان قهوة يجلس ليقرأ، يمر بائع الفول المسلوق قرب المقهى، يجر عربته الخشبية، وبخار كثيف يتصاعد من الدورق، يتحلب الطعم اللذيذ الساخن، ينادي البائع، يعطيه عشر ليرات، يملأ بها صحناً ورقياً. يرشه بأنواع عديدة من البهارات... البائع شاب صغير، قدّر عمره بخمسة عشر عاماً، يسأله: ألست في المدرسة، يرد بحركة نفي من رأسه، أن لا.

يأكل الفول الحار بتلذذ، تتكاثر عربات الفول بشكل ملحوظ هذه الأيام،

يتذكر القصص والمسلسلات المصرية، حيث الفول عصب أساسي في حياة الشعب... تلفحه موجة من الوهن الشديد، يعرف أنه، وهن البطالة، يغمض أجفانه، صورة المريض مديراً له ظهره، يسير ويسير تلاحقه، بكنزته العتيقة، حذائه المهترئ، ويداه الكبيرتان بجلدهما السميك المتشقق، يشعر أن لانهاية لمسيره، يفتح عينيه عمداً كي يوقف صورة المريض... تساءل ترى أين عساه يذهب؟ على الأغلب سيصطاده أحد الأطباء، سيضطر المسكين للاستدانة ليجري العملية في مشفى خاص أو سيتجاهل مرضه وقد يصاب بالعقم مع السنوات... آه بداية صداع يتفجر قوياً في رأسه، يفكر أن يقصد صيدلية المشفى ليأخذ حبوباً مسكنة للآلم، لكنه سرعان مايتذكر أنها فارغة منذ زمن طويل من كل الأدوية تقريباً!!!

يجوب خياله شوارع المدينة، يتوقف عند السينما التي كان لها أمجاد فيما مضى فيلم الفهد الذي عمره أكثر من ربع قرن يعرض للمرة العاشرة ربما طوال هذه السنوات ويستمر عرضه أكثر من ثلاثة أسابيع كل مرة!! السينما ماتت بدورها، بدت له تلك الصور البعيدة البعيدة التي لاتزال تحتفظ بها ذاكرته عن أيام نادي السينما والمناقشات الرائعة التي يتبادلها الجمهور مع الشباب المتنورين الذين يديرون النقاش... غير واقعية، هل يتشكك بحصول هذه النقاشات الغنية يوماً!! نسى الناس السينما التي تحوّلت لصالات فارغه مهترئة بالقدم والغبار وإذا صدف وحصلت معجزة وعرضتت بعض الأفلام الجيدة، فالحضور يعد على أصابع اليد الواحدة. يقفز به خياله من مأساة صالات السينما إلى مقاهي البحر ـ التي كانت ـ شامخة، فاتنة، عاشقة، مسترخية بدلال على طوال شريط الكورنيش، كلها هدمت، وسّع المرفأ، وبلط البحر، ابتسم بكل المرارة المتشبعة بروحه وقال: جميل الفعل المبني للمجهول، تنبه أن كل جمله تبدأ بهذا الفعل؟! ماأجمل أن يعلّق كل عمل بالمجهول؟! يستمر خياله في رحلته في شوارع المدينة، يتوقف عند حاويات القمامة التي تطوف بمحتوياتها، الأطفال والكبار أيضاً ينبشون في هضابها... كم هو محاصر؟! أين عساه يفرّ،

وحدود يومه مشفى الرخام وعيادة التحنيط الأبدية وعربات القمامة وسينما مفلسة، ومقاهي البطالة أو مقاهي الرصيف!! أهذه هي الحياة المقدسة التي يتشبث بها الناس بكل قواهم، ويسعون لبناء الأمجاد فيها، وترتعد فرائصهم خوفاً من الموت!! هل الحياة مقدسة فعلاً؟ وأين تكمن قداستها، وأتاه إلهام مفاجئ، بأن الموت ماهو سوى نسخة مكررة لحياته هذه ألايختبر الموت كل يوم دون أن يموت؟! أرعبته فكرة الأبدية ماذا لو استمرت أيامه إلى الأبد على هذا المنوال سواء قبل الموت أو بعده! ليس لديه من حلول معاوضة أو مسكنة سوى انتظار وجبات الطعام، يتحوّل كل إحساسه بالطعام، بمذاقه اللذيذ المتنوع، يتساءل: هل الحب طعمه حامض أم حلو أم مالح؟! ماطعم النشوة؟! الطعام والنوم هما الحياة... ترى ماهدف الحيوانات من حياتها!؟.

وجد نفسه قرب عيادة طبيب الأسنان ذائع الصيت، الذي يسميه الحوت لأنه تمكن من جمع ثروة كبيرة من عمله، قادته قدماه بآلية إلى عيادة الحوت، استقبله الطبيب اللامع بحفاوة، وبعد أن تأمل طويلاً جوف فمه فاحصاً أضراسه، فيما كريم يتابع التقطيب المتزايد على وجه الحوت ويحس بضربات قلبه تتسارع كأنه ينتظر نتيجة امتحان، وكانت النتيجة قطعية وبصوتٍ أكيد: وضع أضراسك مزرٍ يادكتور كريم، كل تلبيساتك القديمة تحتاج لنسف ويجب استبدالها بتلبيسات سيراميك جديدة أستغرب من طبيب مثلك هذا الإهمال ـ ضحك بتصنع ـ هل تريد أن يصدق المثل ـ باب النجار مخلّع ـ.

بلله الخجل وجد نفسه يسأل الحوت بثقة مصطنعة: أتعرف، لاوقت لي للعناية بأضراسي، لكني قررت الآن إصلاحها جميعها بعد كلامك المخيف، هلاّ قدرت لي الكلفة الإجمالية؟!

صفن الحوت قليلاً وقال بعد أن لوى فمه للأسفل: طبعاً سأقبض منك الكلفة فقط، في هذه الحال، لن تكون أقل من ثلاثين ألفاً...

انقطعت انفاسه وأطرق شارداً في البلاط في اللونين البني والأبيض على

شكل لوحة الشطرنج، تظاهر أنه يفكر كيف سينسق دوام عيادته مع إصلاح أسنانه في عيادة الحوت، قال: أفكر كيف سننسق معاً الدوام، لأن أوقات عملنا واحدة؟ رد الحوت: بسيطة، يمكن أن تقصدني قبل ذهابك للعيادة، أو بعد خروجك منها وأنا ياأخي أضحي بنصف ساعة زيادة كل يوم من أجل خاطرك...

شعر من واجبه أن يرسم ابتسامة شكر وأن يتلفظ ببضعة كلمات لطيفة يقولها للحوت، وعده بشكل قطعي أنه خلال أيام سيتصل به ليستأنف هذا الأخير إصلاح تلبيساته المثقبة والمهترئة...

قال الحوت: أوكي أنا بانتظارك، فلاتتأخر، وضع أضراسك لايحتمل التأجيل لإصلاحها.

نزل الدرج فارداً سحنة قنوطه، الأفكار محتقنة في ذهنه، سيطرت كلمة وحيدة في ذهنه، ارتسمت في خياله بالخط السود العريض: الحوت... جمعها بحيتان... أجل ماهم سوى حيتان يبتلعون الأسماك الصغيرة، الطبيب الكبير يأكل الطبيب الصغير، كلمات تصلح لأغنية، لماذا لايغنيها أحد المطربين الهابطين الذين جمعوا ثروة من أغانيهم المبتذلة، لم يستطع أن يمنع وميض تلك الفكرة الملّحة، وهي تصوّر له ازدحام عيادته مثل عيادة الحوت، وبأنه جمع ثروة كبيرة مثله، واشترى بيوتاً وسيارة فخمة.

لكنه أخذ يعزي نفسه بوضع أطباء الأسنان الجديد أو الأسماك الصغيرة، الغارقين في الديون، الذين تصفر عياداتهم كعيادته، قادته خطواته بشكل أعمى عبر الطريق ذاته إلى عيادته، تخيلّ أن عمره سينصرم وهو يروح غادياً آياً في الطريق ذاته، إلى أن يأتي يوم يغوص فيه تحت الأرض في نقطة مامن هذا الطريق، وبدا هذا الطريق هو نفسه الطريق الصاعد الذي يزرعه سيزيف كل يوم مجتراً يوماً أبدياً...

أحس بضيق في صدره، تساءل مالذي يجثم فوق صدري؟ بلاطة من رخام، هكذا تخيل... وارتسم رقم ثلاثون ألفاً فوق البلاطة، البلاطة بيضاء

والرقم مكتوب بالأحمر الزاهي، راتب ستة أشهر، ياللمهزلة! وتساءل بسذاجة يائس: لماذا ليس هناك ضمان صحي؟!

بدا له أن جمع هذا المبلغ مستحيل، إلاإذا اضطر لسحب قرض من المصرف، وصرخ صوت متذمر في أعماقه بأنه لن يتورط بسحب قروض على الراتب الوهمي، وتفتقت جملة في ذهنه أجبرته علىالضحك: أصل الإنسان قرض... لم يصعد إلى عيادته، توقف يرمق اللافتة التي تحمل اسمه بحقد، ايحقد على الدكتور كريم؟ أيكره نفسه وظروفه؟ لكن صوتاً متعباً زاهدا، بائساً وساخراً أتاه من الخلف قائلاً: مابها تلبيساتك القديمة؟ هل اهترأت؟ لابأس لكنها صامدة أيضاً، صحيح أنها تثقبت وسقطت مراراً، وأعيد لحمها وتركيبها، لكنها عكازة نافعة على أية حال، هل تصّدر عن فمك رائحة كريهة أحياناً؟ ياأخي بسيطة، أهتم أكثر بنظافة أسنانك، ومصّ أقراص النعناع، ذكية الرائحة، ثم هاأنت في الأربعين، بالتأكيد عشت أكثر من نصف عمرك، إيه لاتزعل هل الأمر يتطلب دفع ثلاثين ألفاً في هذه الحياة الفانية؟!

ذكره هذا المبلغ بثمن البراد الذي تاق لشرائه، والذي يبرّد بالهواء... والذي حلم أحلام يقظة مديدة بأنه سيشتريه ذات يوم، وسيحل مكان البراد الذي هدته الشيخوخه فصار يصدر قرقعة عالية مستمرة، كأنه يعوي طالباً الرحمة، وحقه في التقاعد، أو حقه الطبيعي في الموت... براد الهواء يحتاج ليشتريه أن يدفع ستة أشهر من عمره، من قيمته خلال هذه الأشهر!! تذكر تصرفاته التي بدت له هذه اللحظة مبكية من شدة الألم، والشفقة، كيف كان يدخل محلات الأجهزة الكهربائية ويلمس البردات الجديدة بحنان، ويساوم البائع في سعرها، موحياً له بثقة زائفة أنه سيشتري، ثم ينسل خارجاً مجرجراً وراءه عجزه الأبدي... تساءل: أيسخر منه هذا الرقم، ثلاثون ألفاً؟! وسأل نفسه بسخرية ـ الوسيلة الوحيدة لامتصاص توترة ماهي الأشياء الكثيرة التي رغبت بها وكان ثمنها ثلاثون ألفاً؟!

جميل هذا العبث الكلامي إنه يخفف توتر روحه اليائسة... انتعش خياله

وهو يحيي أمامه تلك الذكرى البعيدة، يوم استوقفه خاتم بديع معروض في إحدى واجهات دكاكين الصاغة، خاتم غريب له شكل مخمسّ، لمعانه رائع، وفي وسطه حجرة خضراء، بلغ حماس إعجابه بالخاتم أنه قرر شراؤه، سيطلب قرضاً على راتبه، وسيزين اصبعه بهذا الخاتم البديع ـ أي ضرر أن يدخل البهجة إلى روحه، وأن يقتني خاتماً رائعاً وهو الطبيب الاختصاصي منذ أكثر من عشر سنوات!

ظل اصبعه يحترق رغبة بالخاتم الذي قاسه مرّة واحدة، ولم يزده المبلغ الكبير المستحيل سوى إغواء وشبقاً في نفسه لامتلاكه، وانشغل ذهنه أياماً، وربما أسابيع باقتنائه.. لكن الحماسة انطفأت بجرعات الهموم اليومية المتكررة أبداً... أسعفه خياله بثلاثين ألف رابعة، تذكر أن أخته تدفع هذا المبلغ شهرياً لمتعهد البناء الذي يكسو لها شقتها، وبأن هذا المبلغ تافه بالنسبة لها، ولايشكل سوى عشر راتبها، استطاع أن يتمثل الراتب العملاق الذي تحصل عليه أخته في أميركا، وأنا، وأنا... صرخ صراخاً أخراساً وقد هزته للحال عاصفة غضب عارمة أحسها ستفجر مفاصله كلها، من أنا؟ كزّ بقوة على أسنانه حتى أمكنه أن يشعر باهتراء التلبيسات وثقوبها وتخلّعها، قال بحنق: ماأنا سوى تلبيسات مهترئة... اتسع جفناه من الغضب، وجمدت نظرته لكأنه يرمق القدر بحقدٍ وتحدٍ وبدا له وضعه المهيني والإنساني غير مقبول، ولابأي شكلٍ، وتكاثفت السنوات العشرة خلفه بمعاناتها الأبدية المرهقة والمملة، وتكثفت كنقطة حارقة تثقب قلبه، وامتد نظره مخترقاً سنوات في المستقبل عارفاً ببصيرة اليائس أن لاأمل له أبداً... صرخ من حنجرة قاسية، متصلبة بالقهر: ياإله السموات ماهذه الحياة؟! كيف يمكن أن أطيقها؟! وبدت العيادة الأبدية في سكونها المطبق، وأثاثها المفروش بالغبار والنسيان، نعشاً حقيقياً تنتظره كي يموت كي ينفخ آخر نسمة من روحه الذليلة التي تهيم في أعماقه مترعة بالأسى واحتار في تأزمه، هل يبكي، أم يضحك، أم يشتم، أم يتابع التسكع، ورفض الاحتمال الأخير، لأن تأمل واجهات المحلات سيضاعف ألمه، خاصة أن جيوبه خاوية.

وجد نفسه يقصد عيادته مجدداً، ويدخلها منهكاً من الانفعال، ومأأن جلس خلف طاولة المكتب في كرسي تحنيطه الأبدي، حتى كورّ يده، وخبطها بقوة على الطاولة مطيراً الأوراق والأقلام وزجاجات الدواء الذي فسد منذ زمن، وكان سيدق الطاولة بقبضته للمرة الثانية محطماً رسغه ربما، لولا أنجده مريض بالدخول، نظر إلى الرجل بدهشة متعجباً أية معجزة هذه أن يقصده مريض!!

شمله بنظرة متفحصة، يبدو ثرياً، ترى كيف أخطأ ودخل العيادة؟!

بادره الرجل بالتحية، فردّ سلاماً مصطنعاً فيه حفاوة زائفة مبالغ بها: تفضل، تفضل.

أخبره من تلقاء نفسه أن ابن خاله قصده منذ ثلاث سنوات، وبأنه أجرى له عملية جراحية ممتازة... حكى المريض شكواه، ظفر ابهامه منغرس في اللحم، يسبب له ألماً شديداً، أمكنه أن ينتعش مستعيداً كيانه كطبيب وتحركت عضلات حنكه ولسانه التي أحسها غارقة في شلل طويل، طويل.. واتفق مع المريض على موعد لإجراء العمل الجراحي بعد يومين، ودفع الرجل خمسمئة ليرة على طاولة المكتب قائلاً بلهجة تفيض وداً: هذه دفعة على الحساب... وحين خرج الرجل حاملاً الوصفة الطبية التي كتبها له الطبيب الشحاذ، عاد يجلس في مقعده مستمتعاً بالخشخشة اللطيفة الصادرة عن ورقة النقود حين يدعكها بأصابعه، كان سعيداً سعيداً واحس بأن نسائم الربيع تهب في روحه، استرخى جفناه المتصلبان ولم يعد يحدّق بحقدٍ في فراغ العيادة، وبدا له أن المكتبة أمامه تبتسم كذلك، وتتمطى محركةٍ كتلتها الصماء البليدة، حتى الجدران تمطّت، والكراسي الضخمة المهترئة أخذت تضحك كاشفة عن أضراسٍ بتلبيسات مثقبة ومهترئة!!.

عجباً، أهكذا يتحوّل مزاجه من غليان الغضب ورعوده وعواصفه، بمجرد خمسمئة ليرة، إلى نسائم عليلة تنعش القلب!! أعطته خمسمئة الليرة شعوراً

بالشبع والأمان والاستقرار، لكأنه ضمن مستقبله عشر سنوات على الأقل، أمكنه أن يقوم عن كرسي تحنيطه وينزل الشارع، آه، ماذا عساه يشتري؟! أيحتار حقاً؟! داعب روحه بمودة كأنه يشفق عليها ككيان منفصل عنه، كم أحس بالامتنان للصدفة التي قادت هذا الشخص اللطيف إليه، ابتسم متفائلاً وهو يتخيل أن الرجل سيدفع له المبلغ الذي سيطلبه بعد العملية، فليبدد الآن الخمسمئة، طالما سيقبض مثلها أو أكثر بعد يومين! ولج باب السوبر ماركت ولسانه يستحلب طعوماً يحبها، همس لنفسه: ماألذّ الشراء، ماألذه، أليس من اقوى متع الحياة؟!! لم يكن شح الراتب وحده يشعر كريم بالذل، ذلك أن حالة من الذل اليومي صارت تتلبسه ابتداءً من الخطوة الأولى التي يخطوها باتجاه المشفى وحتى نهاية الدوام، كان يتحسب الشر دوماً، وكانت ابتسامته الأولى وسلامه اللذان يخص بهما زملاءه والموظفين في مشفى الرخام تعنيان تحديداً براءته من التهم المحتملة، كان يعيش كمن يترقب كل لحظة السقوط في حفرة، وشعاره اليومي: يارب نجنّا من شر هذا اليوم، كان يشعر أنه يستعطف صمتهم وابتسامتهم، وهو يقول صباح الخير المبطنة بصباح الموت، وينتظر برهة، ثوان يحسّها ثقيلة، مرهقة، كلها ترقب حتى يسمع ردهم بآلية وتعاطف: صباح النور.. فيتنهد: الحمد لله، ليس من شرٍ هذا الصباح، لم يلفق لي أحد تهمة، ولم أطرد من وظيفة رغيف الخبز! أحياناً كان يتساءل: ألست مبالغاً قليلاً بأحاسيسي؟ لماذا أشعر بكل هذا الرعب بينما الأيام تمر متشابهة وعادية ولاأزال على رأس عملي؟ لكن هذا التساؤل كان يشعره بمزيد من الألم وهو يعي كيف أنه ضحية رعب مستمر. ترى من خلقه في نفسه؟ أهو ساذج وضحية أوهام حتى يسقط أسير رعب يتفاقم مع السنين؟ من هؤلاء الذين يعرفهم جيداً، وفي أعمق غرف روحه ترتسم وجوههم التي تبتسم له، كالابتسامة التي خصّها يهوذا للمسيح قبل أن يسلّمه للصلب!

أليسوا هم المسؤولين عن خلق هذا الشعور المدمّر واللاإنساني بالرعب في نفسه... المسؤولين الرخامين!! كيف يشع الرعب من شقوق يومه العادي؟

كانت علاقته مع الجميع ملتبسة، الآذن يحسه يتجسس عليه، ويضع في اعتباره أنه يمكن أن يراقب هروبه ويكتب فيه تقارير يقدمها للإدارة.. لذلك فحين كان الآذن يحضر أحد أفراد اسرته أو جيرانه للفحص، كان كريم يستقبله بحفاوة مبالغ بها، لكأنه يرجوه أو يرشيه ألايفسد هروبه اليومي، الممرضات رغم تعاطفه اللامحدود معهن إلا أنه ظل يخشى أن يكون بعضهن مدسوساً للمراقبة.

كان يفكر بحياته وهو يرشف الشاي أو القهوة والصمت، بدا له أنه مامن حلٍ أبداً سوى أن ينمي في داخله القدرة على الفرار العقلي والذهني، وإن أمكن الجسدي من عيادة التحنيط ومشفى الرخام، حياة تفرّ من حياة، تعلو فوقها، تبني طابقاً من الأوهام والأفكار فوق طابق الاسمنت والضجيج، كان مقتنعاً تماماً أن عليه أن يخلق كريم ضمن كريم... محاولة خلق إنسان يستمتع بالدفء بالشمس، بالتأمل، لم يكن بالأمر السهل بالنسبة له، لكنه كان الحل الوحيد، ماكان يقبل أن يصير واحداً من المئات الذين يجترون كل يوم الأحاديث ذاتها عن الضرائب، وخيبات الأمل في العمل، كان يفر إلى مقاهي البحر، ويخلق علاقات عشقية مع البحر والشمس وصخور الشاطئ، والقطط المسترخية في دفء الشمس، والتي يحسدها على صفائها الذهني، وكان يتبادل معها نظرات تفاهم وتعاطف ويمازحها سائلاً: إن كانت تجد صعوبة في تأمين لقمة العيش؟ ويتخيل أنه يسمع ردها، بأنها سعيدة لأن أكوام القمامة لم تكن يوماً بهذا السخاء كماهي عليه الآن، لكنها تتنهد بأسف وهي تخبره بأن البشر صاروا ينافسونها في لقمة عيشها، لأنهم ينبشون في أكوام القمامة ويأكلون منها أيضاً!.

كانت أيامه تتابع بسلاسة كما تنسل حبات الرمل من بين الأصابع، وكانت حالات من الزهد والعبث تنتابه، فيحدث نفسه بكل سأمه اللامحدود: هاأنا أعيش بدليل أنني أقص أظافري الطويلة، هاأنا أعيش لأنني أمشي، وآكل وأنام، كان يحتاج لمؤاشرات تثبت له أنه يعيش، لأن داخله كان ميتاً باليأس... لم يجد بعد طول بحث من حلٍ مريح نسبياً ليأسه، سوى أن يخلق شخصاً

ضمن شخص، سوى أن يوصي لنفسه بأن كل الظروف حوله لاتعنيه، بل تعني إنساناً آخر يضطر أن يمثل أنه طبيب، وأنه يعمل في مشفى، وبأنه يتوجب عليه أن يجلس كل يوم لساعات متأملاً الفراغ في عيادة التحنيط الأبدية... ليس من إنهاك أصعب من إنهاك الفراغ، أغلب المساءات كان يتهاوى من التعب رغم أنه لم يقم بجهدٍ يذكر، سوى انتظار اللاشيء، كان يلتهم عشاؤه كيفما اتفق، وهو واقف، ثم يبدل ملابسه ليلبس بيجامته الذابلة التي ماأن يسقط نظره عليها حتى يتحرك فيه شعور الذبول والنعاس، ثم يجلس في سريره ليقرأ بذهن مشوش أبداً... لم يكن يطيق الشاشة الصغيرة التي تعني له تحديداً الكذب والضوضاء، والدعايات التافهه عديمة الذوق، والتي يدور معظمها حول أنواع العلكة والعصير، كأنهما عصبا الحياة الأساسيان؟! أما المحطات اللبنانية فكانت تجعله يهوي أكثر فاكثر في إحباط يأسه وهو يتساءل: أهؤلاء بشر مثلنا، يعيشون الفن وزخم الحياة، يستمتعون بالسينما والمسرح والحرية... أفضل لي أن أهرب إلى كفني وأغرق في النوم، في الوقت الذي تغفو فيه الدجاجات...

حارب الوقت بالنوم، هذه حكمته الجديدة، بدل الشجار اليومي مع المساء: ماذا سأفعل بك؟ ماذا سأفعل لك؟ كيف سأملؤك؟ كيف ساخلق الحياة فيك؟ لسنوات وهو يتشاجر كل ليلة مع مسائه، بينما الليل يمر شاحباً قرب نافذته يلقي عليه تحية المساء بصوتٍ خافت وحزين ويرمقه مطمئناً إلى وضعه الأبدي، ويغادره بعد أن يطمئن أنه غرق في النوم بمساعدة المنوّم... لكنه لم يكن يتابعه حين يستيقظ عند الفجر، ليعد قهوة استعادة الذكريات القريبة والبعيدة، وليسجل في دفتر مذكراته، انطباعاته عن الحياة، في تلك اللحظات البكر من الفجر، كانت نفسه تصفو كمرآة لماعة تعكس كل أشعة الشمس حباً وبهجة، كان يشعر أن ماء روحه مقطرة، نقية، يمكنه أن يشعر عندها بسكون الكون الأولي، تلك اللحظات الرائعة التي سبقت الخلق، لكنها كانت تحمل في جلال صمتها كل حبيبات الحياة، كان ذهنه في تلك اللحظات يتورد بنسغ الحياة، فيكتب صفحات أشبه بمناجاة كونية. ويحّس بعدها بالرضى وبأنه

لايزال قادراً على التمتع بالحياة، كان يتفرج بعين خياله على روحه كيف تفرّ من صدره كحمامة بيضاء تحمل في منقارها غصن زيتون وتطير عابرة قارات ومحيطات، محتوية الكون كله في صدرها النقي، كيف تحط على شرفات لاتزال غارقة في عتمة الشفق تنثر دموع الشوق والحب لكل المساكين والبسطاء في هذا العالم... كانت الحمامة البيضاء تتابع طيرانها حتى تصل خط المدى، وتقف عند خط عناق البحر والسماء، لتترك غصن الزيتون هناك، هدية حب للمدى الأزرق، بصمة حب خضراء منداة بزيت المحبة، وتعود الحمامة من تجوالها الكوني لتستقر مجدداً بين أضلاعه، فيما هو يتفرج على خيوط الفجر الأولى كيف تتسلل من النافذة، وكيف يبدأ الصمت الجليل يخدش بخطا الأولاد المهرولين إلى مدارسهم، والموظفين الساعين وراء لقمة العيش...

كان يعود بعد ساعات الانفعال الصوفية هذه إلى فراشه، مثقلاً بمشاعر الشكر والامتنان لإله يجعله يعيش بزخم لامحدود ساعات رائعة تبدأ قبل الفجر، وتنتهي بعد طلوع الشمس، كان يغفو لساعة أو أكثر ثم يقوم ليتأبط سأم بطالته اللامحدودة، إنما بروح عالية قادرة على مقاومة اليأس، حتى فجر اليوم التالي... كثيراً ماكان يشك بحقيقة تلك المشاعر النقية التي تصطخب في نفسه فجراً، أتراها حقيقة أم زائفة؟ إنها أشبه ببروق، ببروق سريعة وخاطفة سرعان ماتنطفئ، بروق لامنطقية تخترق غيمة القنوط الرازحة على صدره، إنها مجرد شوق الفرح، كتوق الإنسان لمعشوق، كانت نفسه تحتاج للفرح، تخلقه، تؤلفه من لاشيء، فيأتي كومضة، بلاجذور، بلا هوية، أشبه بزوغان بصري خادع سرعان مايزول تاركاً إياه غيمة ثقيلة من القنوط.

* * *

أقبل العيد، وهو مفلس تماماً، أمامه أربعة أيام من الخواء، ترى هل من علاقة بين خواء الروح وخواء الجيوب؟ يالوجع السخرية وهو لايحمل في جيب بنطاله الأنيق سوى خمس ليرات! لابأس لن يموت من الجوع، ففي البراد طعام، وأمه ستطهو كل يوم طبخاً شهياً، كان يحلم أن يعيش أربعة أيام في الريف،

يستأجر غرفة بسيطة وسط الخضار النقي، يتنشق الهواء المحمّل براوائح الأرض والشجر والأزهار، والحيوانات يغمض عينيه من شدة الشوق لكل جميل وبسيط وطبيعي، وماشوق الإنسان العميق للطبيعة سوى رغبة أصيلة لعودة الإلتحام بها، بذرات التراب، وجذور النباتات، والاثداء المحجوبة في الأعماق حيث تتدفق الينابيع... كيف تصير الرغبة البسيطة، مجرد قضاء ثلاثة أيام في الريف، ضرباً من المستحيل؟ انزلقت في ذهنه صورة اخته وملايينها المكدسة في البنوك والعقارات، مجرد صورة عرضية في ذهنه لم تحرك فيه أي شعور... يالهول الأسى المتراكم في روحه، لكأن أسى البشرية كلها يتجمع في داخله، يحس أنه يدور حول نفسه دوراناً لامجدياً، يزرع الغرفة بخطا عصبية متوترة، يفتح باب قوقعته خارجاً إلى الصالون، ينظر عشرات المرات في الساعة، يستعجل العقارب دورانها، بأن تمرر الزمن بأقل أذى نفسي ممكن وأقل قهر عارفاً أن لامفر منه، لكن هاهو النهار لايزال في بدايته ولم يمض على تناوله الفطور سوى ساعة، خلال هذه الساعة كانت معاناته من الحدة لدرجة شعر أن روحه ستنفق، وهاهي أمه تتفرج عليه بحواسها بروحها، إنما ليس بعينيها أبداً، لأنها تخشى إنفجار غضبه فيمالو التقت عيناها بعينيه يتمناها لو تخرج، لوتسافر، يالبشاعة مشاعره وقسوتها، لكن مأصعب أن تعيش مع إنسان يعرّيك كل لحظة، ولاتستطيع إخفاء أي شيء عنه، يحس بأنفاسك وتنهداتك وبراكين غضبك المحبوسة، إنها تعرف جحيم إفلاسه وضجره، وتقترح عليه زيارات عائلية، معتقدة أنه يتسلى ويخرج مؤقتاً من غليان عواطفه، لكنه لايرد على اقتراحتها، يتشبث بالصمت، أو يتفوه بكلمة واحدة: لا.

كل عيد يعتقد أنه في العيد القادم سيكون أفضل حالاً، وسيكون في جيبه بعض المال، لكن وحدة قياسه الأبدية ـ الراتب ـ مصابة بشلل لاشفاء منه، فلتبقه الحياة ماشاء لها أن تبقيه حبيس قوقعته وكتبه وموسيقاه التي ماعادت تحرّك في نفسه شيئاً سوى أوجاع مزمنة. تذّكر موعظة سمعها ذات يوم للمطران جورج خضر الذي يعجبه لحد الإبهار إنه مثال الانعتاق الاسمى عن

كل الدنيويات، يعيش في قلب الحقيقة، ينهل من المحبة ويفيض تذكر قوله: إن الله ينعم على البعض بالغنى وعلى البعض الآخر بالفقر! تساءل عجباً كيف يكون الفقر نعمة!؟ هل من شيء مهين للإنسان سوى الفقر، ترى كيف يفلسف الإنسان الفقر ويعتبره نعمة؟ مااشد إحساسه باللاجدوى الآن، إنه مفزع من حقيقته، من بشاعة يأسه وتجذره عميقاً، يومه صار عدوه فليغب عن الوعي عن الوجود، ليتجرع عدة حبوب منومة ويغلق الستائر وينبه أمه بلهجتة الجافة القطعية ألاتوقظه من سباته، إنه يحس بنظرتها قبل أن ترتسم في عينيها، نظرة خوف وقلق ورغبة بالحوار دون أن تجرؤ عليه هاهو يغرق في النوم من الحادية عشرة صباحاً حتى الخامسة فجراً أفاق وهويحس جسده مهترئاً كخرقة، وأمعاءه تتقلص برخاوة تقلصت معدته تقلصات رخوة تطلب الطعام، رأسه ثقيل ونظراته زائغة وشعور غثيان يتموّج مغرقاً جسده، لم يميز الوقت تماماً، لأن الفجر لم يكن صريحاً، لكنه انتفض مسرعاً من فراشه وقد أوشك أن يبول في بنطال بيجامته، ترنحّ وكاد يسقط وهويسرع باتجاه المرحاض، أدهشه بوله الداكن، ربما لأنه لم يشرب ماءً طوال يوم سباته، شرب كوبين من الماء لكن حلقه ظل متجففاً.. غمرته فجأة موجة حنان عارمة تجاه تلك المسكينة الغارقة في النوم، تذكر نظرتها الوادعة المطلة من عينيها العميقتين السوداوين وهي ترجوه بصمت ألا يعتكف في قوقعته وألايتناول حبوب السم، وكيف رد على نظرة التوسل الحنون بنظرة تشتعل بالحقد والغضب على الدنيا كلها، بمافيها هي... أمه التي لم يتساءل يوماً أي ألم تقاسيه بسببه، انهمرت دموعه حارقة وهو يغلي القهوة تخيل بشاعة تخليه عنها يوم البارحة، سرت قشعريرة قوية في جسده كله وهو يستعيد سحر نظرتها وهي ترنو إليه بكل طاقتها على حبه، كانت تقشر الثوم بعد أن نقعته طويلاً بالماء ليسهل تقشيره حين انصب عليها صوته: أنا داخل قوقعتي لأنام فلاتوقظيني... ياه، بأي قهر تلقت كلماته، ترك دموعه تنسكب غزيرة وهو يتمنى لو يقبل يديها بنهم لايرتوي، عارفاً أنه لن يفعل أبداً... تساءل بخجل: لماذا نمت يوماً كاملاً؟! ترى هل سأنام كل

العطلة؟ فتح البراد ليأكل قطعة جبن، عسى تقلصات معدته تخف طالعته صينية فيها فروج محمّر وخضار متنوعة باللمسكينة، طبخت أكلته المفضلّة، وتغدت وحيدة فيما هو غارق في موته، ترى ألاتستحق هذه الإنسانة أن يدخل البهجة إلى قلبها؟! أن ينسى إحباطاته ويأسه ويعيش معها بسعادة وأمان، أحس بقوة أن السعادة الحقيقية في البساطة، وأسف اشد الأسف علىاليوم الذي سحقه، أما كان باستطاعته أن يتغدى معها وأن يتنزها بعد الظهر على الكورنيش مستمتعين بدفء الشمس والبحر البعيد الذي فصلوه عن الناس بصحراء من الأسمنت، أشعل الفرن ليسخن الفروج والخضار، وأخذ يرشف قهوته وهو يقرّع نفسه بشدة على تصرفاته غير المعقولة ماهذا السلوك غير السوي ياكريم؟! هل الضجر الشديد والإفلاس يدفعانك لتخدّر نفسك يوماً كاملاً؟ أما يجب أن تتغير تجاه نفسك، التفت إلى كرسي بجواره ليجد ثيابه الداخلية وقمصانه مكوية ومطوية بأناقة، يالحبها الصامت الذي لايطلب مقابلاً أبداً، باللحب السخي الذي يتعامى عن الإهانات والتجاهل والتجريح، مدّ يداً مرتجفة ليلمس الثياب المطوية قرّب منها وجهه متنشقاً رائحتها العطرة، مسحت يده بحنان على الثياب كأنه يمسح على وجهها حدثها: مسكينة أنت مسكينة، فجأة انبثقت فكرة في ذهنه بأنه هو المكسين إنها سعيدة في عطائها، أما هو فشقي، فلينسى المال ترى أما من سعادة خارجة؟ تذكر كيف كان يتنكد ويتعكر مزاجه بشدة وهو يحسب سعر المكيف الذي يعادل راتبه خلال عامين، طظ في المكيف، أليست السعادة في متناول يده، وماحاجه الإنسان في الحياة سوى لقلب يحبه؟ كم مضى من زمن لم يسمعها فيه كلمة حلوة؟ لم ينظر إليها بحنان؟ بل إنه يتحاشى أن ينظر إليها، يبخل عليها بنظرة، يريد أن يعاقبها على ذنوب لم تقترفها أبداً، يريدها ساحة لتفريغ سخطه على الحياة، بل إنه لايتورع عن إشعارها بأن وجودها عبء عليه ومقيد لحريته الشخصية... وهي تمتص كل براكين أحقاده وجنونه بنظرة تسامح وابتسامة ناعمة تخشى أن تكون صريحة أكثر من حد معين، كي لايعتقد أنها تستفزه.

أحس بالاشمئزاز هذا الصباح وهويعي بعمق كيف أنه يسمح للمال بأن يشوهه ويدمر حياته، ويلغي سعادته، وأقرّ لنفسه بأنانيته وقصر نظره، وبأنه لونظر نظرة شمولية للعالم لوجد أنه بألف خير، لكنه لايستحضر في ذهنه سوى الأفكار المزعجة، واعترف لنفسه بأنه آن الأوان ليحارب نكده المستفحل الذي تحول لطبع متأصل في نفسه... قام يمسح دموعه التي تباطأ انسكابها، أخرج الفروج الشهي من الفرن، وأخذياكل بشهية من يتعافى بعد مرضٍ طويل، غارقاً بالندم على نهار البارحة، وكاد البكاء يعاوده وهو يتخيل منظر أمه وحيدة ومنكسرة، لكنه زجر نفسه: كفى دموعاً، وحدث نفسه بأن من واجبه أن يسعد المسكينة التي تعمل على خدمته وسعادته، غسل يديه، وفيما يده تمتد ليتناول فرشاة أسنانه تنبه لظرف دواء على رف المغسلة، إنها حبوب مسكنة، ترى هل تشكو أمه من شيء؟ وتخيل أنها عانت من ألم شديد في مكان مامن جسمها، ولم تجرؤ على طلب معونته إذعاناً لأوامره، انتابه قلق ملح، فاتجه إلى غرفتها ماشياً على رؤوس أصابعه، وفتح على مهل باب غرفتها، أدهشه أنها جالسة في سريرها تقرأ، كانت إحدى المرات النادرة التي قال فيها: صباح الخير... ردت بدهشة: صباح النور... كرم لم تتوقعه أبداً أن يبادلها تحية الصباح، وهي التي اعتادت على تجهمه الصباحي الصامت، المكهرب بالتوتر، ترجع صدى صوتها بذهنه ـ صباح النور ـ ليس فيه أثر لتمثيل أو عتاب، أي قلب هذا قادر على الصفح والمغفرة؟ حدث نفسه، هذه هي الأم، إنها محبة بلاحدود.

جلس على طرف سريرها، سألها: لماذا تلتزم غرفتها؟ لم تجب، لكنه حزر أنها لاتريد أن تزعجه، وتخشى أن تفسد عليه عزلته، قال لها متحاشياً ان تنظر عميقاً في عينيه كي لاتقرأ حزنه: ماأطيب طبخك...

ردت بصوت جاهدت أن تخفي نبرة الألم فيه: ألف صحة على قلبك، وعادت تطرق في كتابها.

سألها: ماذا تقرئين؟ مدت له الكتاب، كانت تقرأ كتاب الهدوء للبابا

شنودة سألها: هل يؤلمك شيء، فقد وجدت ظرف حبوب سيتامول على رف المغسلة.

اعترفت له بأن ضرسها آلمها بشدة، ودّ لو يقاطعها قائلاً: لماذا لم توقظيني لكنه سكت خجلاً

سألها: ألا ترغبين بشرب القهوة.

قالت: أجل.

قامت من سريرها، تأمل قامتها النحيلة وقد تقوس كتفاها، باللإنسانة العظيمة إنها لم تعاتبه على يوم البارحة حتى بنظرة، تجاوزت سقطته، كأنها لم تحدث باللحب العظيم الذي لايأس ولايعاتب ولايريد مقابلاً.

عجيب الإنسان، من يستطيع فهمه؟ البارحة دفعه اليأس لتجرع حبوب الغياب واليوم يمتلئ سعادة، وحباً لتلك المرأة الجالسة إلى جواره ترشف قهوتها، ويستمتعان بدفء المشاركة. منذ زمن طويل لم يرشفا القهوة معاً، كان يخرج من قوقعته كل صباح متجهماً كعادته يحضرّ القهوة دون أن يلقي عليها تحية الصباح، ثم يرجع إلى قوقعته يشربها وحيداً فيما هي جالسة في الصالون تسمع نشرة الأخبار من محطات عديدة، أو تتسلى بمتابعة البرامج الصباحية وحيدة، ترى لم لايشاركها تلك اللحظات؟ لماذا حرمها وحرم نفسه أن يبدأ نهارهما بكلمات لطيفة ونظرات دافئة؟ ولكن أي ندم ينفع الآن وقد اغتال مئات الصباحات برعونة وغباء، ويأس تركه يستحكم به ويسير ويشل إرادته، بالغرابة الإنسان؟ ماأسعده الآن يتذوق حبها لكأنها ذوبته مع دقيق البن، وصبته في فنجان.

انساب حديثهما حلواً عذباً، حكت له بحماسة عن الفيلم التلفزيوني الذي سهرت تتابعه ليلة البارحة، وكم تمنت لو يحضره معها، استمتع بسردها للأحداث، إنه يعطيها فرصة الكلام، يحبها بأن ينصت لها، خجل حتى الموت من تصرفه يوم البارحة، وزاد خجله صمتها التام المتجاهل ليوم البارحة، سألها:

ماذا سنفعل اليوم كان سيوافق على كل اقتراحاتها، وحين أعربت عن رغبتها بزيارة اختها الوحيدة أثنى على اقتراحها، بل طلب إليها أن تحضر قالب كاتو يأخذانه لها، أثنت على فكرته وقامت تحضر عجينة الكاتو، فيما هو يرشف قهوته للمرة الثالثة محارباً بقايا نعاس وخدر من تأثير حبوب اللعنة، كان ينصت طرباً لصوت آلة خفق البيض الكهربائية وأحس تلك الضجة موسيقى تفرحه، تذكر كم كان يصرخ محتداً من صوتها... وكيف كان يصفق الأبواب كي لايسمع هدير المحرك... ضحك مبتهجاً وهو يستعيد طعم إفطاره الدسم هذا الصباح، قام يشعل التلفاز ويصغي للمذيع الخاص بالأبراج، دوماً هناك مفاجآت ساره وسعيدة، وغيوم ستنقشع، ولقاء مع النصف الآخر، ترى أية اكذوبة كبرى هي الأبراج، كان مندهشاً حقاً من فرح روحه الصريح والملّون، كأنه ربيع مباغت، يحل فجأة بعد شتاء قاس. حقاً النفس البشرية تتوق للسعادة والسلام، أحس بأسف عظيم كونه ضيّع سنوات من حياته في يأس أعمى، ومالحياة سوى لحظات قد تطول أو تقصر . فلم لا نقضيها براحة لم لانساعد أنفسنا لنكون سعداء؟! كان واعياً تماماً لنفسه في تلك اللحظات، وكان قرار حاسماً وقوياً يتكون في نفسه، سيثور على مشاعره السلبية، ولن يستسلم بعد للاحباطات آه الحياة جميلة حقاً، وتلك المرأة الرائعة التي تعيش معه تعطيه دروساً رائعة في الحب والسعادة كل لحظة... ليته يملك المال تلك اللحظة ليشتري لها باقة ورد كبيرة كاد يغتم من ذكر المال، لكنه سارع لطرد هذه الأفكار من مخيلته مذكراً نفسه أن سعادتها هي أن تراه سعيداً، وأن هذا اليوم ستعتبره من أسعد أيام حياتها.

تأمل تجاعيد وجهها الغارقة في الطيبة، ماأرق هذه الإنسانة، تشجع، وقبل خدها، كم مضى من زمن لم يقبلها؟! توقفت عن خفق الزبدة مع السكر مدهوشة تأملته بنظرة تشع أملاً، طلبت إليه أن ينحني لتتمكن من تقبيل وجنتيه... طبعت قبلتها على خده فسرت دفقات من مشاعر الحب إلى جسده... اعترف بينه وبين نفسه أن خارج الحب لايوجد سوى اليأس والموت،

وتذكر كم كانت محقة وهي تطلب إليه ألايستسلم لليأس، وأن يتذكر قولها دوماً بأنها مستعدة أن تخلصه من عذاباته بحبها... يالروعة تلك الفكرة! كم كان يهزأ منها ويحقرها، غير آبه بمشاعر أعظم إنسانة عرفها! لكن هل ينكر سعادته تلك اللحظة وعجينة الكاتو تنتفخ في الفرن وتنضج، مطلقة روائح ذكية تحرك شهيته أليست العواطف كتلك العجينة بحاجة لنار الحب لتنضجها! أحس بحبه يتجاوز أمه ليشمل خالته التي ستفرح بزيارته بعد انقطاع طويل انتشر حبه من صدره ليغمر الكون كله هذه المرة...

أصرت خالته أن تستبقيهما على الغداء، ووسط دهشة المرأتين وافق مرحباً بالفكرة، كان يأكل بشهية وهو يشعر السعادة تتفتح في ساعات يومه كالورود اليانعة... وفي المساء سهر مع أمه يتابعان الحلقة ١٨٠ من المسلسل المكسيكي المدبلج، وهما يعلقان ساخرين على تدني المستوى الفني والأخلاقي لهذه المسلسلات، لكنه حين أوى إلى فراشه، أحسّ بمايشبه الطعنة، طعنة ألم مباغت تركز في شرسوفه، وهاله الفرق الشاسع بين حالته البارحة وحاله اليوم، إنه على طرفي نقيض! ترى ألايدل هذا الوضع على عدم استقراره؟! وبأنه لم يصل إلى التوازن بعد، ألايدل على أنه شخص لم ينضج بعد؟ إنه يخشى طباعه في تناقضاتها؟ ألايشعر بأنه عدة شخصيات في شخص واحد؟ ترى كيف يوحد بين شخوصه؟ آه فلينم الآن، لينم، لأن دمه لم يتخلص بعد من سموم المنوم الذي ابتلعه البارحة!!

كانت الساعة تتجاوز العاشرة صباحاً حين استيقظ، نظر في ساعته راضياً كونه استيقظ متأخراً، هكذا أزاح عدة ساعات من الضجر القاتل من يومه الذي يتربص به كالعادة، أحس بنشاط، وبأن خلاياه لفظت كل سموم المنوّم، عاد الخجل يخزه في جلده، يالله العار، أيتناول منوماً كي يقتل الوقت ويهرب؟! قطب ممتعضاً من هذا المنطق السخيف والسطحي، واعترف لنفسه أن مشكلته ليست في الضجر أو لأنه لايملك مصروف ثلاثة أيام عطلة العيد، بل لأنه محبط حقاً، ولأنه لايستطيع تحقيق أبسط أحلامه، إنه مشلول تماماً، خرج من قوقعته لتغزوه

رائحة طبخ شهية، قال لأمه صباح الخير مجتهداً أن تبدو ولهجته صادقة، لكنه أحس كيف خذله صوته، وكيف كان لزجاً كأنه ملتصق بالوقت الميت، ردت وتفاؤل البارحة لايزال يغمرها: صباح النور.

سألها: ترى ماذا تطبخين؟!

قالت: احزر من الرائحة؟

قال متحزراً: أشم رائحة بهارات شهية.

ابتسمت: أطبخ بازلاء مع لحم موزات، ورز بالكاري.

قال: ياسلام، كم أحب الكاري، هيا متى سنتغدى.

قالت: ليس قبل الواحدة، لقد دعوت خالتك إلى الغداء.

أحس بامتعاض، لم يكن راغباً برؤيتها، فقد اتخمه حضورها البارحة، لكنه قال حسناً، تمنى لويملك بعض المال ليجلس في مقهى رصيف يطلب شاياً أو بيرة ويعود حاملاً الفاكهة أو الحلوى معه، لشد مايشعر الآن بشهية لقطعة كنافة ساخنة وكثيرة الجبن، تأمل بعمق شعور العجز الذي يخلقه الفقر في نفسه:

ياألهي ماأبغض هذا الشعور، انتابه رفض فظيع لافلاسه المديد، أو لوضعه متأرجحاً بين الإفلاس التام، وبعض الملاليم! وأحس وهو يرشف قهوته فيما أبخرة الكاري تزيد اشتعال حواسه نقمةٍ، أن وضعه الذي استمر هكذا سنوات، قد يستمر إلى الأبد، أمر لايحتمل بأي شكل من الأشكال واستطاع أن يتحرر من خجله وأن يبرر لنفسه أن لجوءه للحبوب المنومة كان له دوافع قوية حقاً، ذكّر نفسه بالجهود الإيجابية الهائلة لمحاربة يأسه وبث الأمل في روحه لكن عبثاً... وبدا أمام نفسه أبله وهو يستعيد صور البارحة في سعادته الطافحة منه، سخر من قراراته الهشة التي خلاصتها التفاؤل، وانتفض غاضباً ليغيرّ وضعية جلوسه وهو يقول لنفسه غاضباً: ياللعار، ياللعار، ليس في جيبي قرش واحد!

وتدفقت الشتائم إلى شفتيه، لكن صوت أمه تغني أغنيتها المفضلة والأبدية (نحن والقمر جيران..) استوقفه، يالحنان هذا الصوت، إنه يسمعها دوماً تردد هذه الأغنية مذ كان طفلاً.. قام ليبدل ملابسه ويتسكع في الشوارع قبل أن يحين موعد الغداء، استوقفته صورة أخته المؤطرة بإطار من الفضة، اقترب منها، ونظر عميقاً في عينيها خاطبها بصوتٍ مسموع: أنت لاتشعرين بي.

ذكرته أمه أن يرجع إلى البيت تمام الواحدة، فيما هو يغلق الباب مغادراً، نادته برقتها المعهودة وطلبت إليه أن يشتري كيلو بندورة في طريق عودته، وعدها أنه سيفعل فيما قلبه يغوص في الهم وهو يتذكر إفلاسه الحقير، سيتظاهر أنه نسي.. صفعته ذكرى عرس اخته منذ سنوات، حين كان بحالة افلاس مشابهة، يومها طلبت إليه أن يشتري لها تقريراً طبياً للزواج، لم يكن يحمل في جيبه سوى خمسين ليرة، وفوجئ أن ثمن تقرير الزواج مئتي ليرة... عاد إلى البيت ظهراً متجاهلاً أمر التقرير، وحين سألته أخته عنه، تظاهر أنه نسي، ثم استطرد بأنه يفضل أن تشتريه بنفسها، لأنهم على الأغلب يطلبون صاحب أو صاحبة العلاقة.

جرّته قدماه إلى شارع الكورنيش، لتتحول روحه إلى نوارس بيضاء ترفرف فوق سطح الماء، تبوح بضيقها للسر الأزرق، تنهد قائلاً: ها أنا كما خلقتني يارب، لاأملك شيئاً أجر نفسي من مكان إلى مكان بواسطة نقلي الوحيدة: قدماي وتوقف رغم أن خطواته كانت سريعة، ليتساءل: إلى متى؟! أما من مخرج؟! وتلّفت حوله كأنه سيعثر على الجواب، أو إيماءات تساعده على مسك طرف الخيط، لكنه لم يجد سوى البنايات الضخمة والفخمة، ومن خلال نوافذها بانت الستائر المثناة المخملية أو من الحرير أو الساتان، وأبدي إعجابه بالفوانيس التي تزين أسقف الشرفات من الخشب المخطط البديع، شتم أصحاب النباتات الفخمة بسره، وسأل ظله القصير الذي ترسمه أشعة الشمس على الأرض: من أين يأتي أولاد الكلب بالمال؟ وأنا طبيب اختصاصي على أعقاب الأربعين لاأملك شيئاً!!

جلس على مقعد مهترئ في الحديقة العامة، متأملاً المتسكعين والفقراء الذين يفترشون العشب أو يتمددون فوق المقاعد مستسلمين باسترخاء لذيذ لدفء الشمس، كان بائع مرطبات يكّسر قطع الثلج الكبيرة ليغمر بها زجاجات المياه الغازية، أحس بعطش ورغبة شديدة في شرب الكولا، تحول الحرمان إلى وجه واضح يقترب منه حتى كادت أنفاسهما تلتحم، فكّر بالأطفال المحرومين والفقراء، كيف يشتهون أشياء كثيرة ولايحصلون عليها، طافت بذهنه صورة متسولة كانت تطلب شوكولا وليس نقوداً.

تناول غداءه مع أمه وخالته، واجتهد أن تكون حالته أقرب لتفاؤله البارحة... حدّث نفسه بمرارة: لم يبق لي سوى متعة الطعام؟ لم تسأله أمه عن البندورة، يبدو أنها نسيت، أسعده أن امرأتين ستتمشيان بعد الغداء، ومأأن انصفق الباب وراء المرأتين حتى داهمته عاصفة كآبة قاتلة، أحس بالتغير الفوري لملامحه شاعراً تماماً كيف سقط القناع المفروض عليه أمام الآخرين، وبان وجهه المجلل بالحزن على حقيقته، تساءل بعينيه الرائعتين المترعتين بالأسى: مامعنى الحياة حين تنعدم فيها الافاق، وإمكانية تحقيق أبسط الأحلام!

فاجأته أمه بعودتها المبكرة، تحمل بيدها كيس البندورة، تفرّس بوجهها المورد، وانتابه شعور أكيد أنها ستعيش أكثر منه... آمن بهذا الشعور الذي داهمه كاليقين، ملحقاً نفسه بالأشخاص الذين يتمتعون بملكة قراءة المستقبل.

* * *

أخوّة ملتبسة

يسأل كريم نفسه: ماالتعريف الأدق للأخوة؟ يجيب بعد تأمل: الأخوة تعني الانزلاق من رحم واحد... يحدّق في الفراغ أمامه، يكتب التعريف على حبيبات الهواء، يضيف كلمة هامة وقطعية: فقط. يحدث نفسه: الجملة غير مكتملة المعنى بدون تلك الإضافة، فالأخوة بتعبير آخر لاتعني شيئاًعلى الإطلاق، سوى انزلاق من رحم واحد، وماالمعاني السامية التي تلّبس لها سوى أوهام أو حالات خاصة.

لماذا يصر الإنسان على تعذيب نفسه بالمثل والأحلام والآمال، كيف يقولون بأن الحياة لاتعاش لولا فسحة الأمل؟ كم بدت له هذه الجملة غريبة ومحملّة بالتناقضات، هو الذي نقب طوال سنوات مراهقته وشبابه في مفهوم الأمل، وتبين له بأنه الخيط الذي يقوده من عذاب إلى عذاب، آه كم تأمل أخته، لايزال حتى الآن يسمبها سلوى الحبيبة، كما كان يناديها حين كانا طفلين. انزلقا من رحم واحد وعاشا في غرفة دافئة العواطف ربع قرن. سلوى الحبيبة تصغره بعامين حبه لها أشبه بالوصاية، طباعهما المختلفة جعلتهما ينشدان لبعضهما أكثر، كان من النوع العنيد الطموح، وهي كانت هشة غير قادرة على المواجهة، كم كان يؤاسيها ويهدئ أعصابها المتوترة قبل كل امتحان، كانت تبكي كطفلة وهي تقول له: لقد نسيت كل شيء، لاأتذكر شيئاً مما درسته، فيربت على كتفها ويمسح شعرها بحنان وهو يقول: كل الطلاب يظنون أنهم نسوا كل مادرسوه، هذا شيء طبيعي...

تقاطعه والدموع في عينيها: لكني والله نسيت كل شيء... اسألني ستتأكد.

ـ هيا، أغسلي وجهك، ودعينا نخرج قليلاً، نتنشق هواء نقياً.

يحس برخاوة جسمها حين ترفض، يصر على خروجهما للنزهة فتذعن، يأخذها إلى الكورنيش يشتري لها الذرة المسلوقة والبوظة ـ يحكي لها حوادث طريفة يحس بالنشوة وهو يسمع ضحكتها الصافية، يحس بيدها الصغيرة تتأبط ذراعه، وبجسدها يرخي ثقله عليه، وتقول له: أنت جبار لاتخشى الامتحان.

يجيب ضاحكاً: أنا لست جباراً، لكنك هشة لدرجة تضحكني.

تعترض: أأنا أثير الضحك في نفسك!

ـ طبعاً، منظرك وأنت تبكين خوفاً من الامتحان يضحكني، كوني أكثر صلابة ياسلوى، أهكذا يواجه الإنسان الحياة؟

ـ لكن الأمر خارج عن إرادتي، لاتتصور كم أخشى الامتحان، ثم، ثم إن نابليون كان يخاف الامتحان.

يضحكه كلامها يقول: لافائدة، لاتزالين طفلة شنتيرة.

ـ أتعرف ياكريم، أحسدك لأنك لاتخاف.

قال: أنت مخطئة، الخوف صفة طبيعية عند الإنسان، كل إنسان يخاف الذي يدعي عدم الخوف كذاب، لكن ليس من وسيلة للتغلب على الخوف سوى مواجهته.

كان يفاجئها دوماً بأشياء تحبها وتدخل البهجة إلى روحها، سوار من فضة ربطات شعر ملونة وبأشكال مبتكرة، تزين بها شعرها الكثيف الناعم، عقود تقليدية، أما استعداده لعيد ميلادها فيبدأ قبل أشهر، ينتظره بحماسة وحب، يجب أن تكون هدية سلوى الحبيبة مدهشة، تدخل أعظم سعادة إلى قلبها.. يبدأ بالاقتطاع من مصروفه قبل أشهر يخبئ المال ورقة فوق ورقة، وكل

عيد يجب أن تكون الهدية من ذهب، وقتها كان يقدر أن يشتري الذهب، لأن العملة كانت تفلح وتزرع كما يقولون، لاينسى كيف تلصص عليها ذات يوم من ثقب الباب وهي تعرض هداياه أمام صديقاتها قائلة: كريم رائع، اسم على مسمى هذا السوار منه، وهذا العقد، وهذا الصليب، كل مافي العلبة هدايا من أخي.

تصفو نفسه وتستسلم لخدرٍ لذيذ ونشوة، يتخيل زرقة صافية لامحدودة يحس روحه تشبه المدى الأزرق الساكن لبحر بلا حدود، هذه هي السعادة إنها مدى أزرق لامحدود، لطالما تساءل لماذا يحب أخته لهذه الدرجة؟ وكم تعّرض لسخرية رفاقه وهم يقولون له: والله لن تدلل زوجتك مثل أختك. لم تدللها كل هذا الدلال؟! هو نفسه لايعرف الجواب، يحس في أعماقها هشاشة وضعفاً، يشعر أنها تطلب القوة منه، تهب في روحه عواطف جامحة غايتها اسعادها، لايمكن أن تشعر بسعادة إن لم تعط الآخر سعادة. اختبر تلك الحقيقة وآمن بها. كانت فرحته تفوق فرحتها بالأغراض البسيطة التي يقدمها لها، ولم يتساءل يوماً لماذا لاتعامله أخته بالمثل! صحيح أنها تقدم له هدية حلوة في عيد ميلاده، إنما لم تتصف هداياها له يوماً بالإدهاش، لم تشعره يوماً بأنها فكرت ماذا ستهديه قبل شهر أو حتى ايام. تأتي هداياها كيفما اتفق: البارحة رأيت هذا القميص، قلت سيليق بكريم، اشتريته لك مارأيك؟! لكنه يتظاهر حين يتسلم هديتها بأن الدنيا لاتسعه من السعادة، يبالغ في شكرها، عدا عيد ميلاده لم تفكر يوماً أن تدخل البهجة إلى قلبه.

أول خيبة مرّة أحسها يوم سافرت مع أمها إلى بيروت لتشتري جهازها استعداداً للعرس الفخم، كانت سعيدة بالعريس الميليونير الذي قدّم لها في ظرف أنيق كدسة من الدولارات، وقال لها: لاتبخلي على نفسك بأي شيء، اشتري كل مايحلو لك.

حين طلبت رأيه بالعريس قال لها: إنه ليس من طينتنا، خيوط حياته لاتتشابك مع خيوط حياتنا، قاطعته: لأفهم ماتقول.

ـ أقصد بإنه تاجر ثري جداً، يهلوس بالأرقام ليل نهار، نحن لسنا من هذه الطينة، نحن نهتم بالعلاقات الإنسانية الحقيقية، لدينا قيم، نهتم بالثقافة صحيح كل إنسان يحب الرفاهية ويسعى للبحبوحة المادية، لكن هذا لايعني أن يكون الربح غاية الحياة، وأن يلهث الإنسان وراء مشاريعه التجارية مضيعاً فرحة الحياة الحقيقية.

قاطعته: أسألك عن رأيك، تبدأ بالمواعظ الفلسفية، ياأخي كن عملياً، ماذا تريد الفتاة في حياتها سوى رجل تعيش معه مرتاحة، منذر ميليونير، تلتمع عيناها ميليونير بالدولار، هل كنت أتوقع أنا الطالبة الجامعية التي تعتبر تأمين وظيفة امتيازاً لها، عريساً مثله.

أول مرة ينتابه غثيان من كلامها، يضطر أن يقول:

ـ وفراس، أما كنت تحبينه؟!

يمتقع وجهها، لم تتوقع تلك الصفعة، فراس زميلها في الجامعة، أحبته ثلاث سنوات ثم افتعلت شجارات وهمية معه لتتملص من حبه وترتمي في دولارات الميليونير رمقته بنظرة عتاب قائلة: فراس ليس مستعداً للزواج، خدمة العلم تنتظره، ولا يملك

قاطعها بل يملك بيتاً...

أسرعت بالتدخل: أتسمي هذا بيتاً، إنه غرفة وصالون.

سألها: وماحاجة الإنسان في بداية حياته لسوى غرفة مريحة تؤوية، ثم إن المستقبل أمامكما واسع، ويمكنكما معاً أن... احتدت قائلة: مهلاً، مهلاً، لاأطيق هذه الجملة (يمكنكما معاً) أتعرف ماتفسيرها، أي أنني سأفيق كل يوم منذ الفجر، لأرتب البيت وأنظفه وأحضر طعام الغداء، ثم سأنطلق لاهثة إلى الوظيفة، لأعود ظهراً مهدودة القوى، إنما سأتحامل على نفسي لأودي واجبي تجاه زوجي وأطفالي، وكل ماأتقاضاه من راتب حقير، بالكاد يكفي ثمن خبز خاصة وأن الحياة تسير من غلاء إلى غلاء...

انفجر في وجهها قائلاً: كفى، كفى، لماذا تسألينني إذاً عن رأي، لماذا

مثّلت على الشاب المسكين بأنك تحبينه وستكونين معه، ماأبشع الغدر، ماأبشع الحب الذي ينتهي بالغدر ياسلوى، لاتطلبي رأي بعد الآن، ارتمي في الملايين وتمرغي عليها، عفواً، ارتمي في ملايين الدولارات. قرّب وجهه منها، ثبت نظره في عينيها الخضراوين الساحراتين وقال: الدولار أتحبينه أكثر شيء في الوجود أليس كذلك؟ كان يلتهب بالغضب.

بكت، خمد الحوار المشتعل ببكائها، تجاهل كل منهمما مادار بينهما من كلمات لاذعة، سافرت إلى بيروت لتستعد للعرس، لتشتري أطناناً من الثياب الداخلية وقمصان النوم الحريرية والأحذية والثياب، لم تفتكره بهدية، كانت تلك أول طعنة يتلقاها منها.

خاف أن يعاتبها، خاف أن يكتشف بذوراً مختبئة في روحها لم تنتش بعد، لم تورق بأعظم شجرة تضرب جذروها عميقاً في الروح: الأنانية.

كانت تفيض بهجة مع كل كيس تفتحه وتدلق محتوياته أمامه، تأمل ياكريم هذا الفستان، أليس رائعاً، أعشق هذا اللون القرمزي، إنه لون الملوك أليس كذلك، وذلك الطقم البني من الجلد الطبيعي، أتعرف إنه أجود نوع في العالم، ماذا لو تحزر سعره! ياإلهي سيغمى عليك! لكن منذر قال لي: لاتبخلي على نفسك بشيء في فوضى الكلام والثياب كانت تبتعد، تبدأ بالغياب، ماعادت سلوى الحبيبة التي تبكي على صدره من مخاوفها وأوهامها، مستّها عصا سحرية الدولار هيجّ روحها، أشفق عليها بأعماقه لأنها ماعادت قادرة على الإحساس بالسلام، سعادتها من النوع الشره والمتطلب والمرهق، كلما اشترت ازادات نهماً للشراء الجلد، والفراء، والشامواه، قذفوها في اروقة جنون العظمة، معطف الفراء الذي حلمت باقتنائه ماعاد يرضيها، صارت تطلب ألواناً أخرى وموديلات غريبة، عدة أدوات التجميل التي أحضرتها، أدهشته، أصابته بزوغان بصري، ونظره يقفز من لون أحمر شفاه إلى لون آخر، علّق بسخرية أليمة: لون شفتيك أجمل من كل هذه الأصبغة.

رمقته بعتاب قائلة: كلها ماركة كريستيان ديور.

جاء دور العطور، حين قربت من أنفه زجاجات العطور ليشمها، انتابته رغبة أن يصفعها، أن يقول لها: إهدئي، كانت مشاعره محتفية وملتبسة، ومرتجفة من السير في طريق الحقيقة، ماكان يريد أن يعترف أن إنسانة أخرى تتكشف له في أعماق أخته، لكن رغبته بصفعها تحولت للمسة حنان وهو يبعد عن أنفه ويقول بلهجة حزن لم يستطع مداراته: ألف مبروك.

دارت أمامه كفراشة، مطيرة تنورتها الحريرية الزرقاء، كاشفة عن فخذين بديعي التكوين، أطرق صامتاً: الميليونير اشترى قوام سلوى البديع ووجهها الملائكي بحفنة من الدولارات... فعلاً الحقيقة مرّة. لكن هل هي سعيدة؟ هكذا تبدو. هذا ماتبحث عنه: الثراء، الحلم المشترك للشباب، كل صديقاتها حسدنها على العريس اللقطة، وكلهن أخذن للاستعداد لحفلة العرس عساهن يعثرن على عريس بمواصفات عريس سلوى، تحديداً في ثرائه! وجد نفسه يفكر بفراس، يحاول تمثل مشاعره تذكر هداياه البسيطة لسلوى، أقلاماً، دفاتر ذكرى أنيقة تقفل بقفلٍ ذهبي أنيق، ورداً طبيعية نضرة، وخاتماً رفيعاً من الذهب محفوراً في باطنه الحرف الأول من اسمه واسم سلوى، إنها الخطبة الحقيقية كما كان يقول، خاتمه ضاع في فوضى الهدايا التي تدفقت على سلوى من خطيبها الثري.

لايمكن أن ينسى هدية الخطبة التي قدّمها منذر لأخته، كانت سلوى تلبس فستاناً ورديا عاري الكتفين، ولاتزين عنقها بأي عقد، استعداداً لتلقي الهدايا، كان عنقها عاجياً مشدوداً مستعداً ليتطوق بالسلاسل، لكن الخطيب المليونير لم يقدم لها سوى عقدٍ وحيدٍ مع إسوارته التي تماثله، فتح علبة مخملية كحلية كبيرة، وأخرج طوقاً اسطوانياً بعرض الاصبعين ينتهي برأس أفعى لها عينان خضراوان من الجاد ولسان أحمر طويل من الزمرد، الاسوارة كانت مماثلة تلتف على الذراع أربع دورات لتنتهي برأس الأفعى نفسه... انتزعت الأفعى شهقة ذعر من صدر كريم... تمثلت أمامه اسطورة الخلق، كيف أغوت الأفعى حواء، أحس أن سلوى غدت أسيرة الأفعى، تعشق الذهب، حتى النظرة التي

شعت من عيني أخته بعد أن لبست طوق العبودية كانت نظرة استسلام طويلة وواعدة، بأنها ستظل الغنمة المطيعة والرقيقة إلى الأبد. الخاتم الخرافي الذي لبسته سلوى كان ينتهي برأس أفعى أيضاً، وقد فغرت فاها وابتلعت فيه فصاً من الماس يساوي ربع مليون ليرة على الأقل، صعق الحضور وحاولوا تخمين ثمن الأفاعي الذهبية! كان قلب كريم يختنق بانفعالات عنيفة ومتمردة إنما مبهمة... كان يحس بالمعاني الكاملة للأفاعي، تلك الأفعى التي دفعت الإنسان للسقوط، أترى العريس يتقصد المعاني الخفية للاسطورة أليس السقوط يعني عبادة الذهب!؟

طوال حفل الخطوبة كانت نظرات كريم تثقب وجه سلوى، تحاول استكشاف أحاسيسها، هل هي سعيدة، أم مبهورة؟ أم متورطة في شرك الدولار المنصوب لها بعناية، لأول مرة يعجز عن قراءة وجهها، نظره يرتطم بالأفعى الذهبية، عينا سلوى غائبتان وراء الكحل والظلال الزرقاء والزهرية التي تلون أجفانها، نظرتها ضبابية زئبقية تجول في كل الوجوه، لكنها لاترى أحداً، نظرة مبهورة بسحر المعدن الأصفر، وحين طلب إليه المصور أن يقترب من أخته ليلتقط لهما صورة تذكارية، تعمدّ أن يثقب بنظره عينيها، كان يحب الصفاء النقي في عينيها، يقول: عيناك مرآتان تعكسان كل لواعج روحك، لكنه الآن لايعثر على روحها، بل يرى حدقتين سوداوين ضيفتين، يحيط بهما خضار بلا بريق كانت حدقتاها السوداوان أشبه بفوهتي بئرين بلا قاع، يتسعان للكثير الكثير من الهدايا الثمينة.

تقلّب في فراشه طويلاً، وصور سلوى وخطيبها تلاحقانه، يقطعان قالب الحلوى بطوابقه العشرة، يتبادلان كؤوس الشمبانيا، ليشربا أنخاباً تبدو لها أنخاب صفقات تجارية بينهما، أحس أن اللسان الأحمر الدقيق للأفعى يكاد يثقب عنق سلوى وينغرس في ترقوتها الرقيقة التي تشف من خلال جلدها المخملي الناصع.

لماذا أحس بالخراب إلى هذا الحد في حفل الخطوبة؟ سيطرت عليه

مشاعر عديدة، الخراب، السقوط، الرغبة بالبكاء كالطوفان، وأخيراً صورة فراس مخذولاً، وحيداً ومطعوناً في غرفة حبه المحطمة... ومن حين لآخر، تمزق تخيلاته صورة سلوى تصرخ محتجة: لاأطيق الكفاح، ستداهمني الشيخوخة باكراً من التعب والإرهاق، أريد أن أرتاح في حياتي... ليس بالحب وحده يحي الإنسان، بل بالدولار!

ضاعت سلوى، طوال الليل كان يهلوس بضياعها، ماعاد يتعرفها، كان يتساءل من تلك الفتاة التي تقصد مزين الشعر ثلاث مرات في الاسبوع، وتبدل طلاء أظافرها كل يوم ليتماشى مع ألوان ثيابها، مشاكلها النفسية العميقة بأن الخياطين يخلفون بمواعيداهم، وتقلق حتى الفجر خوفاً ألاتوفق بفستان عرس يدهش المدعويين لدرجة يحتل اسبوعين على الأقل من أيامهم يمتدحون الفستان البديع.

كان يحاول أن يجد حلقة الوصل بين البيئة التي عاشت فيها سلوى وبين اختيارها لرجل أحلامها، سلوى بنت استاذ الرياضيات المشهور في المدينة بنزاهته وأخلاقه والذي نمىّ عند أولاده حب القراءة والاهتمام بالثقافة والقيم النبيلة، والذي أفنى حياته في الدروس الخصوصية ليؤمن مستوى معيشياً لائقاً لكريم وسلوى، أكان يرضي لها بهذا العريس لوبقي على قيد الحياة؟!

أمه تنظر لارتباط سلوى بسطحية، تفرح للشاب الغني القادم من بلاد العم سام والذي اختار ابنتها من بين مئات الفتيات الحالمات بالعريس الثري، كيف يعيش هناك؟ كيف جمع كل هذه الثروة؟ ماهي طباعه؟ ماأهدافه في الحياة؟ ماالقيم التي يؤمن بها؟ لم تسأل؟ حكى لهم عن طموحه الذي دفعه للهجرة إلى أميركا مذ كان في السابعة عشرة من عمره، عمل في تجارة الموزاييك، ربح الكثير، ثم صار يتاجر بكل شيء.. كلمة مطاطة تبتلع كل أنواع التجارة القانونية وغير القانوينة. فتنته سلوى بقوامها الممشوق البديع وعينيها الخضراوين، اعترف بأن جمالها صعقه، وازداد إعجاباً بها حين عرف الأسرة الشريفة التي تنتمي إليها... الوالد لم يجمع ثروة لكنه جمع سمعة وشرفاً لايقدران بثمن..

وحين سأل كريم أية كتب يحب أن يقرأ، ضحك قائلاً أن لاوقت لديه للقراءة وحين سأله عن الأفلام التي يشاهدها في أميركا، ردّ بسخرية صريحة بأنه يترك السينما للعاطلين عن العمل. كان حديثه المفضّل شرح قصة ثرائه للناس، حدسه المرهف الذي كان يدله على الصفقات الرابحة، تلاعبه الذكي على القوانين بحيث يخرج مثل الشعرة من العجين، عبقريته في شراء عقارات قديمة، ترميمها وبيعها...

في حفل العرس الاسطوري، تربّع العروسان على جسر انجز خصيصاً لهما من خشب الزان، وقد فرشت أرضه بالسجاد الأحمر المرشوش بالورود والياسمين، يعبر عرض بركة واسعة لأشهر فندق في المدينة.

جلس العروسان على كرسيين مذهبين، وقد ارتفع خلفهما جدار من الورود يزيد ارتفاعه عن المترين، بدت سلوى كأنها هابطة من السماء بفستانها الأبيض والطرحة البيضاء المرصعة بأحجار ماسية لمّاعة... كانت فاتنة حقاً بالأضواء المنعكسة عليها وبالعرش الذي تعتليه فوق البركة، أمامها على طاولة صغيرة اصطفت الهدايا فوق مفرش من المخمل الأسود، كلها من الذهب والماس، هدايا من أقارب العريس ومعارفه الذين تجمعهم به أواصِر المصالح العميقة... وحين حان دور كريم ليقدم هديته لاخته، تمنى لو ينهار الجسر وهو يمشي فوقه ليصل إلى صاحبة الجلالة، كان يمر بأسوء أزماته المادية ولم يبق معه ثمن أرخص حلق ذهبي بعد أن دفع أجار العيادة وضريبة الدخل لكن أمه أنقذته من أزمته، أحست به دون أن يشكو أو يلعن، دخلت عليه قوقعته قبل العرس بأيام، وضعت على طاولته علبة صغيرة وهي تنظر إليه بحنان: قدّم هذه الاسوارة لاختك ياحبيبي.

كانت اسوارة جميلة من الذهب مرصعة بأحجار من الفيروز واللؤلؤ، هي هدية الأم يوم زفافها... أسرعت بالخروج من غرفته كي لايحرجه ثقل نظرتها، تلاطمت المشاعر المتناقضة في روحه، ودّ لويصرخ مفرغاً احتقان روحه: خذي اسوارتك، وقدميها أنت لصاحبة الجلالة، أنا لست شحاذاً... تخيل أنه يرمي

الاسوارة أرضاً فتتطاير أحجارها الفيروزية. لكن يده امتدت بانكسار لتلمس المعدن البارد، وحزر أن أمه قصدت الصائغ ليلّمع الاسوارة. اضطر لقبول هدية أمه لأنها تعرف أنه لايملك شيئاً... وحين عبر الجسر الاصطناعي فوق البركة ليصل إلى أخته، ويلبسها الاسوارة في معصمها المختنق بالأساور، ثم ينحني ليقبلها، أصابته لحظة قشعريرة، ودوار، كاد يهوي، لثوان وجد نفسه يغور في عمق البركة، إنما دون أن يرتطم بالقاع، عمق سحيق سحيق، ربما انتابه الدوار من كثافة عطرها، أو رائحة شعرها بعد أن تيبس بشكل هرم فوق رأسها وانغرس فيه تاج عريض من الأحجار اللماعة، أحس بهروب الدم من وجهه، كانت نظراته تغوص في وجهها إنما لم يستطع أن يراها أبداً لأن هالة من ألوان وأنوار زائفة كانت تحيط بها، لم يعثر على عينيها الساحرتين ولاعلى بشرة وجهها النقية كالبلور، لم يرها رغم أنه قبَّل وجنتيها المطليتين بأحمر الخدود، والكريمات اللازمة لتصوير الفيديو.

سمع صوتها غريباً جعل بدنه يقشعر: آه، شكراً ياكريم، شكراً ياحبيبي، عقبالك.

كان يحس بكاميرا الفيديو تتعقبه، وهو يقدم هديته لاخته، ثم تلاحقه هابطاً الجسر حتى جلوسه في كرسيه، كان حزيناً حتى الضياع، يحس بصمت روحه يزداد ثقلاً كلما علت الموسيقى المعلبة في الخارج، كانت الموسيقى أشبه بالعواء وكانت دموعه تنضج وتزداد كثافة وهو يبتلعها متحسساً طعمها المالح في حلقه.

غارت عيناه من الحزن، أحس أنهما ماعادتا سوى صفحتين سوداوين بلابياض، كان يتساءل سؤالاً أبداً يتكرر: لماذا تموت الأشياء الجملية؟! وكانت سذاجة سؤاله كافية لتلخيص كل آلام روحه، مازاد من ألمه فشل ذاكراته في استعادة صور سلوى ببنطال الجينز والقمصان الملونة، أو بتنانيرها الهفهافة البسيطة التي تتمايل معها كيفما تحركت... انبجست عن روحه المحتقنة جملة أشبه بالخاتمة للحفل: ياالسخف الذكريات! من أنت الآن ياسلوى؟ من أنت!

وحده الويسكي ساعده ليلطف مشاعره، فليشرب، كم يحتاج الآن أن يغيب، أن يخّدر ألمه الذي يحاصره كاللعنة... كم يحتاج لمخدّر يجعله يتحمل احتضار سلوى الحبيبة... لتحتلها إمرأة من معدن أصفر بارد وثمين!

* * *

ظل طوال أسابيع لايصدق أحاسيسه بعد سفر اخته إلى أميركا، بدا له كل ماحدث حلماً ثقيلاً، هل تزوجت حقاً؟ أكان حفل العرس حقيقة؟ هل غدت اخته زوجة الميليونير المتعدد المواهب التجارية؟! مابها أيامه تتجرجر وراءه كأنها مربوطة بعقبيه بسلاسل حديدية، لكن أيكذب السرير الفارغ والخزانة شبه الخاوية إلا من ثياب ماعادت تليق بمقامها، وعلب العطور الفارغة المبعثرة في قاع الخزانة؟ هل اختارت سلوى شريك حياتها لأنه أعجبها بصفاته الشخصية أم لثروته؟ سلوى التي كانت تبكي تأثراً حين تقرأ النبي لجبران. والرسائل العذبة التي تبادلها مع مي زيادة، سلوى التي اشترت ثلاثة نسخ من كتاب رسائل محمود درويش وسميح القاسم وأهدتها لصديقاتها المقربات، لأنها افتتنت بالرسائل شديدة العذوبة لدرجة البكاء.. سلوى التي تقلق بعد قراءة روائع دوستوفيسكي، والتي اعترفت لأخيها بأن شخصية راسكونيكوف في الجريمة والعقاب تسيطر على دماغها ولاتستطيع الفرار منها، وبأنها متعاطفة معه حتى الذوبان... أيعقل أن تختار تلك الفراشة الحرة هذا الثري الذي يسخر من القراءة والفن... ولاتعني له الحياة سوى تكديس الدولارات... تذكر كم مرة داهمها تكتب رسائل لفراس، وكيف يتضرج وجهها بحمرة قانية خجلاً.. كيف تخلّت عنه بهذه البساطة؟! ويأتيه الجواب سافراً ساخراً.

ـ لايستطيع الإنسان أن يعبد إلهين، إما المال، وإما الله...

ليس أمامه سوى الفراغ المتثائب يملؤه بالصور، صور مبعثرة مرمية برخاوة في ظلمة أيامة، تتداخل الصور، تلتف الأفعى الذهبية على عنق سلوى، تغرس لسانها الأحمر في حنجرتها، يتدفق الدم غزيراً، تتلوى الأفعى لتحيط بكتاب النبي لجبران تبتلعه، تلحقها الأفعى الأخرى التي تلتف أربع مرات حول معصم

أخته تسرع في زحفها، وتندس تحت وسادتها مصدرةً قهقهات ساخرة من الأخ المسكين، لأفكاره دوي يصم اذنيه، ويرهق جسده، إنه يسمع صوت استهزاء مستمر، أيهزأ به الزمن أم الحياة أم كلاهما؟ لماذا تتصارع عواطفه وأفكاره بهذه الطريقة وتسخّر روحه ملعباً لها! لماذا يشعر أنه مهان مذ ارتبطت اخته بهذا الثري؟ من الذي أهانه؟ أخته أم زوجها أم زمن القهر والمال؟ لماذا يشعر بان شيئاً أصيلاً وحقيقياً في داخله قد دمّر تماماً بعد زواج اخته؟ ولماذا يمنعه الكبرياء من التعبير عن عواطفه وأفكاره أمام أمه على الأقل تلك الشاهدة الصامته على دواخله؟ ظلت أفكاره تتلاطم في رأسه كأمواج هائجة لاتمل في صراعها مع صخور الشاطئ، إلى أن انفجر ذات يوم واجداً متنفساً لاحتباس مشاعره المكبوتة، بجملة بسيطة قالتها أمه: ألايجب أن نكتب لسلوى؟

صرخ مهتاجاً: ولماذا لاتكتب هي، يبدو أنها نسيتنا زوجة الميليونير، ماعاد من مقامها أن تكتب لنا، ماعادت تملك الوقت للتفكير بنا، إنها مشغولة بحساب ثروة زوجها. كان يسترسل بغضبه متلذذاً مفجراً ضيقه من الحياة ولم ينتبه لنظرة الذعر في عيني أمه، وهي تتخذ وضعية الانكماش لتحمي نفسها من عواصف غضبه، بدا وكأنه قد قرر أن يفرغ جعبته من الكلام، وليكن ما يكون، لايهمه الخسائر، سيرمم مايقدر عليه فيما بعد، أو ليترك الخراب قائماً، فلن يبالي!

أمام ذهول أمه، هدأ، عرف أنه سيخجل ليس لأنه قال ماقاله بحق أخته، بل لأنه صار عارياً تماماً أمامها، أمكنه أن يقرأ أفكارها، ستعزو ثورة غضبه لغيرته من اخته، ستعذره، بعد أن هدأت عواصفه دهش كيف باح بكل مكنونات قلبه أمام أمه، حرقته صورة سلوى بوجهها النقي ونظرتها الهادئة وهي ترنو إليه عاتبة، صورتها طالعة من قلبه، تعاتبه: أهكذا تحكي عني ياكريم؟!

اجترّ ندمه لأيام، فرّغه بعدها برسالة مشحونة بالعواطف والأفكار لأخته، بدا متصالحاً مع نفسه ومعها ومع العالم وهو يدخل الرسالة من شق صندوق البريد متمنياً وصولها السريع إلى أخته الحبيبة.

* * *

أيقظته فجراً برنين الهاتف الملحّ وصوتها المترع بالشوق، المتلهف للكلام:

ـ كريم، كم أنا مشتاقة إليك.

ـ من سلوى الحبيبة!

قالها بصوتٍ صاف نابع من قلبه، زال تعكّر روحه، وانقشعت غيوم خيباته، نسي الخطوبة والزواج والأفاعي الذهبية، والتماع عينيها أمام مظاهر البذخ، كانا وجودين، صوتين، يصل بينهما سلك المحبة المتجذر عميقاً منذ الطفولة.

ـ ماأحلى رسالتك، لقد أبكتني طويلاً، أرجوك ياأخي اكتب لي دائماً.

طرب لحرارة صوتها قال: سأكتب لك دوماً، وأنت أيضاً اكتبي لي.

أحس باختناق صوتها بالدموع وهي تقول: أنا، أنا أحس نفسي تائهة، كل شيء حولي غريب لاأعرف كيف.. ا ختنق صوتها، ذاب قلبه، تمنى لو يخترق سلك الهاتف، ويتحدى المسافات، ليحضن رأسها ويؤاسيها كما كان يفعل حين تبكي خوفاً من الامتحان، قال بلهجة تصنع الفرح:

ـ ياسلوى الصغيرة، الحبيبة، هذا شيء طبيعي في البداية، لكنك ستعتادين، كيف حال منذر؟ هل أنت مرتاحة معه؟

ـ إنه لطيف ويغمرني بالهدايا، لكنه مشغول جداً، لاأراه إلامساءً، وكل النهار أظل وحدي.

ـ اشغلي وقتك ياسلوى، ألم تتسجلي في معهد لتعلم الانكليزية.

ـ لا، أحس نفسي مشوشة، رغم أن منذر يلح علي لأتسجل في المعهد.

ـ بالتأكيد ياأختي، ستشغلين نفسك، وستمتلكين الوسيلة الوحيدة للدخول في المجتمع الجديد اللغة. ـ وأنت ماأخبارك ياكريم، أمازلت تتأرجح بين العيادة والمشفى، اكتب لي عن كل شيء بالتفصيل.

يجيب ضاحكاً: لم يمضي سوى شهر على سفرك، وتتوقعين تغيرات

كثيرة، لم يتغير شيء، أخباري هي نفسها، كما قلت أتأرجح بين العيادة والمشفى، ومساءً مع شلة مقاهي الرصيف، نجترّ الأحاديث نفسها.

ـ أحسدك ياكريم.

ـ أتحسدينني، على ماذا؟

ـ لأنك تعيش في وطنك، في مدينتك، وسط أهلك وأصدقائك. مع أمك الحبيبة..

ـ إنها قربي تنتظر دورها لتكلمك.

ـ حسناً، لكن عدني ياكريم أن تكتب لي دوماً.

ـ أعدك ياسلوى الحبيبة، والآن سأعد قهوتي وسأكتب لك وأنا أرشفها.

ـ أشكرك ياأخي الحبيب، أشكرك ياصديقي الوحيد.

ترك أمه وأخته تتناجيان، ابتدأ يكتب لأخته بشحنة عاطفية عالية، تجسدت صورتها أمامه مراهقة صغيرة تجلس على طرف سريره وفي حضنها كتاب الجغرافية وتقول له: نسيت كل شيء، وتذرف الدموع. استهل رسالته مبتدئاً بوصف صورتها باكية خوفاً من الامتحان مفجراً شوقه وتعاطفه معها إنطلاقاً من هذه الصورة، سيّر قلمه نحو هدف أساسي: مساعدتها في غربتها، وأسعده أن يرضي غرورها وهو يصف مشاعر افتقاده لها، وتخيلّه لطيفها في البيت كيفما تحرك، ولمّح بأن ظروفه جيدة وبأن عمله في العيادة يتحسن. ترى لماذا يكذب؟ ربما لأنه أحس أن الروح العالية والمتفائلة في الرسالة يجب أن تشمله أيضاً حتى لواضطر للكذب.. وجد نفسه يبحث في ألبوم الصور عن صورة معينة طفت في خياله، صورتهما معاً على الشرفة يشربان عصير البرتقال ويمسكان الجريدة التي أعلن فيها أسماء الناجحين في الشهادة الثانوية، وأسم سلوى بينها، روحها تضحك في هذه الصورة يكاد يسمع رنين ضحكتها الصماء، تخيلّ مقدار البهجة التي ستشعرها وهي تتأمل تلك الصورة الرائعة بالأبيض والأسود. حثّ أمه على الكتابة لسلوى أيضاً، قالت له وهي تمسح

دموعها: الله يلعن الغربة، لاأستطيع أن أكتب الآن وأنا منفعلة هكذا. لكنه قدم لها فنجان قهوة ووضع في حضنها أوراقاً بيضاء وقلماً وقال هيا اكتبي، لاشيء سيسعدها كرسالة منك. من شق علبة البريد انسلّت الرسالة من بين أصابعه، وقف لبرهة قبل أن ينطلق إلى المشفى، لكأن شحنة من عواطفه الجياشة تنطلق من صدره عبر الشق وتعلق بالرسالة. تمنى لو تصلها الرسالة بأسرع مايمكن وأن تدخل البهجة والطمأنينة إلى قلبها.

أحس أنه يجرجر ندمه مع خطواته البطيئة إلى المشفى، كم قسا عليها تلك المسكينة، تذكرّ كيف صرخ بها محتداً وهي تدلق محتويات أكياس مشترياتها، واتهمها بأنها تغيرت وأصبحت تهتم بالمظاهر وتعشق الذهب... صورها خياله في تلك اللحظة طفلة بريئة تفرح بالعيد وهداياه كيف استطاع أن يعكر فرحتها ويقسو عليها ألم يكن فرحها عادياً يشبه فرح كل شابة تنتظر يوم زفافها؟ وتفرح بجهازها؟ هل اتهمها بأنها تخلّت عن حبيبها مقابل العريس الثري؟!

أيتهمها أم يتهم زمناً عاهراً، جعل الناس لاتقدر أن تعيش وأن تحب بدون المال! لوكان الطريق سهلاً وممهداً في علاقتها مع فراس، لما تخلّت عنه، لقد أحست بالتأكيد باستحالة وبصعوبات هائلة تنتظرها، أحست بلا جدوى الكفاح ـ ترجع صوتها في أذنه ـ براتبينا معاً بالكاد نأكل، نأكل فقط! معها حق، أين مكان الحب في عيشة خانقة كهذه! إنها حرةٌ في اختيارها ومنذر رجل ناجح، كافح سنوات في أميركا حتى جمع ثروة... اعتذر لطيفها من كل قلبه، ووعدها أنه سيظل أميناً لها وسنداً مهما كانت بعيدة، غضّ بصره وخياله يصفعه بصورتها مهتاجاً يتهمها بالبخل وقلة الاحساس لأنها لم تحضر له هدية حين ذهبت للتسوق في بيروت، صحيح أنه لم يعبّر أمامها عن استيائه، لكن الخطيئة تبدأ من الفكر، كم يغذرها الآن، بالتأكيد نسيت غاب عن ذهنها وهي مهتاجة من السعادة، والارتباك من الحياة الجديدة التي تنتظرها، أن تشتري له هدية، لكن قشعريرة تقزز هزّت بدنه وهو يدخل الباب الحديدي للمشفى

وصوتها يطن بأذنه: منذر يغمرني بالهدايا، انطفأت للحال شحنة الحب المتفائلة العالية التي ابتدأ بها صباحه بسماعه صوتها. لكن لماذا همدت عواطفه وتوارت شمس أشواقه وراء سحب داكنة من الخيبات؟! ترى أين يكمن الجانب المقزز في كلمة (الهدايا) تخيل منذر يغمر أخته بالهدايا ليمتلكها، علاقتهما علاقة امتلاك ومصالح، ليس فيها حب ورقة وانعتاق عن الماديات! لكن، أليس من واجب الزوج ـ خاصة إذا كان ثرياً ـ أن يقدم الهدايا لزوجته أحس بالتعب ينتشر في أوصاله بتموجات متلاحقة، تمنّى لو يغرق في نوم عميق، يعفيه من التفكير والتحليل، تنبه بأسى كيف أن مشاعره وأفكاره لاتقف على أرض ثابتة بل تتأرجح بين أقصى الحب والتفاؤل وبين هوة الحزن واليأس! أيدل هذا أنه شخص غير ناضج بعد؟ أم أنه لايزال يسعى ليجد صيغة يتعامل بها مع زمن التغيرات والخيبات هذا! متشبثاً بخيوط الوهم والتفاؤل التي سرعان ماتتقطع.

* * *

كيف يتراكم الزمن أحياناً بطريقة خفية، تجعل الإنسان يتوقف مشدوهاً وهو ينظر للوراء، غير مصدق أن سنواتٍ صارت تفصله عما اعتقده قريباً منه، لكأنه حدث البارحة. هاهي سلوى تغدو أماً، وتسافر أمه إلى أميركا لتقضي بجانبها ثلاثة أشهر، مرّت سنتان لم يلتقيا، كان يكتب لها بانتظام رسائل يتقصد أن تفرحها، يتلقى رسائلها القليلة مجبراً نفسه على الابتسام بعد انتهائه من قراءتها، لكن دخيلته كانت تتقلص بحزن وخيبة في كل مرة... مالذي يشعره بالخيبة في رسائل أخته؟ إنها لطيفة، تبثه أشواقها وتتمنى له الخير والسعادة، وتتمنى لظروفه المهنية أن تتحسن، وتتمنى اللقاء القريب... و ليس سوى التمنيات، التي يشعرها جاهزة سلفاً كأنها تقتطعها من كتب الرسائل التي تباع في المكتبات. إنه يقرأ تمنياتها وأشواقها فلاتدب في أوصاله أية حرارة. إنه يشعر بزيف كبير في علاقتهما، زيف بدأ يتشكل ويتسرب منذ زواجها، تحديداً خطوبتها.

لم تعد معنية به، خيوط حياتها ماعادت تتشابك مع خيوط حياته،

يفصلهما محيط كبير من دولارات وعطايا. تحوّل في خيالها إلى صورة، إنه الأخ المحب الذي تصلها منه رسالة كل عشرة أيام، لكن إلى أي حد يتواجد في مستقبلها وتفكيرها؟ هاقد مضى ثلاث سنوات لم يلتقيا، كانت تفتكره خلالها بطريقة تسبب له عظيم الألم، تحوّل له مبلغاً ثابتاً كل عيد ميلاده مئتي دولار، هديتها له، يااللهدية التي يغدو استلامها غصّة في الحلق، جرحاً في القلب! اضطر لقبولها لحاجته الماسة إليها، في المرة الأولى كان محاصراً بضريبة الدخل، وفي المرة الثانية كانت عيادته تمر بأسوأ فترة عرفها إذ لم يقصده مريض طوال ثلاثة أشهر، وفي المرة الثالثة كانت ضريبة التنظيفات والتي يسميها بسره ضريبة القمامة تفاجئه بتراكمها خلال ثلاث سنوات كان يحتاج لصدقة أخته على شكل هدية، أو لهديتها التي تأخذ شكل صدقة، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التساؤل: أي مبلغ تافه هذا مقارنة مع مستوى معيشتها وثراء زوجها... وهو يتفرج بعيون خرساء على فيضانات الثروة، اشترى زوجها فيلا في العاصمة، وكلف أشهر المهندسين ليشيدوا له قصراً في قريته التي شهدت ولادتهِ، ولم تتنبأ له بكل هذه الثروة، واشترى شاليه من طابقين على البحر... رحلات سياحية في أوروبا، أمام هذا المستوى الفاحش من الثراء، أتكون هديته السنوية من أخته مئتي دولار!! هل كان ليتصرف مثلها لوتبادلا المواقع... ياه، ياه تنطلق من أعماقه محملّة بالشجن، يتخيل أنه سيغمرها بالهدايا، وسيجدد أثاث البيت القديم، وسيشتري لها سيارة، ويدعوها لزيارته في أميركا مرة على الأقل كل سنة، وسيصحبها معه في رحلاته السياحية، إنه واثق أنه سيتصرف بهذه الطريقة لو شاء قدره وسكب عليه الثروة. مامعنى الحب إن لم يكن فعلاً؟ أي سخف لأشواق من الورق، وتمنيات من حبر ورغبات تأخذ شكل طوابع بريدية!!

* * *

انتابه فرح هائج ممزوج بالقلق حين قررت زيارة الوطن بعد حوالي أربع سنوات من مغادرته ستحضر مع طفلتها التي يتابع نموها من خلال صورها، يشتاق أن يضمها إلى صدره ويقبلها ويتشممها... كان أول رد فعل له حين

علم بموعد حضورها أنه قصد ساحة الأسماك واشترى أجود أنواع السمك، بسخاء، انهارت ميزانيته بعد أن دفع ثروته لبائع الأسماك! داعبه خياله مازحاً، أنت دفعت كل ماتملك ثمن السمك، ليكون غداء فاخراً تعده لاختك، ترى هل تدفع هي كل ثروتها لك!! ياللمزاح الثقيل والغبي، اتهم حرّ تموز الذي لايطاق بأنه سبب مزاحه الثقيل هذا لسوء الحظ أجلّت أخته سفرها عشرة أيام بسبب مرض ابنتها، انتابه قلق عظيم من فساد الأسماك بسبب انقطاع التيار الكهربائي لساعات كل يوم، وبسبب حر تموز الخانق، لكنه كان يعزي نفسه بأن السمك مثلج في الفريزر، كان يجس الأسماك مراراً في اليوم خشية أن تلين وتفسد، وكل مرة كانت رائحتها الواخزة تخرش أنفه، اللعنة على سوء الحظ، أكان من الضروري أن تمرض الطفلة ليتأخر سفر أخته. كان فرحاً وقلقاً في آن، اشترى دمية للصغيرة وفستاناً حلواً، تمنى لو يشتري لها الكثير من الثياب الجميلة من البالا، لكنه كان يحدس أن ابنة الميليونير لايمكن أن تلبس من البالا!

اشترى لأخته المجموعة الكاملة لنزار قباني، بالتقسيط، دهش صاحب المكتبة من حقيقة أن طبيب اختصاصي بالجراحة ومنذ أكثر من عشر سنوات يشتري كتباً بالتقسيط!

كان لقاؤه معها حاراً، لكنه مبطن بأمور غير معلنة، قلبه مبتهج لكنه في وضع ترقب. أحب الصغيرة التي ألفته بسرعة، قلبت سلوى مجموعة نزار قباني وهي تعترف له أنها لم تقرأ كلمة واحدة منذ زواجها... بدورها قدّمت له فيض هداياها، حذاء بديع من الجلد، ثلاث قمصان من القطن، كنزة رمادية من الكشمير، طقم من الجوخ الفاخر، بيجامة رياضة، ربطات عنق حزر أنها لزوجها لأن تجعدات قماشها عند العقدة كانت واضحة، غضّ نظره رغم إحساسه بغصة ألم، لم يشأ أن يعلّق كي لايفسد الجو البهيج بينهم... طبخت الأم الأسماك مشوية مع الزيت والثوم كما تفضلّها سلوى، وما أن تذوقت سلوى اللقمة الأولى حتى دفعت الصحن بعيداً وهي تقول بامتعاض:

ـ السمك فاسد، لاتأكلوه وإلا تسممنا.

أسرع يقول وهو يهرب بنظرته المنكسرة بعيداً عن أمه وأخته: معك حق، الأفضل أن نرميها في القمامة.

العين الوحيدة التي استطاع أن ينظر إليها، وتتعاطف معه هي عين السمكة المستديرة، وقد فقدت كل أملٍ لها، علّقت أمه مؤاسيه: خسارة، هذه الأسماك من أفخر الأنواع... قال كاظماً غيظه المتعاظم: هيا، لنرميها في القمامة. كان يعرف وهو يدفن الأسماك في عمق الكيس الأسود أنه لن يستطيع شراء مثلها إلا إذا تحنن عليه القدر، وأرسل إلى عيادته عدة مرضى! كل الحوارات التي دارت في ذهنه بينه وبينها تبخرّت، أحاديث الروح والبوح العميق التي انتظرها شهوراً قبل مجيئها ذابت في الفراغ... كان أكثر قرباً منها حين كان يراسلها، استنبط ذهنه تعاريف جديدة للوحدة: أن تكون وحيداً، يعني ألاتقدر على البوح بمكنونات قلبك لأناس كنت تعتقد أنهم قريبون منك ياه كم تغيرت ياسلوى، أكاد لاأعرفك، أنت تلهثين من عمارة إلى عمارة بحثاً عن مكتب له مواصفات معينة رسمها لك زوجك سلفاً... كل يوم تزورين عدة مكاتب لتختارين الأنسب الذي سيكون في المستقبل مركزاً لأحد فروع شركة زوجك التجارية... تعودين منهكة من التعب والحر، تنامين، لتستيقظين بعد ساعات تبثين متاعبك، وهموم بحثك اللامجدي عن المكتب المطلوب.

لم يخطر ببالها أن تزور أخاها في عيادة تحنيطه الأبدية، وتنظر إليه بحنان قائلة: تكّلم ياكريم اشتقت لحديث الروح، ومأأخبارك؟ ألم يتحسن عملك؟ سأساعدك، اعتمد علي، فأنا ثرية جداً. تعال نقلّب أنا وأنت احتمالات مساعدتي لك؟ لم تسأله أياً من تلك الأسئلة الإنسانية العادية، اكتشف أنه لايستطيع النظر في عينيها مباشرة، كان يسترسل في تأمل صورتها المنعكسة في المرآة أو زجاج النافذة، أو صورتها المحفورة في ذاكرته، يعاتبها برقة وعنف أيضاً، ويسألها بحرقة: لماذا يتغيرّ البشر! حاول أن يجد لها أعذاراً كونها أصبحت أماً وزوجة، تحمل على كاهلها الكثير من المسؤوليات لكنه لم يكن يقتنع هو نفسه بهذه الحجج.

وأخيراً وفقت بمكتب يتمتع بالمواصفات المطلوبة، جرّته من يده ليتفرج عليه ياسلام مدخل بناء رائع مزين بالنباتات الطويلة بلاط من رخام، مكتب واسع اكساؤه ممتاز... سألته: مارأيك ياكريم؟

كانت الفرحة تقفز من عينيها وهي تسأل، تخيل أنه لو لم يجيب فلن تشعر بصمته، إنها لاترى سوى نفسها ولاتسمع سوى صوتها، قرّر ألا يجيب. تابعت: أليس هذا المكتب رائعاً؟ الحمد لله وفقت أخيراً به، لوتعرف كم قلقت ياكريم، خفت ألا أوفق بالمواصفات التي يريدها منذر، بصراحة هي مواصفات دقيقة، يريد مكتباً في مركز المدينة، واسعاً، وقريباً من المرفأ، وإكساؤه فخم، أتعرف اجتماع الصفات الثلاثة صعب، فالمكاتب وسط البلد صغيرة عادة و..

فكر أن يتركها ويمضي، ترى هل ستشعر بانصرافه! انسلّ من أمامها ودخل المطبخ الفخم من اللونين الأزرق والأبيض، كان يسمع صوتها تتكلم... لقد فحصت الألمنيوم إنه من أجود الأنواع، لاتؤثر عليه الرطوبة أبداً، كذلك ورق الجدران و.. إيه، كريم، كريم، أين أنت؟

فتح فمه بصعوبة ليقول بصوت جاف: في المطبخ.

لحقته، تأبطت ذراعه، رائع هذا المطبخ أليس كذلك؟ مسحت على السيراميك بحنان، فكّر أنها لم تمسح على شعره بهذا الحنان حين التقيا بعد غربة أربع سنوات! رسم وجهها قلقاً جدياً، سألته: هل أصبح من السهل استيراد السيراميك الإيطالي والفرنسي! لم تعد روحه تطيق احتمال المزيد، انتفض قائلاً: لقد نسيت موعداً هاماً، اعذريني سأتركك.

انسلّ خارجاً قبل أن تعلّق بكلمة، كان يختنق فعلاً، إنه يكرهها، يكرهها، يكره الشخصية التي آلت إليها، يالأنانيتها المفرطة، وانعدام إحساسها به... كانت تتأفف من الحر طوال الشهر الذي قضته في بيت أهلها، وهو كان يرشقها بنظرات قاسية وباردة، تمنى لو يملك الجرأة ويقول لها: أيضايقك الحر، يمكنك إهداؤنا مكيف هواء، لم يستطع كبح جماح نقمته، سأل أمه ذات يوم متعجباً: أكاد لاأعرفها، إنها غارقة بالمال، ترى ألا تفكر أن تستبدل لنا هذا البراد

المهترئ ببراد جديد أو تهدينا مكيف هواء، أو تشتري مقاعد جديدة للصالون...

قالت أمه: أنا لأريد منها شيئاً زادت لهجتها المسالمة والزاهدة من حنقه قال: أعرف أنك لا ترغبين بشيء، لأتطلبين شيئاً، ليس من داع للطلب، لكن هي، لو كانت تحبنا حقاً وتفكر بنا، كيف ترضى ألاتغمرنا بعطاياها! أيعقل أن تكون أنانية وبخيلة إلى هذا الحد!

ـ لأحب أن تحكي عن أختك هكذا ياكريم، لاتدع الحقد يتسلل إلى قلبك، ثم، ثم إن المال، مال زوجها. صرخ: لافائدة، من الحديث معك، أنت تتجاهلين الخشبة التي تقلع العين، تريدين أن تجدي لها الأعذار عنوة. في الأيام الأخيرة لزيارتها، انهمكت في شراء الذهب، لها وللصغيرة، فكرّ كريم لو يحكي لها من باب الأختبار عن شغفه الشديد بذلك الخاتم الذي تمنى شراءه، كان يود لو يتفرج كيف ستخذله، فلترحل بسلام، لترجع إلى قصرها العاجي وليبقى هو أسير قوقعته الأبدية، لكن السؤال الذي يعذبه: كيف سيواجه مخزون ذاكرته من الصور الدافئة والعذبة التي جمعتهما حقاً!! أتراه يبالغ ويضخم الأمور كما تقول عنه أمه دائماً؟ مامعنى الأخوّة إذاً، مامعنى المحبة؟ ومامعنى العطاء والمشاركة؟ أيحتاج أن يعيد النظر بكل القيم التي نشأ عليها؟ من أعطى القداسة للمقدسات؟ وقابين وهابيل أما كانا أخوين أيضاً! يالسخف الذكريات حين تبدو مقطوعة لايربطها بالحاضر أي رابط...

سافرت محملّة بالأغراض، ذرفت دموعاً غزيرة على فراق أمها وأخيها، لكن خوفها من سرقة الذهب الذي تحمله تغلب على كل مشاعرها، آخر جملة تفوهت بها: كل ماأرجوه ألايسرق الذهب الذي اشتريته.

* * *

ماعاد قادراً أن يكتب لها، بدت له رسائله التي تنضح عذوبة ورقة، المنطلقة من الماضي الدافئ والممتدة نحو المستقبل ساذجة ومضحكة، لماذا تلح عليه أن يكتب لها؟! ماذا تعني لها كلماته الغارقة في المعنى والعاطفة؟ هي التي

تلهث وراء مشاريع زوجها في توسيع الثروة، وتحقيق الأرباح الخيالية... لعل رسائله كانت وسيلتها الوحيدة للتذكر، كي لاتنسى سنوات طفولتها وشبابها كلياً، كي لاتشعر بأنها مقتلعة تماماً من جذورها، كي تذكر ولادتها الأولى في بيت الأستاذ المكافح، والأسرة التي لاتملك أي رصيد سوى المحبة..

كرّت الأيام والأشهر، كل يوم يمر يشعره بسعادة خبيثة كونه لم يكتب لها، رغم محاولات أمه: أكتب لاختك فهي حامل ومتعبة، فإنه كان يجرؤ ليرد على كلامها بنظرة ساخرة ووقحة، هي بدورها انقطعت رسائلها نهائياً، اكتفت باتصالات هاتفية متباعدة، كان يرفض أن يكلمها موصياً أمه أن تخبرها بأنه غير موجود أو نائم.

أنجبت صبياً، فأهداها زوجها الشالية والمكتب، أحسّ أن من واجبه أن يتصل بها ويبارك لها بالمولود، عاتبته على انقطاع رسائله وعلى تهربه من التحدث معها في الهاتف، قالت بصوت كله عتاب: أهكذا يعامل الأخ أخته الوحيدة؟

لكنه ردّ بعتابٍ أقوى: أهكذا تعامل الأخت أخاها الوحيد!

ـ لكني مشغولة كثيراً ياكريم، والغربة شيء صعب، كيف أصفه لك؟

كان يحس أن صوتها قادم من الماضي البعيد وليس من أميركا، كم حملته هذه المكالمة القصيرة أشجاناً لطيفة، يستحيل أن ينسى الأيام الجميلة الدافئة التي جمعتهما، إنها سلوى الحبيبة فعلاً، التي كانت تتأبط ذراعه وهما يتنزهان على الكورنيش كل منهما يتخيل الزمن الآتي بطريقة مختلفة كانت تشعر بالخوف دوماً من المستقبل، تحكي عن الضمانات، وهو كان يسخر من منطقها ويقول لها بأن الإنسان الناجح وذا الإرادة القوية يصنع المعجزات... أين موقعهما الآن من هذا الكلام؟! هل انقلبت الصورة، فصار هو مرعوباً من المستقبل ويبحث عن الضمانات، وهي غرقت في النعيم واليقين وماعاد شيء يقلقها... مهزوم أنا ياأختي مهزوم، آه لو تعرفين سنوات الصبر والتحمل التي دفعت ثمنها أعصابي وشبابي، أتراك لاتشعرين بي؟! هل يحتاج الحزين

والمخذول أن يحكي عن نفسه أمام من يحبه؟! أليس للحب رادار قوياً ينبه المحب لأحزان المحبوب وظروفه الصعبة، هل أبوح لك بمكنونات نفسي ياسلوى؟ ربما لن تصدقي أن أحوالي تتدهور لهذه الدرجة! كان يحدث نفسه باستمرار وصورتها في ذهنه، ولم يبق إلا أن يمسك القلم ويكتب لها، لأن الأفكار تجيش في رأسه منذ أسابيع، ورغم مخاوفه وإحساسه بالانكسار والمهانة تجاه أخته، بسبب الحاجة، إلا أنه كان عارفاً أنه سيكتب أخيراً. استطاع أن يفهم كيف ينكسر الإنسان تجاه الحاجة، وكيف تصبح كلمات مثل الكرامة، عزة النفس، الكبرياء، مجرد دخان، لاتثير في النفس المنهكة من الحرمان أية عزيمة أمسك القلم بوضعية الكتابة، كان سيقوم بعملية تبييض لعشرات الرسائل الذهنية التي يكتبها لها منذ أسابيع، لن يفعل شيئاً الآن سوى تظهير الصورة على الورق. أفلت القلم من يده ليرسم علامة الصليب، ورغم عدم إيمانه بكل تلك الطقوس، لكنه كان بحاجة لأشياء تؤازره ولو لم يكن مقتنعاً بها، بدت الزهور التي وضعتها أمه في الكأس منذ ثلاثة أيام على درجة عالية من النضارة، ابتسم معتبراً المشهد علامة على نجاح خطته في الرسالة... تلّفت حوله باحثاً في ألفة المكان الذي يحفظه عن ظهر قلب عن علامات تفسّر بأنها السعد، لمح ذبابة مقلوبة على ظهرها، مهتاجة من الحركة، تأمل تلك النقطة السوداء الكبيرة المقززة، إنما المتمتعة بنعمة الحياة، كيف تستميت لتقف على أرجلها، إنها في ورطة، هو أيضاً متورط، تساءل: من منا متورط أكثر؟ حدّث نفسه، لو نجحت الذبابة في الطيران، سينجح هو في مهمته.

أمسك قلمه بجدية ليباشر الكتابة، استسخف أفكاره العابثة، ابتدأ الكتابة باستعطاف صريح لم يستطع أن يكذبه على نفسه الحبيبة: سلوى الحبيبة. تنبه لاندلاق تملقه منذ البداية للهجة الاستعطاف والاسترحام المبطنة في المقدمة، لكن لابأس، لأتابع، فالغاية تبرر الوسيلة، هذا ماأحسه، يجب أن يعطي أقوى زخم عاطفي وفكري في رسالته كي تتعاطف معه وتوافقه على مشروعه، سيقنع أخته أن تساعده بأن تسمح بتأجير المكتب الرائع لأستاذ اللغة الفرنسية، الفرنسي، الذي يخدم جنديته في المركز الثقافي، السيد ماتيو شاب عازب،

أصدقاؤه قلة، لطيف وراق، سيحافظ على المكتب، ولولا ضيقه المادي الذي ماعاد محتملاً لما فكر بهذا الحل... لكنه وبعد تفكير عميق، وبعد أن فقد الأمل بإمكانية تحسن عمله الخاص أو زيادة الرواتب، فكر أن لاملجأ حقيقي له سوى أخته الحبيبة، وبأنها وحدها قادرة على إنقاذه من أزماته المادية، ختم رسالته بأن صورهما معاً كيف يجلسان متقابلين يدرسان، وبينهما الطاولة الخضراء المفروشة بالكتب تلح على ذهنه هذه الأيام، ذكرها باليوم الذي ألح عليها بشرب القهوة كي تقاوم النعاس وكيف تحوّلت لطقس لايمكن أن يبدأا الدراسة من دونه، لم يكن يعرف أنه سيكتب عن هذه الذكريات، لأن أياً من رسائله الذهنية لم تتطرق حقيقة لهذه الذكريات البعيدة، أتراه يتعمد أن يشحذ كل الزخم المعنوي لماضيهما المشترك، كي يكون تأثيره فيها أعظيماً، فتوافق على مساعدته، وهكذا يضمن حياة كريمة، أيامها معافاة، لايلحقها ذعر الحاجة... تخيلّ أنها ستسارع للاتصال به حال تسلمها رسالته، وستقول له بعتابٍ شديد: ياأخي الحبيب، افعل ماتشاء بالمكتب، أجرّه، استثمره بالطريقة التي تراها مناسبة، تخيل أن الأستاذ الفرنسي سيدفع له مقدماً أجار المكتب عن سنة، وأنه سيقبض المال، ويستأجر كشكاً لبيع الفلافل أو الشاورما، ألم يحلف له بائع الشاورما أن ربحه في اليوم يعادل ألفي ليرة أحياناً، أي حوالي نصف راتب طبيب اختصاصي!!!

حانت منه التفاته ليرى الذبابة جثة هامدة، انقبض قلبه، اعتبر أن هذه علامة شؤم ودليل على فشل مسعاه، لكن ذهنه سرعان ماتحايل في تفسير موت الحشرة، وفسرّه له موت الشر! طوى الرسالة راسماً مجدداً وبغير اقتناع تام علامة الصليب ودسها في الظرف، كتب في دفتر مذكراته، تاريخ كتابة الرسالة، وهو نفسه تاريخ إرسالها بالبريد. بدا راضياً عن الصيغة التي كتب بها الرساله، لكنه لم يستطع تفسير موجة الحزن التي داهمته بعد إرسالها بالبريد، قلبه يحدثه أن نتيجة هذه الرسالة ستكون مدمرة، وبأنها الشعرة التي ستقصم ظهر البعير، سيظل مترقباً لجوابها أياماً، إن قبلت فستكون أخته الحبيبة المتفهمة كما تحفظها ذاكرته البعيدة، وإن تبدو له تلك الذكريات ضبابية وكأنها لم

تحصل في الواقع، وإن رفضت، عندها سينفجر، ولن يتورع عن قول أي شيء، والتصريح بحقيقته أفكاره وتقويمه لها. بدا له احتمال رفضها شبه مستحيل، وغير منطقي. كيف سترفض وهي ثرية ثراء فاحشاً، وهذا المكتب المغلق لاتحتاجه، ربما نسيته في زحمة ممتلكاتها، بالتأكيد ستوافق على مساعدة أخيها الوحيد، وستسمح له بأن يؤجره عامين لأستاذ اللغة الفرنسية، كما يتمنى، تمنّى لويصّدق صوت منطقه الخاص، لكن ثمة تساؤل أتاه طارئاً، بلبله بقوة: لماذا لم تصارح أمك بفكرتك وبكتابة رسالة لأختك بخصوص هذه الفكرة؟ ألايدل ذلك على تخوّف مبطنّ من رفض أختك؟

لام نفسه، لماذا لم يطلبها بالهاتف، لواختصر الوقت وعرف الجواب حالاً... لكنه ارتعد وهو يعرف أنه لايستطيع أن يطلبها، الرسالة تعفيه من المواجهة، بل تعطيه فرصة أكبر للتأثير عليها، يمكنها أن تقرأ الرسالة أكثر من مرة وتفكر بها ثم تتخذ قرارها، هنأ نفسه على صياغة رسالته بطريقة تبدو شديدة الصدق، تخيّل لو أرسل لها اعتباطاً بضعة أوراق من دفاتر مذاكراته، ترى كيف سيكونَ رد فعلها؟ هل ستصدق أن أخاها يعاني كل هذا الضيق؟ أتراها حقاً لاتفكر بي؟ كررّ هذا التساؤل مراراً بينه وبين نفسه، عجباً مامعنى الأخوة إذاً؟! داهمه خاطر خبيث، ماذا لو تظاهرت بأنها لم تتسلم أية رسالة؟ آه من الخواطر المتشائمة، عندها سيكلمها هاتفياً وسيحشرها في الزاوية ليسمع ردها.

أمامه اسبوعان من الأنتظار على الأقل، ماأدهشه حالة القنوط الملحة التي تتلبسه، ماعاد يفكر بالاحتمالين الوحيدين اللذين ينتظر تحقق أحدهما، إما الموافقة وإما الرفض، أدهشه تساوي الاحتمالين بسبب حالة القنوط شديدة الوطأة التي تتلبسه، أحس بتقزز من لهجته الرخوة واضحة الاستعطاف التي كتب بها لسلوى، وبدت له مقدمة الرسالة على درجة مخجلة من الانسحاق: الحبيبة: الحبيبة سلوى. لماذا يندلق أمامها مضيعاً كرامته واعتداده بنفسه أماكان أليق بكرامته لو يكتب لها شارحاً حقيقة ظروفه البائسة، وعجز عيادته الخاصة وراتبه الوهمي عن تأمين حياة كريمة له... أما كان يستطيع أن يذكرها بواجبها تجاهه هي الثرية الغارقة في الرفاهية، مامعنى الحب إن لم يتحول إلى فعل؟!

لوكتب لها هذه الجملة لاستطاع أن يكبلها أكثر، أن يجبرها ألاتتعامى عن وضعه... تساءل: آه ياكريم، هل تخيلّت يوماً أن تنسحق هكذا تجاه أختك.!! لكن هل حقاً تغيرت أخته بسبب الزواج من ثري، أو بسبب الغربة؟ لكن هل نظر إليها يوماً بعيداً عن العاطفة ومنطقها الذي يحرف كل شيء لصالح المحبوب. من هي سلوى؟ ليحاول أن يفكر بها مرة واحدة بطريقة حيادية منطقية... تذكر كيف كانت تبكي قهراً وهي تصف أناقة ثياب صديقاتها، وحليهن، وإحساسها بالخجل من ثيابها البسيطة، وشكواها الدائمة من قلة مصروفها مقارنة بهن.. وفراس الذي أحبته، لم ترض الارتباط به لأنه لايحقق طموحاتها المادية.. هذه هي الحبيبة سلوى، إنسانة نفعية مادية، وأنانية، لكن طيبته وعاطفته منعتاه من رؤيتها على حقيقتها... لكن أينكر أنها تحبه؟ أينكر كم مرّة قالت له أنت سندي الأساسي في الحياة، وأنت أخي الوحيد والحبيب، الذي أبكي تأثراً من رسائله.. أجل إنها تحبه، لكن... تحبه لكن لاتقترب من جيوبي، هذا هو شعارها الحياتي، انطلاقاً من تلك الحقيقة ترسم علاقتها معه، شعاره هو أنا أحبك، إذاً لك الحق في كل شيء أملكه، هذا منطق الحب الحقيقي.

ماعاد يحس أنه ينتظر ردها، حالة من الاستخفاف اللامبالي تلت قنوطه، لكأنه يريد أن يحصن نفسه سلفاً من الصدمة المحتملة التي يتوقعها منها، ولم يكذبه إحساسه، تلقى ردها أبكر مما توقع، لم يستطع منع خفقان قلبه وهو يفضّ الظرف، اعتقد أن وصول الرسالة العاجلة دليل موافقتها، نسي أن يرسم علامة الصليب، طقسه الانتهازي الوحيد أمام كل محنة وكل رغبة يتمنى لو تتحقق، تجمدت نظرته فوق خطها الجاف الأسود: أنا لاأفكر نهائياً في تأجير المكتب وليس لدي ثقة بأي مستأجر سواء كان فرنسياً أو أميركياً أو أيا كان... لم أفهم بالضبط ضيقك المادي الذي حدثتني عنه، أعتقد أن راتبك مع مدخول العيادة يؤمنان لك حياة كريمة، خاصة وأنت تعيش في بيت والديك، الذي هو لك، فأنا متنازلة عن حصة منه، في كل الأحوال ياأخي الحبيب ن إن كنت تمر بضائقة مادية مؤقتة وبسيطة يمكنني أن أرسل لك حالاً خمسمئة دولار أو ألف

إذا احتجت حقاً... لقد أحست برغبتك في أن أرد عليك فوراً، وهأنا أكتب لك فور تسلمي رسالتك اللطيفة والرقيقة، أحسدك حقاً ياكريم على احتفاظك برومانسيتك، للأسف الحياة اللاهثة هنا لاتسمح لي أبداً بالعودة إلى الماضي وتذوق الحلاوة التي فيه، تخيل ياكريم أنني أحتاج كل يوم لأربع ساعات مواصلات بين بيتي ومركز المدينة، لن أتمكن من الحضور هذا الصيف لأنني سأكون مشغولة مع زوجي في افتتاح معرض الموزاييك في منهاتن، استأجر منذر صالة عرض كبيرة لهذه الغاية. لكني أدعوك أنت وأمك لزيارتي، طبعاً كلاكما ضيفاي، لن تتعرفا على أي مصروف ابتداءاً من بطاقة الطيارة وكل المصاريف الأخرى.

أخيراً ياكريم اعذرني على ضيق الوقت، لكن اكتب لي دوماً، لاتتصور كم تسعدني رسائلك، خاصة وأنت تسترجع أمامي تلك الصور شديدة الحلاوة التي جمعتنا في الماضي، أحسدك فعلاً على ذاكرتك... وكثيراً ماأتساءل: أكنت حقاً الفتاة الساذجة الرومانسية... أخيراً قبلاتي الحارة لك ولأمي الحبيبة.

أختك المحبة سلوى

مزّق الرسالة نتفاً، كازاً على أسنانه، ومطلقاً شتائمة المنفلتة من دملّة في حنجرته تشكلت سريعاً وهو يقرأ ردها: ابنة الكلب، لم يع أنه يشتم الأستاذ الفاضل الذي يستريح في مثواه.

الحيوانة، القذرة، المنحطة، البخيلة... ترك حمى الغضب تقوده في متاهاتها الجنونية، تحوّل إلى قنبلة موقوته آن أوان انفجارها، ستدمر كل شيء بطريقها، طظ في الأخّوة، طظ في الأخّوة. الحيوانة بدون إحساس، تدعي أنها لم تفهم معاناتي وتتصدق علي بحصتها في البيت تمنّى علي أيضاً، أنا الذي انسحقت أمامها وكتبت لها: الحبيبة، سلوى الحبيبة... كان يحدث نفسه بانفعال شديد، وهو يتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعته ولم يكتب لها تلك الرسالة... أتاه صوت يؤاسيه: بل حسناً فعلت لتكشفها على حقيقتها، ليسلط

أنوار الحقيقة على دناءة روحها وبخلها... سارع إلى الهاتف يرفع السماعة سيشتمها ولو كان الوقت منتصف الليل عندهم، أتاه صوت زوجها مثقلاً بالنعاس: آلو، آلو.

لم يستطع أن يتفوه بكلمة، رغم أن الشتائم كانت تتزاحم خلف حاجز أسنانه تبحث عن نافذة لتنفلت، أمسك القلم ليكتب مبتدئاً بجملة صاحبة الجلالة الموقرة، كان يريد أن يصب لعنته في كلمات، أن يتبرأ منها، وينسف كل الاعتبارات التي كانت تلجمه عن قول حقيقة أفكاره بخصوصها، لكن القلم حرن في يده، ولم يستطع أن يكتب شيئاً.

الحيوانة عديمة الإحساس، كان يكرر هذه الجملة دون ملل، لكنه في جحيم غضبه كان يحتاج لمن يجعله يفهم، لمن يفسر له كيف يغدو الإنسان صنماً خالياً في أي إحساس وتعاطف.. قرر في سره أنه سيسعى جاهداً لإماتتها من حياته، ولن يتورع عن كشف نقاب العواطف الزائفة التي تربطه بها وسيحكي للملأ عن بخلها وحقارتها وقلة إحساسها. ارتسم وجه أمه أمامه متألماً، لكنه صرخ بصوتٍ عالٍ: أنت لاعلاقة لك بنا أفهمت.

في سره أحس بسعادة خبيثة تنتشر كالحرارة في أطرافه، أحس أنه اهتدى لحل لضيقه الشامل المادي والمعنوي بأن يعلن القطيعة على أخته، هاقد وجد مصرفاً لاحتقان روحه، أقسم لنفسه: والله لن أتراجع عن قراري مهما حصل، حتى لو ركعت عند قدمي وتوسلت لي أن أسامحها، وبأنها ستعطيني المكتب بالمقابل، نخرت هذه الصورة المتجسدة في خياله صلابة قراره، وجسدت له الإغراء الشديد في أن يمتلك هذا المكتب فعلياً، هل يستمر عندها في القطيعة ألن يكون على استعداد للصفح والنسيان، ولكتابة رسائل تبدأ مجدداً بسلوى الحبيبة!

ألايتكثف له الضيق والحرمان بأقسى أشكالهما، وكيف يلويان ذراع الإنسان ويضطرانه للقبول والإذعان، تخيل أنها ستأتي ذات يوم قريب مجللة بالسواد بعد أن تتلقى خبر وفاة أمها، سيرمقها ببرود وكره، سيستعد منذ الآن

لرشقها بنظرة الاحتقار والنبذ، والتي سيجند في سبيلها كل طاقات روحه.. وحين ستهجم عليه لتقبله وتبكي على صدره، سيدفعها بعيداً، وبقسوة وعنف، ستسقط أرضاً ولن يتقدم خطوة لمساعدتها، ستصعق وهي ترمقه بذهول نظرة تعني: أكاد لاأصدق ماأرى، أأنت كريم المحب؟!! لماذا تتصرف هكذا!؟ لن يتفوه بكلمة، أوقد تنفلت منه جملة: أنت حقيرة، أنت لست أختي.. ستصرخ عندها: أيها اللئيم لن أتنازل لك عن حصتي في بيت أهلك.. جمدّه الذعر حين وصل به خياله عند هذه النقطة، أحس في تلك اللحظة تحديداً أنه هبط على أرض الواقع... همس له دهاءه الذي ظلّ مخدراً لسنوات: لايجب أن تعلن عليها القطيعة إن لم تتنازل لك فعلياً عن حصتها من بيت أهلك صحيح أنه بيت قديم، لكن لها حصة فيه، والدك رحمه الله كتبه مناصفة بينك وبينها... إعلان الحرب عليها وشتمها لم يفيدك بشيء، بل يجعلك تخسر البيت... أحسّ أن العناية الإلهية أسعفته بهذه الفكرة، الآن عليه أن ينتزع توقيعها وتنازلها عن حصتها من البيت، ترى أيكتب لها مجدداً؟ هل تذله الحاجة، ليخط كلمات تسبب له أشد الوجع... لا، سيلجأ إلى وساطة أمه، إنها لاترفض لها طلباً تلك المرأة الرقيقة سيطلب إلى أمه أن تكتب لها وتطالبها بالتنازل عن حصتها من الميراث لأخيها، وسيلّح على أمه بضرورة التنويه بأن كريم لاعلم له برسالتها، لأنه شديد الحساسية تجاه هذه المواضيع، وما أن يتلقى ورقة تنازلها حتى يسقط القناع عن وجهه ويعلن على الملأ القطيعة معها.

تلاشى فوران غضبه، تحوّل إلى زبدٍ طفيف، أحسّ بإنهاك شديد ونعاس، وآلام في مفاصله، استلقى في فراشه وهو يدخل تدريجياً بغيبوبة تعفيه من التفكير، لكن آخر فكرة انطفأت في ذهنه كانت أشبه برثاء، بأن تلك التي بشتمها ويخطط كيف سيتعامل معها، وكيف سيقتلها في روحه، هي في نهاية المطاف: أخته!!!.

* * *

مجرم بالصدفة

جلس على كرسي تحنيطه الأبدي في العيادة، يتأمل ببرود خط أخته وهى تقر بتنازلها عن حصتها من البيت، توقف نظره عند توقيعها الذي أحسه متعجرفاً وغريباً، سجّل في دفتر مذاكراته التاريخ الذي تنازلت فيه أخته عن ملكية البيت. حدّث نفسه بسخرية: هاأنت تملك بيتاً وعيادة فما حاجتك بعد؟ من يملك بيتاً وعيادة هذه الأيام يعتبر محظوظاً وثرياً... فتح درج مكتبه وهو يتنهد بعمق أخرج ألبوم الصور ليسلي نفسه المغرقة في الكآبة، طالعته صورة سلوى بثوب الزفاف، تتأبط ذراع عريسها، وصورها مع ولديها في الفيلا الرائعة في نيويورك، صورهم على شاطئ البحر... وجد نفسه يمزق الصور كلها غير آسف، رغم أن روحه ارتعشت وهو يرى وجه أمه يتشظى، الآن يبتلعه الفراغ. لاعلاقة له بها إطلاقاً، لن يكتب لها أبداً بعد، ولن يناديها حتى بينه وبين نفسه بأختي، ولن يلفظ اسمها، قررّ ألايعاتبها، وألايعلن ثورته أمام أمه وأمامها، سيعذبها بالتجاهل والصمت، آمن أخيراً أنهما وجودان مختلفان غريبان، إنها غريبة عنه حقاً، فلينبذها خارج عواطفه وأفكاره.

لايزال أمامه ستة أيام ليقبض راتبه، جيوبه خاوية تماماً، لو لم يقصده أي مريض خلال هذه الأيام سيظل شحاذاً، فكّر أن الشحاذ يجمع كل يوم مبلغاً من المال، بينما هو لايجرؤ على التسول لأنه طبيب، قام عن كرسيه يحرّك عضلاته ويفتح النافذة ليسلي نفسه بالتفرج على المارة، ماكاد يطل برأسه من النافذة حتى سمع صوت رجل يناديه: دكتور، دكتور كريم. التفت ليجد رجلاً

يصطحب طفلاً صغيراً، أحس أن مئة حنجرة انفتحت في رقبته وانطلقت أصوات مهللة: هللويا، هللويا، المجد لله في العلى الذي أرسل مريضاً ليسعفني.

رحّب بالرجل، دعاه للجلوس، شكره الرجل المتعب الذي تشع التجاعيد حول عينيه بشكل شعاعي سأله الدكتور كريم: خير، مم تشكو؟

قال الرجل: لست أنا المريض، بل ابني.

كان الصبي وسيماً ونحيلاً، يلبس ثياباً فضفاضة عليه، الأرجح أنها لأحد إخوته، أو تبرع له بها أحد المتصدقين، كان الصغير يرمق الطبيب بعينيه النقيتين بأهدابها الطويلة الكثيفة.

سأله: مم يشكو؟

قال الأب: في الواقع، أنا لم أشاهد بعيني، لكن أمه أخبرتني، تلكأ قليلاً ثم تابع حديثه العفو منك، لكن بيت خاتمه هبط.

ـ آه، تقصد هبوطاً في الشرج.

ـ أجل يادكتور، أرتعبت أمه، لكنها ضغطت القطعة الهابطة إلى الداخل، وأعادتها كما كانت.

ـ حسناً، كل شيء سيظهر عند الفحص.

بكى الصغير نافراً من الفحص، لكن والده نهره وشتمه ولعن الخلفة والأولاد وساعة النحس يوم تزوج، بدا الصغير معتاداً على الشتائم لأنه لم يبد استياءً أو دهشة... انتهى الطبيب من الفحص، تذكّر مادرسه حول علاج هذه الحالة بانه يمكن اللجوء للعلاج المحافظ لمدة سنة على الأقل بوضع قطعة من القطن في فوهة الشرج التي تستدعي تقلص هذه الأخيرة وبالتالي تقويتها. لكن صوتاً من الجانب المناقض للعلم أغواه بألا يتصرف كما تقتضي الأمانة العلمية، لماذا لاتوهم الأب بأن الصغير يحتاج لعمل جراحي؟ هكذا تقبض مالاً أكثر بكثير من ثمن المعاينة؟ شجعه خلو جيوبه أن يقول للأب: الصغير يحتاج لعملية..

على بكاء الطفل وهو يسمع كلمة عملية.. سأل الأب بقلق: ألا مفر من العملية؟.

ببراعة تقمص كريم دور الطبيب المقنع الذي يشرح وجهه نظره للأهل: في الواقع العملية لاغنى عنها، إنها عملية بسيطة لاتستغرق أكثر من ربع ساعة.

أطرق الأب قائلاً: في الحقيقة العين بصيرة واليد قصيرة.

ابتسم كريم مشجعاً الأب: لاتخف، سأوفر عليك أجرة المشفى والتخدير، سأجري له العملية في مشفى الرخام.

تهلل وجه الأب وابتسم، فانحفرت التجاعيد الشعاعية حول عينيه قال: لن أنسى معروفك يادكتور أبداً.

امتعض كريم، إنه لايريد دعاءً ولاشكراً، يريد مالاً يتعكّز عليه حتى آخر الشهر قال:

بصراحة سعر السلك ٨٠٠ ليرة، وأنا سأحضر السلك من عيادتي لعدم توفره في المشفى.

ـ حاضر يادكتور، أنت تأمر، لكني لاأحمل الآن سوى أربع مئة ليرة.

أخرج من جيبه حفنة أوراق نقدية مهترئة من فئة العشر ليرات والخمس وعشرين ليرة، عدّها للطبيب وقال.. سأدفع الباقي قبل العملية بإذن الله.

أحس كريم بألم وهو يمسك الأوراق النقدية البالية والغارقة في البؤس كصاحبها، لكن ذهنه سرعان ماحولها إلى مشتريات ضرورية.

لم يستطع أن يغفو لحظة، كيف سيعرض الصغير لعمل جراحي لايحتاجه؟ لماذا يتصرف بعكس مايمليه عليه ضميره المهني؟ تذكر قسم ايبوقراط الذي أقسمه حين تسلم شهادته من كلية الطب البشري. تساءل: هل كان يخطر لإيبوقراط أن يصل وضع الطب إلى هذا الدرك من الانحطاط؟

حاول أن يبرئ نفسه متذكراً مئات الحالات لنساء تعرضن لعمليات قيصرية، ولسن بحاجة لها، لمجرد أن يقبض الطبيب أجرة عمل جراحي تفوق

أضعافاً مضاعفة أجرة الولادة الطبيعية، تذكر كم من حالات وجع البطن شخصت عمداً التهاباً في الزائدة الدودية لتوريط المريض بعمل جراحي! ألايجب أن يجاري التيار ليعيش؟ كيف سيعيش إن لم ينغمس بالصفاقة!! ماذا لو استنشق الصغير المادة المخدرة لدقائق، فليطوق له المعصرة بالسلك أو لايطوقها، لايهم المهم أن يقبض... ألا يملي عليه هذا الزمن أن يتصرف بهذه الطريقة ليصير الابن البار لزمنه العاهر! لكن لماذا يشعر بكل تلك القوة بأنه سافل، غريب عن طبيعته، ومرمي خارج ذاته، روحه في الأساس تأنف الخداع والابتذال والغش، فلِمَ يقحمها في أوكار لاتطيقها.

قرر أن يصارح الأب أنه سيعطي الطفل مهلة للانتظار قبل الإقدام على العمل الجراحي، حدث نفسه: لاأستطيع بأي حال من الأحوال أن أكون نذلاً..

لكنه في اليوم التالي حين دسّ له الأب ورقة نقود من فئة الخمسمئة ليرة في ظرف التحاليل المخبرية، أحس بارتخاء جسده كله، سرى في عروقه دفء الإطمئنان الخاص بالمال، شعر بالعجز عن إعادة المال إلى الرجل، رغم إيمانه أن المسكين استدانها، سأله الأب:

ـ هل السلك جاهز يادكتور؟

أجاب بدون تفكير: بالطبع.

كانت حالته أقرب للذهول.

ـ متى ستجري العملية؟

ـ بعد غدٍ إن شاء الله.

ـ على بركة الله، أملي بالله وبك يادكتور.

قبل أن ينصرف الرجل سأله كريم: كم ولداً عندك.

قال: ستة يادكتور.

هل شجعه كثرة الأولاد على مزيد من الاستهتار؟! إنه لايتعرف نفسه في سقوطها يحس نفسه غريباً ومنفياً، لماذا يصرّ الإنسان على الصفاقة؟ هل يريد أن

يتمرغ بالحياة، ويتبع الأساليب الملتوية واللاأخلاقية ليصل كما وصل الانتهازيون؟! لماذا لم يتراجع عن العملية أمام الأب المسكين؟ هل مجرد خمسمئة ليرة تدفعه للخيانة والاستسلام؟ ماباله يجرجر نفسه كالمخدّر، لايشعر أنه حي ولاميت، متى سيمر هذا الكابوس؟ ياللورطة القذرة، إنها أبشع بكثر من ورطة الإفلاس. لم يستطع أن يمنع رعدة خوف هزته من رأسه حتى أخمص قدميه حين انتزع الصغير من حضن أمه، وحمله الآذن إلى غرفة العمليات، مسحت الأم دموعاً خرساء تتساقط بلا جهد من عينيها، اقترب من الأم يطمئنها بأن العملية بسيطة، قالت بصوت مرتعش: المسكين عطشان، طلب الماء كثيراً.

هوى قلبه في بئر لاقرار له من الغم، ودّ لو يصرخ بصوت جهوري: أعيدوا الصغير إلى حضن أمه. لشد مااحتقر نفسه، وهو يعي قذارته وسفالته اللتين يسعى جاهداً لإلصاقهما على جلده، حين بحث بعينيه عن الآذن الذي انتزع الصغير من حضن أمه لم يجده لم يعد من مجال للتراجع، بعد أن دخل الطفل غرفة العمليات.

حين طلب إليه طبيب التخدير أن يباشر عمله، تمنى لو يموت في الحال، لو تنشق الأرض وتبتلعه. تأمل الصغير غافياً وانبوب الحنجرة البرتقالي يخرج من فمه ويثبت بالورق اللاصق على جانب خده الأيسر الشاحب، كان صدر الصغير يعلو ويهبط بإيقاع بطيء حزين، بدت أهدابه أطول مماهي، مسدلة برقة، راسمة ظلالاً مزرقة أعلى وجنتيه، باغتته دموع مفاجئة أمرها للحال أن تجف، ومااأن بدأ عمله بتطويق المعصرة حتى علا صوت طبيب التخدير مذعوراً: مهلاً مهلاً... لاتباشر عملك.

تساءل مصعوقاً كأنه في كابوس: خير، ماالأمر؟!

أحس بصوت طبيب التخدير يشرخه: لقد توقف قلبه.

صرخ بصوت مدمر: ماذا؟

أخذ المخدر ومساعداه يضغطان صدر الطفل بقوة، ويحقنان أوردته

الخيطية بأدوية لكن عبثاً، الصغير يزداد شحوباً ولايستجيب، ولم يعد صدره يعلو ويهبط بإيقاع حزين، صرخ كريم وقد فقد صوابه، فيما عرق بارد لزج يغرق جسده، ويجعل ثيابه الخضراء المعقمة تلتصق بجسمه. قال وقد جفّ حلقه تماماً: هذا الطفل تحديداً، لايجب أن يموت. نظر مساعد طبيب التخدير إليه وسأله: أهو قريبك؟

صرخ: أكثر من قريب.

رمقه طبيب التخدير معاتباً: أرجوك تمالك أعصابك يادكتور، دعنا نعمل على إسعاف الطفل، بدل إرباكنا. خرج من غرفة العمليات، وكأنه نزف دمه كله في الداخل، ولم يبق فيه قطرة واحدة، أحس أنه كيس أجوف ممتلئ رعباً، له عينان زائغتان لاتريان شيئاً مما حولهما، تساءل أين أنا؟ من أنا؟ ماالذي فعلته يداي؟! أين الصغير، أي كابوس هذا أعيش فيه؟ قولوا لي كلكم أنني في حلم، بالتأكيد أنا أحلم حلم ثقيل مزعج لكن سأصحو منه حتماً.

لحقه مساعد طبيب التخدير، أمسكه من كمه، همس في أذنه: مات الصغير... فشلت كل محاولاتنا في جعل قلبه يعود للخفقان، يبدو أنه مصاب بنقص في الخميرة و... لم يعد يسمع، ولايرى، انتشر سواد شامل أمام عينيه، التصق صمغ كثيف بأذنيه، دوى صوت مخيف في أعماقه: لقد قتلته، قتلت الطفل المسكين، عاد إلى غرفة العمليات كأنه يقتحم أبواب القدر، وقف كأنه ينتظر حدوث معجزة، ويعود الطفل المسجى على طاولة العمليات إلى الحياة، اقترب من الميت، أمسك يده، أدهشه كم هي ناحلة ورقيقة، جسّ معصمه الذي أحسه كغصن مقطوع من شجرة ومرمي... حاصره الذعر كحبل ثخين يضغط على عنقه ولايخنقه... ماأشهى الموت الآن.. كم يتمنى أن يموت ويرتاح... جفّ حلقه وجفت دموعه، عد ياحبيبي إلى الحياة، وأنا أقسم بحياتك الغالية ألا ألجأ لتلك الأساليب الحقيرة مدى الحياة...

لكن الطفل فضلّ الطيران بعيداً عن بؤس طفولته، فاراً من غرفة العمليات، سيصير نورساً أبيض يحلق في الفضاء الفسيح، لا يستغله طبيب،

ولايصب أب بائس اللعنات فوق رأسه... أمكنه أن يسمع صوتاً طفولياً يتردد صداه في غرفة العمليات: سأرتمي في حضنك يارب وأنعم بالراحة الأبدية والسلام.

تطوع طبيب التخدير بإبلاغ الأهل بالفاجعة، تلّوت الأم أرضاً كدجاجة مذبوحة وشدت شعرها مقتلعة خصلاً سميكة منه، الأب أطرق صامتاً لم يذرف دمعة يبدو أنه يتحمل المصائب بتلك الطريقة الخرساء... جرّ زوجته من كمها لتلحقه، بعد أن رفض بشدة اقتراح طبيب التخدير بطلب رأي الطبيب الشرعي في سبب الوفاة.

قائلاً: سلموني ابني، أريده أن يلقى ربه صحيح الجسم، لن أسمح أن تمزقوه إرباً الله أعطى والله أخذ. كانت كل عضلة في جسم الدكتور كريم ترتجف، وهو يسترق النظر بعينين مفتوحتين على سعتهما للحوار الذي يدور بين المخدر والأب المفجوع، أحس أن عرق بدنه مدّمى لم يستطع أن يظهر أمام الأهل، من حسن حظه أن طبيب التخدير برأ ساحته وأخبر الأهل أن الجراح لاعلاقة له بالوفاة، لأنها حصلت قبل أن يباشر عمله.

«الله أعطى والله أخذ» هذا ماقاله الأب وظل ملتصقاً بأذن الدكتور كريم طوال الوقت، لم يقدم الأب المسكين شكوى، آمن أن هذه مشيئة الله... خرج الطفل المسكين من غرفة العمليات لفّة صغيرة خضراء، سيدفن في مكان ما، سيبكيه اخوته وأهله لأيام، ثم سيطويه النسيان... خاتماً الفصل الأخير من الجريمة الكاملة.

* * *

تمتد الدقائق حبالاً سوداء عليه السير فوقها، حبالاً من قطران لزج تشد قدميه إلى أسفل، يناجي نفسه: تمزقي ياروحي ماشاء لك، التمزق اكتئب ياقلبي حتى تتوقف عن النبضان، فهاهو قلب الصغير استقال من وظيفته الأبدية في التقلص وضخ الدم في أنحاء الجسد البض، بل أنا قتلته، ورطته بعملية لايحتاجها، مقابل ثمانمئة ليرة، أجل سعر الطفل ثمانمئة ليرة... لم يشعر أحد

بجريمتك ياكريم، لم تشرح الجثة، ولم يخطر لأحد أن يحقق بضرورة العمل الجراحي، وماقيمة الطفل بين ستة أطفال يعانون أقسى أنواع الحرمان، يعيشون وسط أب فقير بائس، يصب نقمته من الحياة بشكل شتائم يقذفها من فمه باستمرار، وأم موهوبة بالحمل، تقدر أن تنجب عشرة بدل الميت... لابأس ياأسامة الصغير، حاول أن تؤمن بالتقمص ياعزيزي، وبأنك ستعود للحياة مرة أخرى، عساك ترجع طفلاً ثرياً في المرة القادمة، عساك تولد من رحم إمرأة ما وفي فمك ملعقة من الذهب، قتلتك مقابل ثمانمئة ليرة! ماأرخصك ياأسامة؟

الخروف أغلى منك بكثير، هل تستريح الآن في مثواك تحت الأرض، ألايزعجك ملاءة الكتان الخضراء، إنها ملاءة معقمة ياأسامة، آه لاتصدق أنا أشك في التعقيم، الذباب يتجول بحرية في غرفة العمليات، والنوافذ في رواق العمليات مفتوحة على مصاريعها للوسط الخارجي الغني بكل أنواع الجراثيم والغبار، الداخلون والخارجون، مرضى ممرضات، أطباء، لايهتمون بالتعقيم... هل اخترت موتك ياصغيري، هل أحست بأنك ستصلب كالمسيح حين أرقدوك على طاولة العمليات القاسية وقالوا لك انفخ البالون ياحبيبي، هل فرحت ياأسامة، ألاتملك أية لعبة أليس كذلك؟ البابا بالكاد يطعمك رغيف الخبز، لوطلبت بالوناً لصفعك على خدك، أورماك بحذائه المهترئ وقال لك: أخرس يابن الكلب، ألاترحم والدك من الطلبات...

هل فرحت بالبالون ياأسامة؟ هل صدقت كذبة نفخ البالون؟ أكنت تعرف أن السم في قلبه وأنك ستموت؟ وستطير روحك إلى البعيد البعيد هاربة من نافذة رواق العمليات... أسامة، أنا الطبيب القذر، النذل والجبان قتلتك، ووقعت إمضائي على دفتر العمليات وعلى دفتر التوقيع، وانسللت كاللص من الباب الحديدي لمشفى الرخام، أسير فوق الدقائق يا أسامة، أفاعي سوداء تمتد تحت قدمي، انتظر أن تلدغ عقبي إحداها لأموت وأرتاح... أتعرف كنت أتمنى لو أضمك طويلاً إلى صدري، وألثم أهدابك الطويلة واحداً واحد، أهدابك التي أعطت لأعلى وجنتيك ظلالاً زرقاء... ماأرق يدك ياأسامة وأنحل رسغك، حين حبستة بحثاً عن نبضك خلته سينكسر في يدي، رقدت يدك باستسلام

في راحتي، تحسست بأصابعي الخشنة أصابعك القصيرة النحيلة أين أنت الآن ياأسامة؟ أستتعقبني أليس كذلك وتظهر لي في صحوي ونومي؟

هل ستقدر أن تنتقم لنفسك ياصغيري المسكين؟ يالسوء حظك ياأسامة، ماالذي قادك إلى جحيمي، إلىعيادة تحنيطي الأبدي؟ ترى ألن يقصدني والدك لأرد له ثمنك، أنا مدين له بثمنك ياسامة، ثمانمئة ليرة، سأنتظر حتى أول الشهر كي أقبض راتبي وأعيد المبلغ لأبيك.

لقد أهديتني بموتك بضعة كيليات من التفاح والموز!! كم أنا جبان ياأسامة، لاأجرؤ على الصراخ أمام كل الناس بأني قاتل، لوترجع إلى الحياة ياصغيري، سأتبناك، سأبيع العيادة وأشتري لك بثمنها ثياباً جميلة ودراجة والكثير من الألعاب، وسأعرفك بالمطاعم والحدائق الحلوة، سنسافر، وسأتنازل لك عن البيت الذي املكه وأسجله باسمك، أتعرف ياأسامة، كان لأختي حصة في البيت، تنازلت عنها لي، أختي حقيرة ياأسامة، أنانية وبخيلة، وأنا حقير لاأعرف من منا أشد حقارة من الآخر، هي أيضاً قتلتك بطريقة غير مباشرة، لوقبلت أن تساعدني لما اضطررت أن أجرجرك إلى غرفة الذبح، كلهم قتلوك ياسامة، لاتصدق أنني القاتل الوحيد، انظر إليهم بعينيك الرائعتين، ستفهم أن أبوك أيضاً قاتل، ومقتول أيضاً وأمك قاتلة ومقتولة، كيف استطاع والدك أن ينحرك في خاصرتك بتلك الطريقة الوحشية الفظة كي أتمكن من فحصك احمر جلدك بشدة بعد أن نحرك، وكنت تتقبل سيل شتائمه القذرة فوق رأسك بطاعة خرساء... سيشترك والدك مع أمك قريباً في جريمة جديدة وينجبان طفلاً عوضاً عنك، وقد يسمونه أسامة، وقد يصاب أسامة الجديد هذا بهبوط شرج مثلك ويضطر والدك ليجره إلى عيادة تشبه عيادتي، وتتكرر المأساة نفسها ياصغيري وقد يتزوج والدك إمرأة أخرى، وقد تتزوج والدتك رجلاً آخر، وسيمتلئ الكون بالأطفال المساكين الذين يموتون كل يوم بألوان من الإضطهاد، أتعرف ياسامة في البرازيل ستة ملايين طفل لقطاء، يعيشون على تلال القمامة، يأكلون منها، والأثرياء يصطادونهم كما يصطادون الخنازير!! هواية مبتكرة صيد الأطفال ياأسامة، أليس كذلك؟ اعتبر نفسك واحداً من هؤلاء... لماذا

أنت صامت هكذا ياأسامة؟ قل أي شيء، اشتمني، سامحني، اقتلني اشكرني كوني رحمتك من حياة الذل، إنما لاتبقى هكذا أخرس... ألاتستطيع الكلام ياصغيري المسكين؟ ألاتستطيع الإتيان بأية حركة؟ أحقاً أنت ميت! هل انتقلت بهذه الرشاقة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، خذني معك ياأسامة، خذني أرجوك.

لم يستطع أن يبتلع لقمة، ادعى لأمه أنه تناول صحن فول مسلوق منذ ساعة، بحلق في وجهها منقباً في ملامحها إن كانت قد اكتشفت الآثار الكارثية لمصيبته، لكنها لم تلاحظ شيئاً، يبدو أن وجهه متواطئ مع جريمته ويرفض الافصاح عن أية علامة تثير الشكوك تمنى لو تستطيع أن تحمل على كاهلها جزءاً من ثقل جريمته، لكنه لن يقدر أن يبوح لها أبداً... نظر في ساعته، لم يمض على وفاة الصغير سوى ثلاث ساعات، تساءل: كيف سأحتمل مرور الزمن إذاً، وهذه الساعات الثلاث أحسها دهراً.. دخل قوقعته وزرق فخذه بإبرة فاليوم، وتجرع أربع حبوب منومة، ومثلها مهدئة، أجبر نفسه ابتلاعها مع قليل من النبيذ عارفاً سلفاً التأثر السمي الناجم عن تآزر الحكول مع المنومات، فليمت، ليت قلبه يتوقف عن الخفقان، لكن هاهو يسمع النبضان المنتظم يتفجر من وسادته تحت أذنه، إنه حي، هو حي وأسامة ميت، أدخلته الأدوية في غيبوبة، لكنه ظل واعياً ومبحلقاً في الأثاث الأبدي، أمسك ساعته وأخذ يدور عقاربها بالاتجاه المعاكس، حدث نفسه: الآن عاد أسامة إلى الحياة، لكنه بعد دقائق رأى حمامة بيضاء تطير من صدر أسامة هاربة من غرفة الجريمة، منتهزة فرصة انفتاح مصراعي نافذة العمليات... في تلك اللحظة أحس أن أسامة مات، حيلة العقارب لم تعيد الحياة للصغير.

وحين هم بالقيام من سريره، كاد يسقط، المهدئات تدرخه لكنها لاتفلح في تنويمه، أحس بثقل لسانه وبالتصاقة بقاع فمه بصمغ لزج، أراد أن يحرك لسانه فلم يفلح، كان جفناه مرتخيين، وبصعوبة كان يفتح عينيه وينظر نظرات زائفة في كل مكان، فلايحد سوى وجه أسامة نائماً، فمه نصف مفتوح، عيناه مغمضتان، وخصلة من شعره الكستنائي ترسم خطاً مائلاً على جبهته

العريضة.. سألته أمه: ألم تشعر بالجوع؟ أتريد أن أسخن لك الغداء قال: لا، أحسها ثقيلة كأنها خارجة من قلبه، كم ينهكه الكلام...

تفرست بوجهه وسألته بقلق: أنت شاحب، وتبدو مرهقاً جداً، مابك ياكريم، أتشكو من شيء تدافقت الكلمات على شفتيه تكاد تنطلق: لاأشكو سوى من أنني قاتل.

لم يجب، أصغى للصمت بينهما، إنها تلح في سماع جوابه، تحامل على نفسه وقال:

ـ أشكو من صداع.

ـ سلامتك، ألم تتناول دواءً.

ـ أجل.

ـ هل ترغب بشرب الشاي أو القهوة.

ـ قهوة لو سمحت.

حين امتدت يده لتناول فنجان القهوة، ارتعشت أصابعه بشدة وكاد الفنجان يسقط لولا أن متدت يد أمه كي تمنع سقوطه. قالت: يبدو أنك تعبت اليوم في المشفى؟

انفجر بنشيج حار، فاجأه أكثر مما فاجأ أمه، كان لعابه لزجاً يتجمع في زاويتي فمه ودموعه حارقة يحسها تحرق جلده وتحفر فيه أخاديد... أخذ يئن متوجعاً: أنا متعب متعب، متعب، حاولت أمه لمسه، احتضانه، لكنه أخذ يصرخ مهتاجاً: لاتلمسيني، لا أريد أن يلمسني أحد، جسدي مكهرب من اللمس..

ـ ماالقصة ياكريم مالذي حدث ياحبيبي؟ أهناك مشكلة مافي العمل؟ احك يا حياتي أنا أمك، قل أرجوك ماالقصة؟ كان يترك وجهه يتبلل بدموعه دون أن يقوم بأية حركة انعكاسية لمسحها، قال بصوت هدّه الإنهاك: قلت لك لاشيء، مجرد تعب، خرجت كلمة تعب من روحه محملة بغبار اختناقه المديد، كلمة محتقنة، ملتهبة، متوجعة، تعب قاده لقتل طفل!

ـ آه ياجبيبي كم أنت حساس، طول عمرك شديد الحساسية، هذا ماكنا نقوله دوماً والدك رحمه الله وأنا، كان يقول لي: هذا الصبي عبارة عن جهاز عصبي متنبه دوماً، إنه حساس كشاعر رقيق كعاشق، انسكبت دموعه أكثر غزارة بعد سماعه كلام أمه، رأى وجهها متراقصاً غائماً من خلال دموعه، سألها بحنان تدفق فجأة في صوته: أحقاً هذا الكلام ياأمي، أحقاً تعتبرينني حساساً.

أمسكت يده، قبلّتها، أحس بشفتيها تحرقان ظهر يده... تهاوى كيان ضخم في داخله وتحطم أتقبلّ يده المجرمة تلك المرأة الطاهرة، وهو المجرم الآثم، عالجيني ياأمي، داوني، ارشقّي حبك فوق جراحي عساني أشفى، لكن، لاشفاء لي، القاتل لاشفاء له، لأن الميت لايمكن أن يعود إلى الحياة ثانية.

بكت الأم، حاولت أن تصدق أنه متعب، وأن روحه محتقنة بأوجاع قديمة بعيدة، حاولت أن تداعبه متجاوزة انفعالها الأليم، قالت: يالطوفان دموعك حين تبكي، لقد استهلكت علبة مناديل ورقية كاملة.

أغمض عينيه، أحس بتورم أجفانه من ثقلها، تمثلت في ذهنه أهداب أسامة الحريرية المسدلة كأنها مروحة من حرير، شرخت روحه شقهة خرساء، انطلقت من غرف روحه المهجورة.. أسامة أسامة...

ـ قم إلى سريرك ياحبيبي، اهدأ وحاول أن ترتاح، وجد نفسه يجر قامته إلى سريرها مستأنفاً حفلة دموعه المنسكبة على وسادتها، جلست بجانبه تمسح شعره بحنان لم يشعره في حياته، ولم يتوقع أن تقدر يد بشرية أن تسكب كل هذا الدفء والشفاء في روحه... كيف أغفى؟ هل بلغت المهدئات تأثيرها الأعظمي، أم أن عاصفة الدموع خففت توتر روحه أم بسبب تلك اليد الحانية الشافية التي مسحت طويلاً على شعره حتى هدّأت هيجان روحه المذعورة لكنه حين فتح عينيه، أحس بصداع فظيع يتفجر في رأسه، أحس جمجمته مزروعة بالمسامير، رآها تنام بكامل ملابسها في سرير والده، وتنفسها بطيء منتظم إنما يدل على إرهاق شديد... هاهو الفجر يتسلل من شقوق النافذة، ذهنه صفحة

بيضاء، بدا له البارحة يوماً بعيداً بعيداً تفصله عنه قرون، أول جملة تفتقت في ذهنه المتسمم بالمنومات: أسامة ميت. ابتدأ نهاره من هذه الحقيقة، وسينتهي بالتأكيد بها، كم من صباحات سيبدؤها كل يوم بحقيقة مرّة كالعلقم... لم يعد لتلك الحقيقة وقع الفجيعة في روحه، إن عذابه يأخذ منحى آخر، ليفتك به بتهملٍ وتأنٍ. ماكان يريد أن يفوت دقيقة إلا ويتعذب فيها، كل طاقات روحه تجندت واتخذت وضعية الاستسلام أمام سياط الألم، مرحباً بالعقاب، ليفتك بي على مهل حتى أنتهى. حاول أن ينسل من سرير أمه دون أن يصدر أية ضجة، لكنها فتحت عينيها قبل أن يقف على رجليه وسألته: كيف حالك ياحبيبي، قال: بخير، سوت شعرها بيديها وقالت: سأعد لك القهوة وكأساً من الحليب، أنت لم تأكل شيئاً طوال البارحة، قال: لاأريد أن آكل الآن، سنشرب القهوة معاً.

ـ حاضر ياحبيبي، أتعرف، لم أصدق عيني البارحة حين وجدتك تلوذ بسريري كطفل صغير، أتذكر كم كنت تحب أن تغفو بجواري، كيف كان والدك يعاتبك ويقول لك: لماذا تندس دوماً في سرير أمك ولاتندس في سريري، فنقول: لأعرف، سرير الاما مختلف.

رشفا القهوة وصداعه يذيقه ألوان الألم الصارخة والصاخبة، حاولت أمه استعادة يوم البارحة لمعرفة سبب انهياره الغريب، لكنه منعها بلطف في البداية، ثم بغضب عن طرح أي سؤال مغلفاً المشاهد الملتهبة والغامضة للبارحة بعبارة تعب قديم متراكم. فكّر ألايذهب إلى المشفى، إنه يحس بالرعب يتعاظم في روحه، لكن إلهاماً ملحاً أجبره على الذهاب، ماكان قادراً أن يركب قدميه ويقود نفسه إلى مشفى الرخام لأن جسده لايزال مسموماً من تأثير الأدوية المهدئة، نقله التكسي من باب بيته إلى الباب الحديدي للمشفى، وحين نقد السائق أجرته قال لصورة أسامة المرتسمة أبداً في ذهنه: هذا المال من ثمنك ياأسامة... تمثل له الرعب كفاً حديدية تنقض على كتفه، وهو ينحني ليخربش توقيعه، توقع أن يرمقه الجميع بنظرات ارتياب، فهو القاتل، وحين اعترض الآذن

طريقه ليسلمه ورقة مطوية، تقصفت فرائصه رعباً وهو يقرأ بعين خياله المكتوب في الورقة، سيستدعيه القضاء للمثول في المحكمة لأن جريمته اكتشفت، تسارعت دقات قلبه بسرعة جنونيه وهو يفتح الورقة ليقرأ بأن إجازاته الساعية تجازوت الست ساعات لذلك تعتبر بالقانون يوم إجازة إدارية...

جعّد الورقة ودسها في جيبه، جلس في استراحة العمليات منتظراً التعليقات، بادره زميله:

ـ قدّرت انزعاجك الشديد البارحة يادكتور كريم، بسيطة ياأخي، كثيرون يموتون من التخدير، احمد ربك أن والده فقير مسكين، ولم يشتك لإدارة المشفى.

علّق زميل آخر: افرض أنه اشتكى، ماذنب الأطباء، الطفل مصاب بالتأكيد بنقص في الخمائر لذلك لم يتحمل التخدير ومات.

علّق جراح ثالث: الأهل الأغبياء لايفهمون بالمنطق العلمي.

تدخلت ممرضة معلقة: معك حق لكنهم يعتبرون كل شيء قضاء وقدراً.

أصّر الجراح الثالث: ليس دوماً، فهناك أشخاص شرسون يتمنون أن يجرّوا الطبيب إلى المحاكم طمعاً بتعويض. ضحك طبيب التخدير قائلاً: تعويض!! أي غبي يطمع بطبيب في هذا الزمن؟ والله الطبيب يحتاج لصدقة. قال الجراح الأول:

معك حق، إيه مابك صامت يادكتور كريم، أتعرف، لقد أدهشتنا بانفعالك الشديد البارحة، في الواقع لم نكن نعرف بأنك إنساني لهذه الدرجة.

انفجر كريم ضاحكاً، استغرب أنه لايزال قادراً على الضحك، أحس بشعور يعربد في داخله يتخذ صورة مسخ مشوه، يمد لسانه الطويل كأفعى، هازئاً بالأطباء... لكأنه يقول لهم:

ـ أأنا إنساني، ماذا لوتعرفون الحقيقة!

أحس بضرورة التفوه بأي كلام خاصة بعد ضحكته المجلجلة قال:

ـ والله لاتصدقوا لوقلت لكم أنني تمنيت لوأموت بدل هذا الصغير.

علت صيحات الاستنكار: طول بالك يارجل.

ـ الأعمار بيد الله يادكتور كريم.

ـ ماذنبك أنت في وفاته!

ـ إرادة الله يادكتور كريم.

ـ والله نخن نموت كل يوم مئة ميتة.

ـ احمد الله، أن الأهل مساكين وفقراء ولم يثيروا الموضوع في المحاكم.

ـ أنت لاعلاقة لك أبداً، لقد توفي قبل أن تباشر بالعملية، و..

ـ بالله عليكم، غيروا هذا الموضوع، مللنا من أحاديث النكد والمصائب.

ـ وعن أي شيء تريدنا أن نتكلم.

ـ عن أي شيء، عن المسلسل اليومي مثلاً.

علت الضحكات، تحوّل الحديث حالاً إلى مناقشة أحداث المسلسل اليومي... والذي يتفق الجميع على تسميته بالأفيون اليومي غمز أحد الأطباء قائلاً: في الواقع الممثلة سوسو تاخذ البطولة المطلقة في ثلاث مسلسلات متتالية قال آخر: تكون عشيقة المخرج بالتأكيد.

علق طبيب التخدير: بل عشيقة المنتج على الأغلب.

تساءلت ممرضة: ياإلهي كيف تفكرون، كل ممثلة تعتبرونها عشيقة رجل متنفذ، كذلك كل مذيعة وكل إمرأة ناجحة. ضحك الأطباء وقال أحدهم: لأن هذه هي الحقيقة ياعزيزتي.

ـ وأنت ماأدراك يادكتور، هل تعيش بينهم؟.

ـ ليس من الضروري أبداً أن أعيش بينهم، فكري ببساطة، شابة ناشئة

لاعلاقة لها بالفن تتسلم أدوار البطولة دفعة واحدة، ولاتجيد التمثيل إطلاقاً، كيف تفسرين هذه الظاهرة؟

أعفاها طبيب من الجواب: إما مدعومة أو عشيقة، نظر إلى الممرضة متسائلاً: هل من احتمال ثالث.

قالت بدهاء أذهلهم: أجل هناك احتمال ثالث.

ـ وماهو، نورّينا؟

ـ البطالة. مثلي ومثلكم لاعمل لنا.

ـ معك حق، والله أنت مدهشة، لكن البطالة سبب أساسي لتصير عشيقة أولاً ثم ممثلة دخل طبيب جراح، قدّمت له الممرضة مقعداً ليجلس، دوماً هناك نقص في عدد المقاعد، شكرها، ابتدأ الكلام: أما سمعتم بالفضيحة في مشفى الروضة الخاص؟

ـ أية فضيحة.

ـ توفيت شابة أثناء عملية الإجهاض.

ـ مسكين طبيب النسائية.

ـ بل مسكين طبيب التخدير.

أوضح صاحب الخبر شارحاً: لم يكن هناك طبيب تخدير، بل مساعد طبيب التخدير.

ـ وماسبب الوفاة؟.

ـ تعددت الأسباب، والموت واحد.

ـ تورط المشفى في مصيبة.

ـ يقال أن الموضوع قد يلّم ويستر عليه لأن المتوفاة آنسة.

ـ آنسة؟!

ـ أجل طالبة جامعية في سنتها الأخيرة كما فهمت، في هذه الحال، ليس من مصلحة الأهل إثارة الفضائح.

انطلقت أكثر من صيحة موافقة، معك حق، معك حق، الشرف فوق أي اعتبار.

قالت ممرضة: مسكينة تلك الفتاة، دوماً المرأة تدفع الثمن، الخنزير سبب المأساة يمكنه أن يخطب ويتزوج بعد أيام. قال طبيب: أنت دوماً حاقدة على جنس الرجال، ماذنبه الرجل إن كان لايحمل!! قالت: وماذنب المسكينة تموت بسببه؟

ـ لكنها لم تمت بسببه بل بسبب الإجهاض؟.

ـ لو تزوجها لما فكرت بالإجهاض؟

ـ وماأدراك ماحقيقة ظروفه أو ظروفها، لعلها هي التي ترفض الزواج منه.

ـ أي كلام غير معقول هذا؟ في هذا الشرق الذي يسحق المرأة بألف طريقة وطريقة، أيمكن لشابة تحمل من شاب أن ترفض أن يتزوجها؟! كن منطقياً يادكتور.

ـ والله ممكن، قد يكون لها طموحات وتطلعات، لايستطيع شاب مسكين أن يحققها!

انبرى طبيب: دعونا من هذه الأحاديث العقيمة، المهم أكمل لنا تتمة الفضيحة، ألم يستدع الطبيب الشرعي لتحديد سبب الوفاة.

ـ كما فهمت أن طبيب النسائية هرب، وبأن طبيب التخدير ويتحمل مسؤولية، لأن مساعده يعمل تحت حماية المخدر المتعاقد مع المشفى، والأخير كان في مزرعته، أما المتورط الحقيقي فصاحب المشفى.

ـ وكيف سيتصرف؟!

ـ سيحاول التكتم على الموضوع ودفنه، دون إثارة المزيد من الأقاويل والإشاعات.

ضحكت الممرضة: كل شيء ممكن عدا تحديد الشائعات في هذا البلد. لأن الشائعات هي خبزها اليومي.

ـ معك حق، لكن كل شيء يأخذ حده وينطفئ بعدها، غداً نسمع مصيبة غيرها تنسينا هذه الكارثة.

قالت الممرضة: لوكنا في أوربا لقبض أهل الشابة الملايين كتعويض عن وفاة الشابة.

ـ قلنا لك أن الميتة آنسة، وليس من مصلحة الأهل إثارة الفضائح، لعلهم مرتاحون في أعماقهم لوفاتها.

كان وقع كلمة وفاة مدمراً على كريم، غادر حلبة الثرثرة وفرّ من الباب الحديدي لمشفى الرخام.

إنه اليوم الثاني بعد وفاة أسامة، إنه يمشي ويفكر به، لايصوره خياله إلاممدداً على سرير العمليات غافياً، حاول استحضار صورته كيف دخل عيادته، وفحصه، لكن الصور كانت غائمة وسريعة الهروب صورته مسجى هي الغالبة، لم يشعر أبداً بثقل جسده كما الآن، يحس أنه مشدود بقوة إلى عمق لأرض، أتراه يرغب أن يغور في عمقها ويرتاح، أن يلحق بأسامة المسكين، تساءل:

ترى ألن يقصدني والده في عيادتي الخاصة، وكيف عساني أواجهه؟

أقسم أنه سيعطيه راتبه كاملاً وسيقول له: هذه عن روح أسامة... وماضرورة المال بالنسبة له بعد أن مات الصغير وماتت معه روح الطبيب. فطن كيف انطفأ إحساسه بالجوع تماماً منذ الكارثة، استحضر في ذهنه صنوف الطعام الساخنة والطرية، لكن الغثيان قلّص معدته بشدة، إنه غير قادر على ابتلاع أية لقمة، لكنه يطلب القهوة يرشفها ببطء وتمهل ربما يرتاح لسوادها، لارتباطها العميق بالأحزان والمآسي، لأنها طقس وحدته الأثير، ولها طعم خيباته وأحزانه، ماكان قادراً على التوجه إلى عيادته، وتخيل أن أسامة سيدخل عليه مجدداً مع والده، وسيفحصه، وسيوسوس له الشيطان كي يقوده إلى العملية، وسيكرر المأساة ويموت الصغير.. هاجمته دموعه لاذعة بسخونتها، آه ياأسامة، جلس في مقهى رصيف وطلب القهوة، لايزال ذهنه يحاول الاستيقاظ من تأثير المنومات الكثيفة التي ابتلعها دون رحمة، فكّر أن كمية الحبوب التي ابتلعها مع

النبيذ إضافة للإبرة التي زرقها في فخذه كان يمكن أن تثبط تنفسه وتقتله، حدث نفسه: ليتني مت... رشف القهوة واجداً عزاء قوياً في سخونتها، في دفئها الأصدق من دفء البشر، القهوة أدفأ من سلوى أكثر حناناً وإنسانية من تلك التي تلهث وراء الدولار... تخيلها بعيدة بعيدة، تشتري وتخزّن وتلتمع عيونها الزجاجية فرحاً بالتملك، وهو منفي لاتفكر به وبظروفه، لو تعرف بحاله الآن؟ لو تستطيع قوة ما أن تقذفها من غربتها لتنقلها إلى أخيها تتفرج عليه في انهياره... ترى ماذا ستفعل؟ صورها خياله بأنها ستظل جامدة وسترمقه ببرود وحقد بعينيها الخضراوين الجميلتين، ولن تندم كونها لم تساعده ولم تسمح له بتأجير مكتبها!

غرق في ندم تدفق في روحه بكثافة، عارفاً أنه سيجرجر ندمه طوال حياته، كم يحن لزمانه قبل أن يغدو قاتلاً، ياه كيف تكون السعادة بين أيدينا ولانشعر بها، ماالذي ينقصه؟ الأيتمتع بالشباب والصحة والعلم والاكتفاء، فلماذا يتورط في جريمة؟ لماذا يقود طفلاً بريئاً من يده إلى غرفة المذبح مقابل بضع ليرات!! أقرّ لنفسه أن حياته ستصير مدلهمة بعد تلك المصيبة، وبأن زمنه انقسم تلقائياً إلى قسمين، قبل الجريمة وبعدها. كيف عساه يعيش بعد تلك الواقعة؟ كيف يتأقلم الإنسان مع كونه قاتلاً؟ تساءل بكل قوى روحه الواهنة: كيف يعيش القتلة؟ ألاتلاحقهم وجوه ضحاياهم؟ كيف ينامون؟ كيف يأكلون؟.

طلب فنجان قهوة آخر، رشفه على مهل، واجداً المزيد من العزاء في دفء الشراب الحزين حدث نفسه: القهوة يجب أن تكون سوداء، أجبر نفسه على الإبتسام كي يحس بقدرة عضلاته على التقلص، على الحركة، ليستنتج أنه لايزال حياً. إنه يشعر أنه ليس حياً. إنه يشعر أنه ليس حياً وليس ميتاً، حالة بين بين ربما كحالة معظم البشر، فكر بطبيب النسائية الذي توفيت بين يديه الشابة التي يجري لها إجهاضاً. المسكين يتعذب مثله بالتأكيد، لكن الشابة متورطة وترغب بالإجهاض، وهو لم يورطها بعملية وهمية، أما هو فقد قاد طفلاً سليماً إلى غرفة العمليات ليقتله... شتان بين الحالتين. عبثاً يعزي نفسه طبيب النسائية

ليس قاتلاً أما هو فقاتل، وقاتل قذر أيضاً، لأنه لم يقتل بالصدفة أو دفاعاً عن النفس أو بالخطأ، بل خستّها قتل لدناءة روحه وحسنتها، كان يملك فرصاً للتراجع... تذكر الجملة الرائعة التي كان يستشهد بها في جلساته مع رفاقه في مقاهي الرصيف (ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه) إنه لايقولها الآن بصوته بل يكتبها بدمه... يفتت جسمه ويكتبها بأشلائه.

دفع ثمن القهوة للنادل من ثمن أسامة، من ربح الجريمة، سار بخطا ثقيلة كأن عقبيه مربوطان بسلاسل من حديد متسكعاً في الشوارع، كرر التساؤل الصعب لنفسه: كيف ستعيش زمنك بعد أن غدوت قاتلاً؟ أيعقل أن يتأقلم الإنسان مع هذا الوضع؟ كان يتفرج على المشاة بغرابة متعاظمة وهو يتساءل: هل أنا من طينة هؤلاء البشر؟ ترى كم قاتل بينهم؟ وكم مقتول؟ يجب أن يصّنف البشر إلى قاتل ومقتول، فيما مضى كان يصنفهم إلى غني مستغل وفقير مظلوم آه ماأتفه تصنيفاته. كانت أمه تنتظره على الغداء مدارية قلقها وراء قناع من المرح المصطنع، حدثته وهي تسكب السبانخ الساخنة في الصحن بأن أخته اتصلت وألحت أن يسافرا إليها هذا الصيف، وبأنها مشتاقة كثيراً لأخيها الحبيب، ودّ لو يسأل أمه: من تكون سلوى هذه؟ مارأيك بها ياأمي؟ لكن فمه ظل مطبقاً لايعلّق بكلمة، لم يستطع أن يبتلع لقمة أيضاً. أحس بحرج شديد من أمه وهو يرمق الطعام ويحس بعجز عن تناول لقمة، ألقى نفسه في لجة الكذب قبل أن يحضّر كذبته، وجد نفسه يقول لها: لاأعرف كيف أعتذر منك ياأمي، لكني مدعو للغداء، الدكتور محمد أصر على دعوتي.

قالت معاتبة: هكذا ياكريم، يمر يومان لاتتذوق فيهما طبخي؟

ـ آسف ياامي.

أسرع بالانصراف، هام في الشوارع المزدحمة، أراد أن يغيب في فوضى الزحام، استوقفه عمال طرق الحديد المحمى وصياغته بأشكال عديدة، كان يهرب من صوت المطرقة اللعين كما يسميه، الآن يحس براحة وهو يراقب المطرقة تنهال بقسوة هائلة فوق صفائح الحديد، ضميره يأخذ دور المطرقة...

أدهشه كيف تعطّل نهائياً شعور الجوع عنده، أحس بانخماص بطنه وبتناقض وزنه، ليت وزنه يستمر في التناقص حتى يتلاشى تماماً...

كانت صورة أسامة مسجى تلاحقه باستمرار، أمام عينيه حيثما نظر، تمنى لو يتخيله حياً، حاول استحضار صورة الصغير لون عينيه، لحظة دخوله إلى العيادة، لكن ذاكرته فشلت في استعادة اللقطات، حتى نغمة بكاء الصغير لايتذكرها. عاد إلى البيت بعد ساعتين من التسكع، وضع قناع المتخم من الأكل على وجهه، وهو يتجه رأساً إلى قوقعته متهرباً من أسئلة أمه المحتملة، ارتمى فوق فراشه منهك القوى، بكامل ملابسه حتى دون أن ينزع حذائه، أغمض عينيه، حدث نفسه، إنها الظهيرة الثالثة على موت أسامة، ابتدأ عهد جديد في حياته له توقيت جديد، تثاءب بعمق مرات كثيرة، أحس أنه يغرق في غيمة وردية دافئة تشبه (الغزلو) الذي كان يلتهمه وهو طفل، حلم أنه طفل صغير يتلقى هدية نجاحه من والده، ساعة أوميغا جميلة مستطلية، لبسها سعيداً، وأخذ يعرضها متباهياً بها أمام أصدقائه، فجأة تحّول رسغه المزين بالساعة إلى رسغ أسامة، يقبض عليه بقوة وهو في غرفة العمليات، يحاول يائساً أن يشعر بنبض الصغير، لكن عبثاً فتح عينيه مذعوراً، كان منامه حسياً لدرجة أحس أن حواسه كلها تيقظت وبأنه حبس فعلاً رسغ الصغير كانت راحته اليمنى متكهربة من اللمس، إنها المرة الأولى التي يبصره في منامه، يالعذاب الكوابيس، في صحوه ونومه يتعذب، كان قلبه يتقلص بقوة وغضب، وكأنه يقذف بسيل من الشتائم مع كل ضربة.

نظر في ساعته، كان قد أغفى ساعتين، قام ينظر إلى نفسه في المرآة، هاله شحوبه بدا متجففاً، تذكر أنه لم يأكل، ولم يشرب ماءً أيضاً، إنه لايشعر بالعطش أبداً، نسي أنه يملك جهازاً هضمياً، نسي كل شيء سوى موت الطفل، سألته صورته في المرآة: لماذا لاتقتل نفسك وترتاح من هذا العذاب؟ لم يستطع أن يواجه نظرة الكائن الآخر له الذي انفصل عنه واحتمى بالمرآة، نظرة الكائن الآخر حزينة بشكل لايوصف، يائسة حتى الموت.

تساءل: ترى ألايحق للإنسان اختيار لحظة موته؟ ولماذا يعتبر الإنسان قاتلاً إذاً قتل نفسه؟ مامعنى الحرية إن لم أستطع اختيار لحظة موتي؟!

هرب من الكائن الذي يشبهه تماماً، ودّ لو يكسر المرآة كي يغيب هذا الآخر، لكن صورته ابتسمت له بسخرية قائلة: كيف أغيب؟ من سيعزيك غيري؟ لمن تقدر أن تبوح له بسرك سواى؟ مع من ستتكلم عن هذه المشكلة؟

بصق في وجه الكائن الآخر قائلاً بحنق: أنا أكرهك.

رد الكائن الآخر: أتكره نفسك لهذه الدرجة، حرام عليك يارجل، ارحم نفسك.

رد بنزق: اخرس ياوجه النحس.

دعته أمه لشرب القهوة قبل أن ينطلق إلى عيادته، وجد نفسه يحكي لها عن موت الشابة أثناء عملية الإجهاض، حام حول جواب أمه ليتلمس خطاه جيداً في التعامل مع مشكلته، بعد أن سألها: أمي كيف سيعيش طبيب النسائيه بعد هذه الحادثة؟ سألته: لم أفهم قصدك.

ـ أقصد كيف سيتحمل عبء وفاة الصبية؟

ردت ببساطة وكأنها لم تعمل تفكيرها: لوكان صاحب ضمير ستلاحقه هذه الحادثة مدى حياته. هزته رعدة قوية، تحامل على نفسه وسأل: أليس من سبيل للخلاص ياأمي من فعل القتل، إنه قاتل برأيك أليس كذلك؟

ـ ألم تمت بسبب الإجهاض ياابني، رحمها الله، لماذا أخطأت بحق نفسها وجرتها إلى هذا المصير.

ألح في سؤالها: أتعتقدين أنه لن يستطيع أن ينسى مدى حياته أنه تسبب في موت الشابة وبأنه قاتل؟

ـ بل سينسى، من ضميره صاحٍ لهذه الدرجة في هذا الزمن؟.

ـ معك حق، قالها لأنه شعر أن من ضرورة الحوار أن يقولها، انصرف إلى

عيادته واضعاً يديه في جيبي بنطاله، متحسساً بقايا الأوراق النقدية البالية والمهترئة المتبقية من ثمن أسامة، كان ينتظر بصبر نافذ، لحظة قبض راتبه ليعطيه كاملاً لوالد الطفل... سيعرف عنوانه من مكتب القبول في المشفى وسيقصده، سيتعرف على أخوة المرحوم وسيتخيله كيف يلعب معهم، لوكان حياً الآن لكان يلعب مع إخواته و أولاد جيرانه، سيتورد وجهه ويلهث ويضحك، سينبطح أرضاً وسيشعر بالجوع والعطش، سيأكل الطعام الفقير، ثم سيغفو قرب إخوته، يدفئون بعضهم بعضاً... الآن كل هذه الصور الناضجة بالحياة ماعادت ممكنة، وصل إلى عيادته، أدهشه أن مريضين بانتظاره، تمنى لو يعتذر منهما، لكنه لم يجد حجة مناسبة، قبض المال وهو يشعر أنه يتسلم تعويذة الشيطان الوحيدة.. كتب في دفتر مذكراته تلك الحقيقة التي تكشفت له فجأة: المال تعويذة الشيطان.

خبأ المبلغ في الدرج، سيعطيه أيضاً لوالد الطفل المغدور، وجد نفسه يقلب صفحات دفتر مذكراته، كل ماهو مكتوب فيه، خطّته يده قبل أن تتلوث بالجريمة، تنهد قائلاً:

آه كم أحسدك ياصاحب القلم، كنت طاهراً، والآن أنت قاتل.... أمسك القلم، شعر أنه فقد القدرة على الكتابة، لكنه أجبر نفسه أن يسجل تاريخ وفاة أسامة.

اقتحم جحيم عزلته مصفف الشعر، روائح الصباغ والعطور تفوح منه من يديه وثيابه، بادره:

أين أنت يادكتور، والله أحس أنه مضى دهر لم أراك.

ردّ بآلية: أنا هنا، أنت مشغول.

ـ معك حق، هذا الأسبوع ازدحم محلي، زينت ثلاث عرائس.

لأول مرة لم تنخزه الغيرة قال: عال، الله يزيد الخير.

قال الرجل بلهجة المتخم: الحمد لله، غصون ابنة الصائغ اعطتني عشرة آلاف ليرة لقاء تصفيف شعرها وطلي وجهها بالماكياج... ياإلهي هؤلاء الناس

يحتارون كيف يبددون المال، ضحك ثم تابع.. على كلٍ لم يتعبوا في الحصول على المال؟ ضحك متباهياً بالثراء الفاحش الذي حققه من وراء رؤوس السيدات الفارغة:

- إلى حدٍ ما، لكن الدخل ممتاز في هذه المهنة، الحمد لله.

ماعاد يطيق تحمل جاره، استأذنه بالانصراف بحجة أن إسعافاً في المشفى بانتظاره. تمنى لويستطيع الفرار إلى الأبد خارج مبنى العيادة، وألايعود إليه مدى الحياة، في هذه العيادة المنحوسة وسوس له الشيطان وأغواه أن يجري عملية للصغير ليقبض المال، وجد نفسه يدخل أول صيدلية، ويشتري الحبوب المنومة والمهدئة، عليه اعتباراً من الآن أن يزود نفسه بتلك الأدوية لتعينه في تحمل زمنه الجديد الذي دشنه بجريمته النكراء.

* * *

حين فتح عينيه صباح اليوم الرابع لوفاة الصغير، كانت الأشياء حوله تدور، لم يكن قادراً أن يحرك عضلة في جسمه، حتى عينيه كان يغلقهما إعياء، ويفتحهما بعد جهد ليعاود إغماضهما، خسر خمسة كيليات من وزنه لأنه لم يأكل شيئاً منذ وفاة الصغير، كان يشرب القهوة مراراً، ويغرق جسمه في المهدئات والمنومات ليلاً، ليحلم بأسامة مسجى دوماً على السرير.

ليلة البارحة كان حلمه رهيباً، حلم أنه جالس في عيادته يقرأ في مجله سخيفة، فاجأه طفل صغير في العاشرة من عمره، يشكو من وجع في صدره، حين طلب إليه أن ينزع قميصه ليفحصه بعد أن طلب إليه أن يتمدد على سرير الفحص، وجد كتلة حمراء بارزة بحجم الإجاصة تحت ثديه الأيسر، كان قوام الكتلة ليناً طرياً، نظر إليه الطفل نظرة ساخرة وشجاعة وقال له: انزع لي قرص البندورة هذا، أمي توحمت على قرص بندورة وهي حامل، ولم تأكله، فنبت في صدري... نظرة الجنون هذه جعلت قلبه يرتجف، لكنه تغلب على رعبه بأن أمسك الكتلة بقوة وأغمض عينيه وحاول اقتلاعها بكل قوته، فنجح، أحس

بقوامها الممتلئ يملأ راحته، وبسائل لزج يسيل من بين أصابعه، حين فتح عينيه ليرى مكان اقتلاع الكتلة، وجد أسامة مسجى على السرير ميتاً، مسبل الأهداب، أفاق مرعوباً من الكابوس...

أمر نفسه أن يحرك ساقيه فلم يستطع، وأن يشد قبضته، فحرك اصابعه قليلاً، كان الوهن يهده، عليه أن يتحامل على نفسه ويقوم من الفراش، نظر في ساعته، إنها السابعة، ستكون أمه مستيقظة، إنه يعرف عظيم قلقها، تتمنى لم تزيح غمامة الحزن عن روحه، حين أرغم نفسه أن يقوم من فراشه، أحس لأول مرة بعد الكارثة التي ألمت به بخفة جسده، ربما لأنه خسر بضعة كيليات من وزنه، أو لأن صيامه القاسي مع المهدئات التي يبتلعها بكثافة جعلاه يشعر أنه منسلخ عن ذاته، لم يعد الدكتور كريم يزعجه، إنه أقرب للحالة النوارنية، بدت له تلك الحادثة المشؤومة لاتعنيه، وحياته كلها لاتعنيه إنه يشعر أنه من طبيعة شفافة، خفيفة، أشبه بالأثير، ربما غريزه الحياة دفعته لشرب كوب من الحليب، تذكر مساء البارحة حين قلى بيضاً ليوهم أمه أنه يأكل، لكنه رماه في القمامة. شرب الحليب وهو يشعر أن روحه تستيقظ من سبات ثقيل، لكن معدته أخذت تؤلمه، يبدو أنها اعتادت على الراحة طوال تلك الأيام.

حين جلس مع أمه يرشف قهوة الصباح ويحس بأنظارها المتفحصة عليه، تكشفت له على حين غرّة فكرة أذهلته وهي أنه ليس سوى حلقة في سلسلة طويلة طويلة، لها ارتباط بالحلقات التي قبلها والتي بعدها، ليس صحيحاً أن الشيطان وسوس له في لحظة معينة ليحول الطفل إلى غرفة العمليات وبعد أيام مات الصغير، الحدث ليس محصوراً بأيام، بلحظات، إطلاقاً، وإذا نظر إلى هذه الحادثة بالمجهر الإلكتروني، فسيرى في عدسة المجهر حياته كلها مذ كان طالباً على مقاعد الدراسة وحتى دخوله كلية الطب، وسيكون لوالده مساحة كبيرة في ساحة المجهر، الرجل ذابت روحه في الدروس الخصوصية، ليؤمن لابنه الطبيب الاختصاصي عيادة، عيادة لايقصدها مريض، والطبيب ينتظر بصبر الحمير ويحلم أحلام يقظة لانهائية إن دخل عيادته سيتحسن، ويسير بكآبة ويأس عظيمين كل يوم إلى المشفى ليتحول لمجرد خربشة في دفتر يفتح دفتيه....

سنوات طويلة، أو حلقات متتابعة جعلت روح المسكين محتقنة ومريضة وغير قادرة على التميز، حتى وجد نفسه محشوراً في زاوية ضيقة يلهث، سطعت في ذهنه الحقيقة دفعة واحدة، أجل أنا لست سوى حلقة في سلسلة، دبّ النشاط في جسده الرخو، أخذ يشعر كيف تستعيد أطرافه دفئها، هاله العذاب الفظيع الذي ذاقه في الأيام المنصرمة، تنبه لأمه تسأله:

ـ ألن تحلق ذقنك اليوم وتستحم.

قال: ـ أجل.

خاف أن يسقط في الحمام بسبب رخاوة جسده الشديد، لكنه حلق ذقنه وهو يتأمل صورته في المرآة، من هذا الكائن الآخر الذي يحسه انشطر عنه ليؤاسيه، ليحمل وزر خطيئته أو ليتبادلا الأدوار في حمل الجرم، ياللعينين الداكنتين، مااشد سواد حزنهما، بدت له أهدابه أطول مما هي في العادة، وأحس شحوبه أشبه بشحوب أيقونات القديسين، سخر من نفسه حين وصل ذهنه إلى القديسين، لكنه تذكر قصة القديس سلوان، ذلك الراهب الرائع، الذي ارتكب في شبابه جريمة قتل وحادثة زنى! وقضى حياته كلها محاولاً أن يتطهرّ مما اقترفت يداه، سيعاود قراءة هذا الكتاب، عسى القديس سلوان يدله إلى طريق الخلاص، أتراه قادراً أن يخلص من جريمته؟ وكم سيحتاج من زمن؟ وهل سيرجع إنساناً سوياً؟. قبض راتبه، لن يسعد بعد الآن بقبض الراتب أبداً، لن يشعر بنكهة أي شيء بعد موت الصغير، قصد مكتب القبول، وطلب من الموظفة أن تدله على عنوان أبي الطفل أسامة جولاق، كتب العنوان على قصاصة ورق، وخرج من المشفى وقلبه يطرق، كيف سيواجه الأب والأم والأولاد... تخيل أن إخوة أسامة يشبهونه وكأنهم نسخة منه، سيستطيع من خلالهم استحضار صورته حياً في ذهنه. أوقف سيارة أجرة، وطلب إلى السائق أن يوصله إلى العنوان المكتوب في قصاصة الورق.. قاده السائق إلى أحياء شعبية تضيق تدريجياً وتزداد قذارة، تذكر بيت آمنة، طفت صورتها في ذهنه أليفة، شديدة الوضوح أحسّ أنها الوحيدة التي يقدر أن يبوح لها بورطته، ترجل من سيارة الأجرة، كان الطريق ترابياً وجمهورمن الأولاد يلعبون حفاة بكرة

القدم ـ هاجمته الدموع وهو يتخيل أسامة يلعب بينهم. سأل أحد الأولاد:

ـ أتعرف منزل سليم جولاق؟ أشار الصبي إلى باب خشبي أخضر قال: هناك.

سأله بصوت مرتعش: إنه والد الطفل أسامة، أليس كذلك؟

أجاب الطفل: الذي مات؟ أجل إنه والده.

انحبست أنفاسه وهو يسمع الطفل يعلن له الحقيقة بشكل مختلف تماماً، صار اسم أسامة، الصبي الذي مات، وقف أمام الباب الأخضر الذي كان مواراباً، ومن خلاله لمح ثلاثة أطفال حفاة يجلسون على حصير، كلهم أصغر من أسامة، يلعبون بالبصل الذي نثروه، وأخذوا يتقاذفونه ككرات، طرق الباب بنقرات خفيفة، فهرول صبي شديد الشبه بأسامة ليقول بصوت جهوري قبل آن يفتح الباب كلياً: من؟ لم يجب حتى تواجه مع الطفل، اجتهد أن يبتسم في وجه الصغير، لكن جسده خذله، أخذ يرتعش بقوة خاصة عضلات فخذيه التي بدأت تتقلص بسرعة عجيبة، كأنها ترقص على إيقاع سريع، عجز عن رسم الابتسامة التي طلبها من وجهه، لكن صوته انطلق أخيراً يسأل: هل والدك هنا؟

قال الطفل: لا، إنه في العمل، من أنت؟

لم يستطع أن يقول بأنه الطبيب الذي تسبب بموت أسامة.

سأله. وأمك، أين هي؟

أشار إلى غرفة مظلمة داخلية، قال في الداخل تطبخ. ـ حسناً، نادها لوسمحت.

ـ لكن من أنت؟.

أطرق بخجل وأعلن بأسف شديد: أنا الطبيب.

رمقه الطفل بنظرة عتاب، وقد غشي الحزن عينيه فجأة وقال: طبيب أخي أسامة.

ـ أجل.

تبادلا نظرة طويلة، عينا الطبيب تتوسلان للطفل أن ترحماه، وفي عيني

الصغير عتاب وحزن طفولي يذيب الفولاذ، انصرف الصغير لينادي أمه، ظهرت بعد برهة إمرأة تحكم وضع المنديل على رأسها، حافية أيضاً كانت أقرب للأشباح بالعباءة الخشنة الواسعة التي تلبسها لكنه استطاع أن يميز هزالها الشديد، وقفت بالباب لم تنظر إليه، شعر بها كيف لاتستطيع النظر إلى وجهه، كان صمتها أقوى من أي تقريع، كان يتمنى لو تشتمه وتصفعه، ولم يعرف كيف سيبدأ الحديث معها، تمنى لو يفرغ بطانة جيوبه من كل مايحمله من مال، ويرميه عند قدميها دون أن يتفوه بأية كلمة، ثم يفر هارباً، كان الصمت بينهما ثقيلاً مشحوناً بأمور غير معلنة، تمنى لو تتنهد حتى، لو يسمع صوت تنفسها، لكنها ظلت واقفة كتمثال... أسعفه صوته أخيراً بتشكيل الحروف ولصقها، ونطقها: ـ لقد أخذت عهداً على نفسي أن أزوركم و... توقف عن الكلام، بدت له جملته مخجلة ومضحكة، أي عهد هذا قطعه على نفسه، أحسّ أنه متورط عليه أن يتابع الكلام. قال: لاتتصوري مدى حزني على موت الصغير، لو ماتت أمي لما تعذبت كما أتعذب الآن، داهمه عبث جنوني أن يعترف بالحقيقة، لكن صوته الذي غدا رخيماً ورائقاً استمر يرسم دوائر من الأمان الزائف حول الأم، لقد نذرت أن أقدم لاخوته مبلغاً من المال كل شهر.

لم ترفع نظرها إليه، ولم تنطق بكلمة، توقع أن تقول له بأن زوجها غائب ولاتستطيع أن تقبل شيئاً في غيابه، توقع أن تبكي، وأن تلعن الساعة التي قبلت أن يدخل ابنها غرفة العمليات لكنها ظلت مطرقة... خرس أمام حزنها المهيب، تلاشت الكلمات، أخرج راتبه كاملاً من جيبه، رغم أنه كان قد قرر أن يترك خمسمئة ليرة ثمن سجائره والموصلات الضرورية... لكنه قرر في تلك اللحظة أن يهبها راتبه كاملاً. مدّ لها المبلغ بعد أن طواه بشكل يأخذ أصغر حجم ممكن وقال تفضلي. لم تمد يدها، ولم ترفع نظرها إليه، لكنه لمح خطين من الدمع يسيلان على خدها ويسقطان قطرات كبيرة على الأرض الاسمنتية بين قدميه وقدميها، يده لا تزال ممدودة. اختنق صوته، كاد يكون متأكد أن حلقه حديد حقيقية تتشكل الآن في حنجرته، ترى من أين تجمعت ذرات الحديد في حنجرته؟!

قال بصعوبة: أرجوك اقبلي هذا المبلغ عن روح أسامة. أرجوك.

أمسك يدها الباردة النحيلة ودسّ المبلغ في راحتها، ولم تسعه الغبطة وهو يحس بحركة أصابعها تنكمش فوق الأوراق النقدية، تمنى لويركع ويقبّل الأرض التي سقطت عليها دموعها قال لها متشجعاً بعد أن استلمت المال: لو كرهتوني مدى العمر لن أزعل... سمع صوتها لأول مرة: نحن لانكره أحداً، الأعمار بيد الله، هذه مشيئة رب العالمين. كان صوتها صافياً، فيه قوة شفاء حقيقية، شجعه أكثر ليستأنف الحديث:

ـ أرجو الاتخيبي طلباً بسيطاً لي.

قالت: تفضّل.

ـ هل لي بذكرى من أسامة، قطعة ثياب مثلاً...

رفعت إليه عينين حمراوين قالت: ليس لديه ثياب خاصة.

ـ ألايوجد أي شيء خاص به.

تفكرت ثم قالت: أجل وسادة زرقاء صغيرة، إنها وسادته ودميته في آن، إنها الشيء الوحيد الخاص به.

ـ أكان يلعب بالوسادة؟!

ـ أجل كان يحوّلها لحصان.

ـ أرجوك، هل تقدميها لي؟. رمقته بدهشة، كأنها تقول: أنا لاأفهمك، لكن أحست برجائه الحار والصادق حين نظرت إلى عينيه بعمق. أسرعت تحضر له الوسادة الزرقاء.

حين أمسك الوسادة الصغيرة، لم يستطع أن يمنع دموعه من التساقط بغزارة أمام الأم، حمل الوسادة وأسرع هارباً مبتعداً، والطريق الترابي يتلوى كأفعى تتمايل طرباً على إيقاع تساقط دموعه.

* * *

دفن وجهه في الوسادة الصغيرة الزرقاء المبقعة بدوائر مختلفة، لعلها بتأثير

دموع أسامة أو لعابه تشممها بعمق لها رائحة تشبه اليانسون، أتراه كان يشرب اليانسون قبل أن ينام، أم أن رائحته الخاصة أشبه برائحة الشراب؟ استعاد قول أمه: هذه الوسادة هي الشيء الوحيد الذي يخصه، إنه يحولها لحصان ويلعب بها؟ ترى كيف تتحول هذه الوسادة إلى حصان ياأسامة؟ كيف تنبت الأرجل لهذا المستطيل الأزرق الصغير وينبت الرأس، أترى حصانك يركض ويسابق الريح؟ أي خيال جميل تمتلك ياصغيري، وانطفأ الآن؟ هل تحن لوسادتك ياأسامة؟ أكنت تتمنى لو يدفنوها معك؟ أتراك حزيناً الآن وأنت ترى قاتلك يستولي على ملكينك الوحيد في هذه الدنيا؟ لن أفرط بوسادتك أبداً ياصغيري حتى آخر يوم من عمري... هل يرضيك ياأسامة أن أعطي أهلك المال؟ لماذا لاترد علي بكلمة. لماذا تصر أن تظل مخدراً ونائماً وميتاً في خيالي؟ استيقظ ياأسامة في ذهني على الأقل، اصرخ بي، اشتمني، عكّر سلامي الزائف والآسن، إنما لاتظل هكذا مسجّى فوق طاولة العمليات، غافياً إلى الأبد...

هكذا كان يناجي الصغير فيما تقلصات معدته تزداد وتصبح مؤلمة، بعد صيام عن الطعام أربعة أيام، لعلها انتعشت بعد كأس الحليب الذي تجرعه صباحاً، حدّث نفسه: أيطلب جسدك الخسيس الطعام، لكنه انساق وراء إلحاح معدته وتغدى مع أمه، لاطعم لما يأكله، أحس بالشبع بعد لقمات قليلة. سألته أمه بقلق: لقد نحلت كثيراً ياكريم؟ ماالذي يعذبك ياابني؟. في صوتها لهفة ورجاء، تمنى لويملك الجرأة ويبوح لها بعذابه، لكنه لايستطيع، لايريد لعينيها أن تصيرا صليبه الدائم، يكفيه صليبه الشخصي وكوابيسه...

أحسّ أن أمه صارت غريبة عنه بعد تلك الحادثة، لايعرف لماذا يشعر تجاهها بالحذر، ويتجنب النظر في عينيها والتحدث إليها، حتى كلامها صار غير مفهوم بالنسبة له، فحين تحدثه عن سفرهما إلى أميركا، ينظر إليها باستغراب لكأنه يسألها: عم تتحدثين؟... لم تستطع أن تقنعه بالسفر معها ماعاد قادراً أن يكلمها كالسابق، إنه يحس نفسه شخصاً آخر، عليه أن يتعرف على مزاياه، بتعبير أدق على نواقصه. بعد أسبوع من وفاة الصغير، استحم كريم، دعك جسده جيداً بالليفة والصابون، اختلطت دموعه بالماء الساخن الذي أحس

بحرارته تفوق حرارة الماء، كان يفكر أنه في استحمامه السابق لم يكن قد ارتكب جريمته بعد... منذ أسبوع كان نظيفاً من الداخل، كان يحتاج لمجرد ماء وصابون لينظف جلده من الغبار والعرق، الآن يستحيل أن يشعر بالنظافة، إنه مفصول بشرخ كبير عمّا كانه قبل أسبوع، حاول أن يتذكر تفاصيل استحمامه السابق للجريمة، بأية حالة معنوية كان؟ هل كان متعكراً أم سعيداً؟ تذكر أنه قد اشترى ثلاثة ألواح من الصابون المعطّر ودفع ثمنها من الأربعمئة ليرة التي قبضها من والد أسامة، حدث نفسه: يجب أن أسمي هذا الصابون بصابون الجريمة. كاد يسقط وهو يفرك قدميه بليفة الحمام بسبب دوار مفاجئ داهمه، حدّثه الكائن الآخر الذي انشطر عنه منذ وفاة أسامة بوجوب تخفيف الحبوب المهدئة التي يتلعها بلاحساب. نصحه أن يأخذ إجازة ويرتاح، أن يتنزه على شاطئ البحر، وأن يتأمل البحر طويلاً.. لأن ليس سوى المدى الأزرق يريح النفوس المتعبة...

تذكر كيف كان يخرج من الحمام منتعشاً، عرف أنه لن يشعر بذلك الانتعاش أبداً... عجباً كيف تلقي حادثة واحدة بظلالها على حياتنا كلها، طباعنا، وشخصيتنا، فتحوله بطرفة عين إلى شخص آخر، كان يغوص منقاداً لهذه الفكرة حين نادته أمه ليكلم صديقه بالهاتف...

قال لها بنزق صريح: كل من يطلبني قولي له أنني غير موجود.

وقفت بباب غرفته، لاتجرؤ على الدخول لأنه يرشقها بنظرة لاتعني سوى اتركيني وحيداً سألته: لماذا تتهرب من رفاقك؟. قال: هكذا، لأني متعب، لاتسألني لماذا متعب... اتركيني وشأني.

استدارت لتنصرف، تأمل قامتها الصغيرة النحيلة والحدبة المستديرة الآخذة بالازدياد بين كتفيها، تدفق حنان موجع من صدره نحوها، تمنى لويملك الجرأة ويدفن رأسه في صدرها، ويحكي لها كل شيء، كل شيء... لكنه دفن وجهه في الوسادة الزرقاء وأجهش بالبكاء...

* * *

بدت حياته وكأنها انتظمت، إنه يأكل وينام ويستحم وينوس بين مشفى الرخام وعيادة التحنيط كالعادة.. حاول أن يعاود القراءة لكن ذهنه خذله مراراً بعجزه عن التركيز... اعتاد على الجرعة العالية من المنومات التي تلقي بخدرها على نهاره كله وتتركه بحالة نصف صاح، نصف نائم، كان يحس أن هذه المنومات ترفعه فوق واقعة، تشعره أنه غير معني بشيء حوله، بل ماعاد يشعر أن شيئاً يخصّه، تحرر من كل طموح، وأمل، وحلم، وحتى الألم، تحرر منه، إنه ينتظر أي شيء، ولايطلب أي شيء، يشعر بحباله متقطعة مع الماضي والمستقبل وحاضره يدخله بحالة من الغياب، يحس أنه يعيش لأنه لايملك خياراً آخر، لن يقتل نفسه سيتركها تنتظر المكتوب والمقدّر، أغواه القدر بالتفكير بلغزه، أحقاً لكل إنسان قدره؟ وهل القدر مكتوب منذ الأزل؟ أكان مقدراً له منذ البدء أن يولد في أسرة طيبة لأب مكافح وأم معطاءة بلا حدود، وأن يتفوق بدراسته ويحلم بدراسة الطب، ثم يغدو طبيباً ويختص بالجراحة العامة، ثم يعاني أزمات مادية ونفسية خانقة تتكثف حتى تؤدي لموت طفل!! ياللشرخ الكبير الذي شطره نصفين، ولد منه الكائن الآخر الذي يشبهه كتوأم ويختلف عنه تماماً في العمق، إنه الآن معطوب... ماأسخف الإنسان حين يدعي أنه قادر أن يصنع نفسه ويخلق مصيره؟ كم تسخر منّا الحياة، هكذا كان يحدّث نفسه وهو يتساءل: أكان يخطر لك ياكريم أن تصل إلى ماوصلت إليه، لو أمكنه وهو طالب على مقاعد الدراسة أن يتفرج إلى ماسيؤول إليه، هل كان سيختار الطب عندها؟ لكن هل حياة واحدة تكفي ليتعلم الإنسان؟ ماهذه الأسئلة الغريبة التي تلحقه، ترى هل يشعر أنه أصبح مخبولاً بعد وفاة الصغير؟.

كان يحاور الكائن الآخر حوارات لاتنتهي.. يسأله: ماوسيلتي للنجاة من كل هذا الألم واليأس وتأنيب الضمير؟. يجيب الكائن الآخر: اصبر ياعزيزي، الزمن كفيل بشقائك.

ـ الزمن! لكن الزمن لن يغير من الحقيقة بشيء، فأنا نسببت بقتل الطفل، **أنا قاتل.**

ـ لكنك لم تقصد قتله ياكريم، أنت شاب طيب ومسكين، لذلك تتعذب إلى هذا الحد، كنت تعتقد أنه سيتم تخدير الصغير لدقائق ثم سيصحو، لكنه لم يصح، هذا لايعني أنك قاتل، كان يمكن لهذا الصغير أن يموت في عملية أخرى، استئصال زائدة دودية مثلاً، أو تعرضه لحادث سيارة يستدعي التخدير...

ـ لكن كل هذه الاحتمالات، تبقى احتمالات، في الواقع أنا قتلته، أزحته من الحياة، وتسببت في غرقه في حفرة داخل الأرض، وهو طفل صغير حرمته من دفء أسرته.

ـ لاتجنح بعيداً بخيالاتك، لاتترك العنان لخيالك يعذبك... هذا الصغير كان يائساً محروماً ومضطهداً من قبل أكبر سفاّح في العالم: الفقر... الفقر ياكريم أقسى من الموت، هل تفهم؟ لعلك أرحته من حياة الذل والفقر، ثم هاأنت قطعت عهداً على نفسك أن تساعد أهله مادياً قدر استطاعتك...

ـ وماعلاقة مساعدتي المادية لأهله، بالحقيقة، ببشاعة جريمتي؟.

ـ كيف؟ كيف لاعلاقة بينهما، إنها تدل على معدنك الطيب، الإنساني، أنت في الواقع قاتل بالصدفة.

ـ ماذا! قاتل بالصدفة؟

ـ أجل، لأنك لم تتعمد القتل، ولم تسع إليه، لسوء الحظ الصغير يعاني من نقص خمائر لم يتحمل مواد التخدير فتوفي، الأمر بسيط كما ترى، هل تريدني أن أستشهد لك بعشرات بل بمئات الحالات التي توفي فيها المرضى أثناء العملية أو بعدها. فلماذا تعذب نفسك هكذا... ثم لماذا لاتفكر بالحياة تفكيراً شمولياً، حاول أن تسائل نفسك، كم عدد الذين يموتون كل يوم من حوادث السير، من الزلازل، من الكوارث الطبيعية، كم عدد الذين يموتون من المجاعة ومن الأمراض... مابك تكاد تقتل نفسك بتلك السموم التي تبتلعها كل يوم... هلاّ أحصيت كم حبة مهدئة ابتلعت منذ الكارثة؟! أراك مطرقاً لاتجيب، أتعرف أنك استهلكت أكثر من مئة وخمسين حبة فاليوم خلال شهر، لماذا تسمم

جسمك، لماذا تدفع بنفسك إلى الإدمان، ألتحرق قلب أمك، وهي تراك تذوي، وتظنها لاتعرف أنك تبتلع هذه السموم لكنها تقف مشلولة، لاتجرؤ على مخاطبتك، انظر إليها كم هي معذبة، كم تتعذب بسببك ألا يؤنبك ضميرك تجاهها، هل انتهى العالم عند هذا الصغير!!

أجاب كريم الكائن الآخر المنشطر عنه، وهو مهدود القوى: أجل انتهى عالمي عند هذا الصغير.

ـ لا، لا يجب أن تنتهي، يجب أن تحيي الأمل في نفسك من جديد.

ـ ولماذا علي أن أحييه؟ مالذي ينتظرني؟ إن تلك الكارثة تلقي بظلالها على حياتي المتبقية.

ـ لاتكن متشائماً، غاية الحياة هي الحياة، الحياة فن، يجب أن تتعلم استنزاف حلاوة كل لحظة، أنت شاب والشباب ثروة، ومتعلم ومثقف، ومحبوب احتماعياً، أتعرف لماذا لاتفكر بالزواج مثلاً؟

ـ أنت تعرف أنني فاقد الشهية للحب.

ـ لماذا؟ كثيرات يتمنين لو تعيرهن انتباهك.

ـ ألا تكفيني معاناتي مع العلف اليومي، لماذا علّي أن أشرك مخلوقاً آخر معي؟.

ـ لكن هذا المخلوق الآخر سيساعدك مادياً ومعنوياً.

ـ لاأريد مساعدة أحد، لاأطيق أن يلازمني أحد كظلي.

ـ فكرتك خاطئة عن الزواج، الحياة شركة، حلاوتها في التحمّل المشترك والتمتع المشترك بكل شيء، ثم إن الأطفال نعمة، الطفل يخزي الشيطان كما يقال.

ـ طفل كأسامة مثلاً، ذلك المسكين الذي مضى شهر على وفاته.

ـ لو استمررت تفكر بهذه الطريقة، فهذا هو الموت عينه.

ـ ليتني أموت حقاً، على الأقل أرتاح من عذاب الدقائق والثواني الذي لايرحم.

ـ ولماذا كل هذا العذاب؟ لماذا المبالغة غير المعقولة هذه؟.

ـ أحقاً تسأل؟ يالك من استفزازي...

ضحك الكائن الآخر وقال: أأنا استفزازي، أنا الذي يجب أن يسألك، لم كل هذا العذاب؟ أنت دمرّت أعصابك يارجل خلال شهر، تحوّلت لمخبول، فقدت سبع كيليات من وزنك خلال أسبوع، حطمت جهازك العصبي بالمنومات . تهيم في الشوارع وكأن مصائب الدهر على كتفيك، لماذا كل هذا الدمار ياكريم؟.

صرخ كريم بالكائن الآخر: لأنني صاحب ضمير، لأن ضميري لم يمت بعد؟ أم أنك تريدني أن أقتل ضميري.

ـ لا بالطبع، لكن لكل شيء حدود حتى الضمير.

ـ لاأفهمك، هل تعني أن الضمير درجات.

ـ تماماً، بل يجب أن يقف عند حدٍ معين وإلا انقلب على صاحبه ودّمره.

ـ ماهذه السفسطة الكلامية؟ هل نتبارى في اللغة؟

ـ إطلاقاً، كل شيء يخص الإنسان يجب أن يقف عند حدود معينة، الحب إذا زاد عن حدّه يدمر صاحبه، البشرية عرفت هذه الحقيقة، ألايقولون: ومن الحب ماقتل.

الذكاء إذا زاد عن حدّه ينقلب إلى جنون، هل تعتقد أن الضمير وسيلة للفتك بالإنسان؟ لو أخطأ كل إنسان وتعذب مثلك، لمات كل البشر من لسع سياط ضمائرهم! طبيب النسائية الذي توفيت الشابة بين يديه يجب أن يقتل نفسه إذاً؟ للضمير حدود ياكريم، إنه يجب ألا يعرقل سير الحياة، لأن غاية الحياة هي الحياة، يجب أن نتعلم كيف نجعل الحوادث المؤلمة تنزلق علينا انزلاقاً، وألانسمح لها أن تعكر سلامنا الداخلي وتنخر أعصابنا في العمق، وتحولنا إلى هياكل فارغة كالقبور...

ـ كلامك سهل جذاب، لكنه خاطئ، لن تفلح في إغوائي بمنطقك الهزيل، أقول لك بل أؤكد أنه يستحيل على الإنسان أن يتحرر من آثار ماافترفته يداه، يستحيل أن أعود كريم الأول، كل شيء فيّ تغيّر.

ـ بل أنت كريم ذاته، لكن لو ترحم نفسك قليلاً، وماأشد قسوتك على نفسك؟

ـ أرحم نفسي! ها أنا أرحمها، لقد عدت أمارس حياتي كالسابق، وهاهو جسدي الدنس الوضيع يدب إلى الحياة ويطلب الطعام والشراب والنوم.

ـ يجب أن تكف عن احتقار نفسك، القاعدة الجوهرية التي يجب أن ينطلق منها الإنسان لينجح في الحياة، هي قبوله لنفسه، ليس مجرد قبول، بل أن يحبها، أن يسامحها ويرأف بها ويعرف أن الطبيعة البشرية تتعثر وتسقط، وبأنها ليست منزهة عن الخطأ. إن لم تحب نفسك لن تقدر على محبة أحد.

ـ لكني لاأحب نفسي، إنه الأمر الوحيد الذي اثق به، أنا أكره نفسي صدقني وأملك كل الأسباب كي أكرهها، لايمكن أن أنسى إطلاقاً كيف جررت هذا الطفل إلى الموت...

لايمكن أن أنسى أتفهم؟

ـ عجباً، أنت لاترضى أن تساعد نفسك، ولاأن يساعدك أحد.

قال كريم باحتداد للكائن الآخر: أنا لاأريد مساعدتك، ولاأحب تطفلك، اتركني وشأني دعني احمل وجعي وحدي. تبادلا نظرة ملتبسة، عاتبة متحدية ويائسة وحنونة... انطفأ الكائن الآخر، أو عاد إلى مخبئه في ركن من صدر كريم، ابتلع الطبيب المخذول حبتين مهدئتين، تكوّر في فراشه متخذا وضعية الجنين، عارفاً سلفاً أنه سيحلم بأسامة.

منذ الحادثة المشؤومة صار يتخذ وضعية الجنين في نومه، لعله يجد فيها الحماية التي ألفها يوماً ماحين كان جنيناً. كان حلمه هذه المرة رهيباً، حلم بأسامة مسجّى على طاولة العلميات، وبأنه حي، لكنه مخدّر، طبيب التخدير

أعطاه إشارة البدء بالعمل. سأله كريم: هل وضع الصغير جيد. أكد طبيب التخدير: ممتاز.

تردد كريم: هل أطوقّ المعصرة بالسلك أم أتركها؟! لكنه حين همّ بالكشف عن منطقة العملية، أطلق صرخة ذعر مدّوية، كانت أمعاء الصغير مسحوبة كلها من فوهة شرجه ومتكومة بجانبه، انتفض طبيب التخدير من صراخ كريم، سأل: ماالخبر؟ لم يستطيع كريم التفوه بأية كلمة، أشار إلى أمعاء الصغير، لم يبد أي ذعر على طبيب التخدير بل أمسك مشرطاً قطعها وألقاها في القمامة.

فتح كريم عينيه مذعوراً، لاهثاً من فظاعة الكابوس، وإلى متى سيظل أسير كوابيسه؟ كان يلهث من الانفعال وكأنه خارج من تمارين رياضية منهكة، تساءل بقلق: أإلى هذا الحد ترهقه الكوابيس؟ أتاه صوت الكائن الآخر الذي استيقظ بدوره بسبب الكابوس، وقال بحنق:

ـ الانفعال أقوى من أي جهد جسدي.. إلى متى ياكريم، إلى متى ستحرق أعصابك؟!

ردّ كريم منهكاً: لكنني لاأملك السيطرة على أحلامي.

ـ حين تحاول تهدئة نفسك، ستتغير أحلامك.

ردّ هازءاً: ستصير أحلاماً وردية.

ـ أجل ستصير أحلاماً وردية.

فكرّ هذا الصباح أن يقصد طبيباً اختصاصياً بالأمراض النفسية، لم لا، النفس تمرض كالجسد وتحتاج لعلاج، ارتاح للفكرة، لكن صوتاً منطلقاً من قاع روحه ذكّره انه لن يستطيع أن يبوح بتلك الحادثة للطبيب إذاً مامعنى اللجوء إليه؟ هبط حماسه سريعاً وهو يتساءل: ماذا سيقدم لي طبيب الأمراض النفسية؟ هل سيلغي هذه الحادثة؟ سيصف لي مهدئات من نوع آخر، سيقول كلاماً انجح أكثر منه في قوله، مجرد كلام، آه متى أرتاح؟ هاقد مضى شهر ويومان على

وفاة أسامة، وأنا أشعر أني أغرق أكثر وأكثر في لجّة الظلام... آه ماأثقل الزمن حين تفترشه الآلام، أقرّ بينه وبين نفسه أنه ليس كالحزن يسرّع في الشيخوخة، إنه يشعر أنه غدا كهلاً، صار يلهث وهو يصعد الدرج، فقد شهيته للطعام، يحس بآلام مبهمة في جسده كله، وحلاقة ذقنه ترهقه، وتشعره أنه بذل جهداً عظيماً... يتأمل شخصه في المرآة، لايكاد يتعرفه، عيناه بحيرتا حزن بنفسجيتان، هالة سمراء تصبغ أجفانه، شفتاه جافتان، وخداه غائران.. شعره وحده يبدو غير متأثر بالمصيبة محافظاً على لمعانه وكثافته. كان يحبس جسده مندهشاً من نحوله الشديد، ويمازح نفسه قائلاً: الريجيم الحقيقي هو المصيبة. بدت له كل سنوات حياته أشبه بضباب بعيد، المصيبة وحدها تترك وشماً يحتل الذاكرة كلها.. إنها تلغي تماماً كل أشرطة التسجيل للذكريات القريبة والبعيدة، تعلن توقيتاً جديداً يبدأ من لحظة وقوع الكارثة، وهو يشعر بعد شهر من وقوع الحادثة بأنه أوشك على التأقلم مع الجحيم، اعتاد على الذهول والكوابيس والمهدئات، يسفها بكميات جنونية، نسي رفاقه وثرثرة المقاهي، وثرثرة استراحة العمليات، وحواسه مشغولة، تحديداً معطوبة، المصيبة زلزلت كيانه، فجرّته وماعاد بإمكانه ترميمه حتى أمه يحسها بعيدة، كأن كل منهما يقف على ضفة نهر، وبينهما شرخ عريض أزرق، يناديها فلا تسمعه، تناديه فلايسمعها، يشحذ حبها كمتسول، لايتنظر شيئاً على الإطلاق، يقول لنفسه مراراً بأنه يتمنى الموت، لكنه كذّاب، لأنه لم يحاول جدياً الانتحار أحياناً تذهله قدرة روحه على التمثيل، يكاد يقنع نفسه بأنه لم يقتل الصغير، يحس أنه اقتنع، يعيش ساعات من المرح المباغت، يضحك بنهم، ضحكاً عصبياً، يشعر بأن الحياة جميلة، وبأنه يتمتع بامتيازات يحسد عليها. الروح تأنف الحزن المديد، تريد أن تبدده، إنها بفطرتها تتوق للفرح. لكن أكاذيبه لاتعيش أكثر من ساعات، يداهمه الغّم فجأة متمثلاً بالحقيقة المرة، يحتضر بلحظة كل فرحه المزعوم، يحس كم هي مشتته روحه ومرضوضة، يستسلم للمرارة القاتلة، يحسها في حلقه وقلبه. يتساءل بانكسار: أما من أملٍ بالشفاء؟ هل ستظل تلك الحادثة تلاحقني كاللعنة؟ يحس الحزن نفقاً طويلاً لانهاية له، أو بئراً بلاقاع، لو هوى

فيها فسيخرج من الفتحة المقابلة من الكرة الأرضية، ثم سيضيع في الفضاء الكوني، لشد مايتمنى أن يتوه كنيزك هارب. تساءل: ترى أما من علاقة بين الاضطرابات النفسية للبشر والاضطرابات الكونية؟ أليس كل مافي الوجود أساسه النواة؟ والعلماء ينقبون في تلك النقطة المجهرية ويكشفون العجب، قرأ مقالاً منذ مدة أدهشه، العلماء يتوصلون لاكتشاف الأمراض التي يمكن أن يصاب بها الإنسان عن طريق دراسة صبغياته... العباقرة والعلماء يستخدمون حوالي ١٠٪ من طاقة دماغهم، حاول تخيل ماذا سيحدث لو استخدم الإنسان طاقاته الذهنية كاملة، تخيلّ بأن الأرض ستنفجر كقنبلة... تساءل: ترى مامستوى ذكائي، كم يستخدم من طاقاته الذهنية؟ تذكر قصة أن البشر تمردوا على قدرهم، فطلب إليهم القدر، أن يطرح كل منهم مشكلته في السوق ويختار بدلاً منها مايقدر على تحملّه ـ فعاد كل واحد ليختار همّه لكنه متأكد أنه يستحيل أن يختار تلك المصيبة، إنه يتمنى لو يخسر عيناً أو رجلاً، أو يموت حتى يتحرر بالمقابل من وزر جريمته النكراء... روحه مهددة بالدمار بسبب موت أسامة... ترى الاتصاب الروح بالسرطان؟! أليس الوجع المستمر والمضني للروح هو سرطانها؟! سرطان الجسد يمكن شفاؤه أحياناً، فكيف يمكن شفاء سرطان الروح؟ كان يشعر أن روحه تخرج على دفعات مع انفاسه وأنها تكاد تنفق... لكن إنه يشعر بأشواق غامضة وبعيدة جداً، تلوح له مخاتلة، لاتحدثه، لكنه يشعر أنها تعده بالشفاء، أتراه واهماً، أم أن تلك الأشواق حقيقة؟ هل من أمل فعلي في شفائه... آه لويرجع أسامة للحياة، لو تذوب روحه في جسد جنيني يتشكل في بطن إمرأة ما... تساءل: هل ستلتقي روحي مع روح أسامة بعد وفاتي، وكيف سيكون اللقاء؟ لكن هل هناك عالم للأرواح حقاً؟ وهل تتلاقى تلك الأرواح؟ ياإلهي ماذا قدّمت لنا سوى الألغاز؟ يقضي الإنسان حياته كلها محاولاً فك الألغاز، يخترع الأساطير، ويؤلف القصص والأشعار متوهماً أنه يفك رمز الحياة، فإذا به ينتقل من غموض إلى غموض أشد.

* * *

يحس أنه يطل على عالم الجنون ولايدخله، ذهنه فقد صفاءه نهائياً،

أفكاره أشبه بالهلاوس، ودوماً صورة أسامة ميتاً على طاولة العمليات تملأ فضاء رؤيته، حتى حين يغمض عينيه ترتسم تحت أجفانه، كل الأشياء ماعادت تعنيه، لاكتبه ولامجلاته ولادفاتر مذكراته، لم يكترث أن يلبس القميص ذاته اسبوعاً، غرض وحيد يحرص عليه ويطيل النظر إليه ويتشممه ويخاطبه، إنه الوسادة الزرقاء لأسامة، إنها الشيء الوحيد الذي يقدر على إقامة علاقة معه... كم كان يدفن وجهه في الوسادة يصغي للصمت، أو للدوي الهائل في أعماقه، الناتج عن الصراع المرير الأزلي بين اليأس والأمل، يحس أنه يقترب من الصغير حين يحتضن الوسادة، ينهر خياله كي يخلق صور أسامة حياً، يلغب ويصرخ، لكن عبثاً، الصغير مصمم على الاستلقاء والنوم بعمق حتى الموت.

أخذ يفكر بالانتحار كحلٍ يريحه من عذاباته، مفكراً أما سلبت الصغير حياته، يجب أن تكون عقوبتي الموت، العدالة يجب أن تسلبني حياتي، لكن عزيمته على التنفيذ مشلولة.

إنه محاصر بين قوسين، فكل مايبرطمه من كلام بشأن الانتحار لن ينفذ منه شيئاً، وليس قادراً في المقابل على إحياء أمل حقيقي في روحه لاستئناف الحياة مجدداً...

وقد يستمر الإنسان مشلولاً أعواماً طويلة ولايموت، نفسه تحدثه أنه سيجتر سنوات طويلة من الألم، ربما كل السنوات المتبقية من حياته، هناك آلام تحسها من صنع السماء تشفي، وآلام من صنع الجحيم تدّمر... لماذا آلامه من النوع الثاني دوماً؟ إنه يشعر أن آلام روحه غدت فوق طاقته، وهاهو يقضي ساعات طويلة منصتاً لأنين ألمه الخاص. صار يفكر بأن الموت هو البلاغة الحقيقية في الوجود كله، ترى لم لايملك الجرأة على الانتحار؟ ماعاد يطيق عيادته ولامشفى الرخام، إنهما شاهدان أبديان على جريمته... فكرّ أن يقدم طلباً بإجازة طويلة، لكن ماالفائدة؟ فهو عملياً كأنه في إجازة أبدية، ولم يدخل غرفة العمليات منذ تلك الحادثة المشؤومة، يشعر أنه عاجز عن دخولها، وماوجوده في المشفى سوى مجرد توقيع.

لم يكن يجرؤ على تخيل أنه سيشفى، وسيستعيد صحته النفسية، وتتحول تلك الحادثة لذكرى بعيدة، إنه يعرف بحدسٍ غريب بأنه معطوب من الداخل، وبأن موت الصغير هو التتويج لسلسلة متراكمة من الأخطاء التي تورّط بها ولم يخترها يوماً... لم يعد المال يعني له أي شيء، لم يشتر شيئاً منذ الحادثة سوى السجائر.

حين فكر أن يقدم راتبه الثاني بعد الحادثة لأهل الطفل أحس بخوف، ألايمكن أن يثير شكوكهم؟ تعّجب أن والد الصغير لم يقصده أبداً في عيادته بعد الحادثة، وحتى بعد أن أعطى المال لزوجته... أترى زحمة الحياة أنسته حتى ابنه؟!

الراتب الحقير في جيبه، لامعنى له، ولاقيمة، أوقف سيارة اجرة لينطلق إلى بيت الفقيد ليقدم الراتب الثاني عن روحه أيضاً، لكنه طلب من السائق أن يتوقف بعد دقائق... وترجل من السيارة يسير كالتائه، تقدمت منه متسوّلة صغيرة حافية القدمين، تمد له كفاً قذرة، بأظافر طويلة محشوة بالأوساخ، تأملها بأسمالها البالية الواسعة، وبقدميها الحافيتين المزرقتين، وجد نفسه يخرج محتوى جيوبه ويقدّم لها راتبه كاملاً...

شهقت مذعورة، رفعت إليه عينين مذعورتين، إنها تتوقع صفعة مدوية على وجهها لو تجرأت ولمست المبلغ قال لها برقة: خذي المال، خذيه كله... لم تجرؤ، نظرتها خرساء ومشلولة، وضع الأوراق المالية في يدها وأغلق أصابعها وقال: هذا لك. ظلت تقف جامدة وفي عينيها نظرة دهشة مملوءة بالذعر، تركها وقد بدأت آلام حادة أشبه بالطعنات تنتشر في صدره ومعدته، اعتقد أنها آلام الجوع، لكن الآلام غدت وحشية لدرجة أخذت خطواته تضطرب، أحس أن الدنيا تدور حوله وتدور... اضطر أن يستند إلى عمود الكهرباء، فيما رغبة لاتقاوم بلإقياء تداهمه، تساءل لكني لم آكل شيئاً هذا الصباح، لم أشرب سوى شراب الحداد، القهوة... امتلأ فمه فجأة بسائل لزج حار، تقيأ دماً غزيراً قانياً، لوّث ثيابه وبلاط الرصيف، شعر أن أطرافه مغمورة بالثلج، أحس براحة

أشبه بالغيبوبة، تقيأ الدفعة الثانية من السائل الأحمر، تهاوى وهو يشعر أنه يطير في فضاء فسيح فسيح لايحده عائق أو نهاية، روحه تحلّق في الفضاء وجسده يتكوم على الأرض... سمع ضجة عالية حوله... أمكنه أن يرى وجهين، أمه الحبيبة تبكيه بحرقة، همس لها: يبدو أن هذه المعاناة غير مجدية ياأمي. سمع تساؤلها: أية معاناة ياكريم؟ ابتسم قائلاً: معاناة البشرية.

الوجه الثاني الذي تهلل للقائه كان وجه أسامة، نضر ورديا، وقد شعت عيناه بنظرة طفولية عذبة، أخذ أسامة يضحك من كل قلبه، لأول مرة يسمع صوته منذ وفاته، قفز الصغير ليمتطي حصاناً رائعاً لونه أزرق، ذيله ذهبي، وعيناه بنفسجيتان ساحرتان، ينظر إليه أسامة وهو يصفق بيديه قائلاً: سأغدو فارساً ألاترى حصاني الأزرق، إنه أول حصان أزرق في العالم، في التاريخ، يضحك وهو يمد له يده الطرية التي يقطر من رسغها دم أحمر امتزج بدمه... يغيب كل شيء في ذهنه، تتلاشى هلاوسه البصرية، لم يتبق منها سوى طيفين، للونين الأزرق والأحمر، لون الحلم، ولون الدم...